آشيل مبيمْبي

الوحشيَّة

[فقدان الهُوِيَّة الإنسانيَّة]

ترجمة:

د. نادرة السنوسي



Achille
Mbembe
Brutalisme

نديم للترجمة



دار الروافد الثقافية - ناشرون



ابن النديم للنشر والتوزيع

المحتويات

كلمة المترجمة

ساد الاعتقاد وما زال يسود بأنّ البشريّة تتطوّر باطراد نحو ما هو أفضل. وخيّمت هذه القناعة على الفكر البشري، عندما سارع فلاسفة عصر "الأنوار" في القرن الثامن عشر إلى إحداث قطيعة بين الفكر الميتافيزيقي، الغيبي والماورائي من ناحية، والفكر العلمي المجرّد والمادّي من ناحية أخرى. فأصبحت الإنسانية، خاصة منذ انطلاق الثورة الصناعيّة خلال القرن التاسع عشر، واثقة من نفسها بعد السيطرة على المجال والمادّة في نفس الوقت، بل والانطلاق لسبر أغوار الفضاء. وبالرغم من هذا التطوّر، والأمل في التحكّم ماديّا في الموارد الطبيعيّة، وتحقيق المزيد من الحقوق بتكريس حقّ المواطنة دون تمييز عنصري، فقد تفاقمت وحشيّة الإنسان لا إزاء أمثاله مهما كانت أصولهم ومشاربهم فحسب، بل وإزاء جميع بقيّة الكائنات الحيّة الأخرى، ملحقا أيضا الأضرار الفادحة بالوسط الطبيعي والبيئة التي يعيش فيها. وحشية تجاوزت الحدود، لا بسبب الحروب المتواترة والتصفيات العرقية التي اتخذت طابع الإبادة، والعنصرية التي، وإن خفّت ظاهريا أساليبها، ولكنها لا تنذر بالعودة بأكثر حدّة ووحشية فحسب، بل وحشية تجاوزت حدود الوحشية التي عرفتها فصيلة الديناصورات والتي أدّت إلى انقراضها، لأنّ

الإنسان الغربي بصفة عامّة يمتلك ترسانة من الأسلحة الفتاكة ووسائل الدّمار النووي ما يدمّر لا ذاته فقط، بل وكذلك الكائنات الحيّة معه، في لحظة غفلة أو سوء تصرّف في عالم الرقمنة الذي ولجناه بكلّ سرعة، إلى درجة أنّ الإنسان شرع في فقدان هويّته الإنسانية، لكي يصير رقما أو بالأحرى إنسانا آليّا، روبوتا، تحرّكه أياد خفيّة، باسم العولمة والنموّ الاقتصادي فقط.

كلّ هذه المحاور، تناولها الفيلسوف الكاميروني، آشيل مبيمْبي، في كتابه الصادر مؤخرا (فيفري 2020) بباريس، حيث أبدى نوعا من المخاوف من المسيرة التي اتبعتها البشريّة منذ الثورة الصناعية. فعوض تحقيق الآمال التي وضعتها هذه الثورة الصناعيّة في المبادئ الإنسانية والتي أنجزتها العديد من الثورات السياسية والاجتماعية، فإنّها أفرزت حروبا مدمّرة، أهمها الحربان العالميتان وما صاحبتهما من محاولات إبادة جماعية للعديد من الأقوام، وإثارة حروب بالوكالة بعد ذلك، واللجوء الآن إلى حروب إلكترونية، وربّما الحروب البيولوجية التي ظهرت بوادرها مع جائحة الكوفيد 19 في بداية سنة 2020 والتي لم يتسنّ لآشيل مبيمْبي تناولها، وإن تناول بعض مستجدّات سنة 2019، بحكم صدور كتابه في نفس فترة ظهور هذه الوحشيّة الجديدة، بما أنّها قد تهدف إلى التخلص من العديد من المسنين المتقاعدين الذين تعرّضوا منذ بعض سنوات إلى التقليص في صرف مستحقاتهم بسبب طول فترة حياتهم،

والتخلص أيضا من كمّ وفير من الفقراء غير القادرين على معالجة أنفسهم بحكم خصخصة المرافق الصحيّة في العالم الغربي بالخصوص، وحتى في كثير من البلدان التي بدأت تتخلى عن سياسة الضمان الاجتماعي. وقد تكون هذه الجائحة نوعا من الوحشيّة الواجب دراسة أسبابها ودوافعها وتداعياتها، أو ربّما تكون "انتقاء طبيعيا" لجميع الكائنات الحيّة، بما فيها الإنسان، حسب النظرية الداروينيّة.

إنّ الوحشيّة متأصلة لدى الكائنات الحيّة بصفة طبيعية، خاصة لدى الحيوانات للبقاء على قيد الحياة، فقد كانت كذلك بالنسبة إلى البشرية، ولكنها بصفة مقننة، إن صحّ التعبير. وأحسن مثال على هذه الوحشيّة، هي مظاهر العبودية التي وقعت ممارستها منذ القدم إزاء المنهزمين أو الغرباء بالخصوص، حتى ينعم أشراف القوم، أو من اعتبروا أنفسهم "أحرارا"، برغد العيش ويتمكنوا من ممارسة أنشطة أسموها سامية، مثل السياسة ومزاولة العلوم بمختلف أشكالها، حتى الفلسفية منها. ووصلت الوحشية درجة من القسوة دفعتها إلى عمليات الخصي، خاصة إزاء العبيد السود، حتى لا تختلط الأعراق. وتحوّلت هذه العبودية فيما بعد، بعد تحرير العبيد خلال القرن التاسع عشر، إلى عنصريّة ما زالت مظاهرها متواصلة، خاصة في العالم الغربي، بالرغم من وجود مجتمع مدني وأحزاب تندّد بهذه العنصريّة.

فعلا، هنالك في العالم الغربي، سواء الأوروبي أو الأمريكي استنكار لهذه العنصرية نظريا، ولكنها في الوقت

الراهن أصبحت، في ظروف الأزمة الخانقة على عدّة مستويات، تقتصر على الهمس فقط بتلك الإدانة، شاجبة موجات الهجرة غير الشرعيّة الوافدة على أوروبا الغربية من القارة الإفريقيّة بالخصوص. وهي الظاهرة التي تفاقمت منذ بداية الألفيّة الثالثة، انطلاقا من سواحل الشمال الإفريقي، حيث تسجّل يوميا مآسي بشريّة لم يشهدها من قبل البحر الأبيض المتوسط.

نلاحظ أنّ البلدان الأوروبية المتاخمة للمتوسط، بالرغم من أنّها ما زالت في حاجة إلى يد عاملة رخيصة، أمست تتشدّد في منح التأشيرات للدخول لأراضيها للأفارقة بصفة عامّة، وذلك بسبب تفاقم النزعات العنصريّة التي بدأت تنتشر في صفوف مواطنيها، بالرغم من تظاهرهم بالتمسك بمبادئ الحريّة والعدالة والأخوة والمساواة، وكذلك حقوق الإنسان، غير معترفة بما قامت به خلال الفترة الاستعمارية، وما زالت تقوم به، من استغلال للموارد الطبيعية للقارة الإفريقيّة، بل وحتى أساطيرها، ومعتقداتها، وفنونها وألوانها، دون مقابل، وذلك باسم التفوّق الحضاري "المسلّح" لهذا الغرب.

ولكن إن جرّم آشيل مبيمْبي الغرب الأوروبي في هذا الشأن، بحكم منشئه الإفريقي، واعتباره بأنّ إفريقيا أمّ الدنيا ولها مستقبل منقطع النظير ومتأكد، فقد مرّ سريعا على الأسباب الحقيقية لهجرة الشباب الإفريقي نحو أوروبا. فهذا الشباب يسعى إلى آفاق جديدة في عالم مختلف، رغم مظاهر العنصريّة فيه، معتقدين بأنّه عالم العدالة والحريات، وليس

عالم الدكتاتوريات والقهر والظلم التي تعرفها بلدانهم، وكذلك الحروب الأهلية التي تندلع هناك بين الحين والآخر. والحال أنّ هذه البلدان تستطيع بثرواتها الطبيعية أن تصبو، بما لديها من مخزون حضاري، إلى ما هو أفضل، لو أنّ قياداتها وحكوماتها تخلصت من القبليّة المتغلغلة فيها ولجأت إلى نوع من الحوكمة الرشيدة في مواردها واستغلال طاقات شبابها على أحسن وجه.

وبصفة عامة، فإنّ هذا الكتاب، "الوحشية"، يطرح الكثير من التساؤلات الحيويّة والراهنة، رغم ما اكتساه من صبغة تشاؤميّة، قد تجعل منّا ديناصورات العصر الحديث، التي تسير نحو فنائها دون وعي، وهي تعتقد أنّها بالرقمنة تسير نحو مزيد من التطور. وهو أيضا كتاب جدير بأن يدفعنا إلى مزيد من التفكير في واقعنا الرّاهن، والعالم يواجه جائحة خطيرة، لا زلنا لا نعرف خاتمتها في حال لم يعثر على ترياق لها.

د. نادرة السنوسي





تليجرام
مكتبة
غواص
في بحر الكتب

كلمة أولى

أستعير مفهوم الوحشية من التفكير الهندسي[1]. غير أنّ الأمر، في ذهني، يتعلّق بنمط سياسي للغاية، إذ كيف يكون مخالفا لذلك، بما أنّه يوجد في الهندسة ذاتها، من الوهلة الأولى، بُعد سياسي، سياسة مواد جامدة أم لا، المزعومة أحيانا بأنّها غير قابلة للالتفاف. وخلافا لذلك، ما هي السياسة إن لم تكن سوى سلطان على جميع الأنظمة التي نجتهد في نسخها شكلا، وعند الحاجة بالقوّة، وتمرين تعفف وإعادة تشكيل إن اقتضت الحاجة؟

(1) حول موضوع حركة الوحشية، يمكن الرجوع بالخصوص إلى: Reyner Banham, The New Brutalism: Ethic or Aesthetic?, Architectural Press, Londres, 1966. Voir également Alexander Clement, Brutalism: Post-War British Architecture, Crowood Press, Ramsbury, 2011. En ce qui concerne la reprise du concept dans la musique et en particulier dans l'acoustique electronique, voir Mo H. Zareei, Dugal McKinnon, Dale A. Carnegie et Ajay Kapur, «Soundbased brutalism: An emergent aesthetic», Style and Genre in Electroacoustic Music, vol. 21, no 1, 2006. Reyner Banham, The New Brutalism: Ethic or Aesthetic?, Architectural Press, Londres, 1966. Voir également Alexander Clement, Brutalism: Post-War British Architecture, Crowood Press, Ramsbury, 2011. En ce qui concerne la reprise du concept dans la musique et en particulier dans l'acoustique electronique, voir Mo H. Zareei, Dugal McKinnon, Dale A. Carnegie et Ajay Kapur, «Soundbased brutalism: An emergent aesthetic», Style and Genre in Electroacoustic Music, vol. 21, no 1, 2006.

والهندسة، في مقام ثان، سياسة بقدر ما أنّها تضع حتما رجفة من التوتّر، أو إن أردنا توزيعا لعامل القوّة بين أعمال التدمير والبناء، انطلاقا أحيانا ممّا يمكن أن نطلق عليه اسم لبنات أوّليّة. فالسياسة، بدورها، ممارسة لأداة، وعمليّة تجميع، وتنظيم، وتشكّل، وإعادة توزيع، بما فيها المجالي، لمجموعات جسديّة حيّة، ولكنها، في الأساس، غير ماديّة. ويجدر تحديد الوحشيّة، في نقطة التقاء ما هو غير مادي، وما هو جسدي ومادي[2].

فبوجود الهندسة والسياسة، عند تحديد كلّ واحدة منهما في نقطة التمفصل بين المواد، يكون الجسدي وغير المادي، والهندسي والسياسي، لا يمثلان جزءًا من عالم الرّموز واللغة فقط، بل إنّهما أيضا مؤسسان عالم تقني، هو عالم الأشياء والأجساد، وخاصة التقاطعات لما يمكن تقليمه، وإضعافه، وقولبته، وصياغته، وإقامته، وباختصار جعله عموديّا، وبالتالي، إعادة تشغيله. وتكون نقطة تدخّلها

---

(2) لا تحيل "الجسديّة" هنا فقط إلى الكتلة التي يمثلها الجسد وجميع ما يكوّنه موضوعيّا (البشرة وألوانها، والأعضاء مأخوذة فرادى، والعظام المكوّنة للهيكل، والدّمّ المتدفق في العروق، والأعصاب، والنظام المشعّر المصوّر فيها مثل الغطاء النباتي، والجراثيم التي تستحضر فيها عالم الأحياء، والمياه التي من دونها قد تخضع إلى الجفاف، الخ). وتحيل الجسديّة أيضا إلى الطريقة التي يكون فيها الجسم موضوع إدراك حسّي، أي بنشأة وإعادة نشأتها بالنظر، وبالمجتمع، وبالتكنولوجيا، وبالاقتصاد أو بالسلطة؛ فهي الطريقة التي تطرح في علاقة بكلّ ما يحيط بها أو يتحرّك ويخلق بدوره عالما.

منطقة المادّة هي بمثابة الإقليم للحيّ، هذا التقاطع للطرق الوهّاجة بكثافة متعدّدة، تكون فيه المادّة الخام في شكل نار، وخرسانة، ورصاص أو فلاذ، حافزا، ممّا يصرف، على الفور، الاعتراضات القديمة بين عالم الفكر والرّوح من جهة، وعالم الأشياء، من جهة أخرى. فهذه المادّة الخام هي الخاضعة للعمليات المتحوّلة، وللإجبار والسحق، والنهب، والشقّ، والتشريح، وإن استلزم الأمر، للتشويه.

وإذن، فإنّ الهندسة والسياسة مسألة استعداد مقنّن لمواد وأجسام، ومسألة كمّيات وأحجام، ومسافات وقياسات، وتوزيع وتعديل للطاقة. فانتصاب [الذّكر] العمودي في موقع مميّز هو إحدى الآثار الملموسة للوحشيّة التي تُمارس على الأجسام أو على المواد. غير أنّ كليهما بالخصوص مسألة عمل مع، وضدّ، وعلى، وفوق، ومن خلال العناصر.

في هذه الدّراسة، أدعو مفهوم الوحشيّة للمثول قصد وصف فترة استولى عليها شغف الهدم والإنتاج، على المستوى الكوني، من تحفظات الظلاميّة ومن نفايات من كلّ نوع، وبقايا، وآثار الخالق العظيم. فالأمر لا يتعلّق بوضع علم اجتماع أو اقتصاد سياسي للتوحّش، وليس أيضا برسم لوحة تاريخيّة. ولا يخصّ الأمر أيضا معالجة العنف بصفة عامّة أو أشكال من القساوة والساديّة اللتين ولّدهما الاستبداد. وانطلاقا من الثروة الهائلة للمادّة الاجتماعية والاثنوغرافية المتوفّرة بعد (والتي نحيلها بحريّة في الهوامش المرجعيّة)، فإنّ الهدف هو القيام **بتقطعات** تسمح برسم **لوحة**

جصيّة، وبطرح أسئلة بصفة مغايرة، وخاصّة بذكر كلمة حول ما توفره هذه الفترة من خصوصيّة نُسبت إليها العديد من الأسماء وهيمنت عليها ثلاثة تساؤلات مركزيّة، وهي الحساب في شكله الرقمي، والاقتصاد في شكله البيولوجي العصبي والكائن الحيّ فريسة مسار تضخّم[3].

يوجد في صلب هذه التساؤلات الثلاثة مسألة الأجسام البشريّة، وبصفة عامّة مستقبل "السكان" والتغيير التقني للكائنات، سواء كانت بشريّة أم لا. غير أنّ الأضرار والجراحات التي تسبّب فيها هذا التهجير ليست أحداثا طارئة أو مجرّد أضرار جانبيّة. وإن تحوّلت البشريّة، في الحقيقة، إلى قوّة جيولوجيّة، فإنّنا عندئذ لا نستطيع الحديث عن تاريخ كما هو، بل يكون التاريخ، من الآن فصاعدا، تعريفيّا، وتاريخيّا- جغرافيّا، بما في ذلك تاريخ السلطة. وإذن، أشير، بالوحشيّة، إلى محاكمة تتكوّن بها السلطة مستقبلا كقوّة تضارسيّة، وتعبّر عن نفسها، وتعيد تكوين ذاتها،

---

(3) بالنسبة للجانب الأوروبي- الامريكي لهذا الجدل، انظر:
William E. Scheuerman, «Hermann Heller and the European crisis: Authoritarian liberalism redux?», *European Law Journal*, vol. 21, nº 3, 2015; Michael A. Wilkinson, «Authoritarian liberalism in the European constitutional imagination: Second time as farce?», *European Law Journal*, vol. 21, nº 3, 2015; Wendy Brown, «Sacrificial citizenship: Neoliberalism, human capital, and austerity politics», *Constellations*, vol. 23, nº 1, 2016; Paul Stubbs et Noemi Lendvai-Bainton, «Authoritarian neoliberalism, radical conservatism and social policy within the European Union: Croatia, Hungary and Poland», *Development and Change*, 10 décembre 2019; https://doi.org/10.1111/dech.12565.

وتتصرّف وتستنسخ عن طريق **الكسر والانشقاق**. ولديّ أيضا فكرة عن البعد الجزيئي والكيميائي لهذه المسارات. أليست صفة التسمّم، أي تعدّد المواد الكيميائية والنفايات الخطيرة، بعدا هيكليّا للحاضر؟ فهذه المواد والنّفايات (بما فيها النّفايات الإلكترونيّة) لا تهاجم الطبيعة والمحيط (الهواء، والأتربة، والمياه، والسلاسل الغذائيّة) فحسب، بل وأيضا الأجسام المعرّضة هكذا إلى الرّصاص، والفوسفور، والزئبق، والبيريليوم، والسوائل المبرّدة.

تعيد السلطة، عن طريق هذه التقنيات السياسيّة المتمثّلة في الكسر والانشقاق، خلق لا الإنسانيّة فحسب، ولكن كائنات، بصفة حقيقيّة. إنّ المادّة التي تجتهد في (إعادة) توفير شكل أو تحاول التحوّل إلى كائنات جديدة تُصاغ بشكل شبيه بالطريقة التي نستعملها عندما نواجه الصخور والصخور الزيتيّة التي من الواجب تفجيرها لاستخراج الغاز والطاقة. ومن هذه الزاوية، تكون إذن مهمّة السلطات المعاصرة، أكثر من أيّ وقت مضى، جعل عمليّة الاستخراج ممكنة[4]، ويتطلب هذا تكثيف القمع. وتمثل عمليّة حفر الأجسام والعقول جزءا منها. وبما أنّ الحالة الاستثنائيّة أصبحت نموذجا وحالة استنفار دائمة، فإنّ الأمر يتطلب استعمال القانون بإخلاص قصد مضاعفة الوضعيات غير القانونيّة، وتفكيك كلّ شكل للمقاومة.

---

(4) Claudia Aradau et Martina Tazzioli, «Biopolitics multiple: Migration, extraction, subtraction», *Millennium*, 19 décembre 2019.

يجدر عندئذ، أمام منطق الكسر والانشقاق، إضافة منطق الإنهاك والاستنزاف. ومرّة أخرى، لا يخصّ الكسر والانشقاق والاستنزاف المصادر فحسب، بل يخصّ أيضا أجسام الكائنات الحيّة المعرّضة إلى الإنهاك الجسدي وإلى كلّ أشكال المخاطر البيولوجية الخفيّة أحيانا (تسممات حادّة، وأمراض السرطان، وشذوذ الخليقة، والاضطرابات العصبيّة، والاختلالات الهرمونيّة). إنّ مجمل الكائنات الحيّة، المقتصرة على مائدة مائيّة وعلى مساحة، هي التي تخضع إلى تهديدات زلزاليّة. إنّ هذه الجدليّة للهدم و"للخلق المدمّر" بما لديها من هدف يتمثّل في الأجسام، والأعصاب، والدّم، والدّماغ البشري وكذلك أحشاء الزمن والأرض هي في صلب الأفكار القادمة[5]. فالوحشيّة هي الاسم الذي مُنح إلى هذه المحاكمة العظيمة للطرد والإجلاء، ولكن أيضا عمليّة لإفراغ الأوعيّة الدّمويّة والقضاء على المواد العضويّة[6].

ومن خلال هذا الاسم، نبحث عن رسم ما يمكن أن نسمّيه **الصّورة- الفكرة**، ونبحث عن تلوين ملامح مشهد

---

(5) لمقاربات أخرى، انظر:
Martijn Konings, *Capital and Time: For a New Critique of Neoliberal Reason*, Stanford University Press, Stanford, 2018; Adriano Cozzolino, «Reconfiguring the state: Executive powers, emergency legislation and neoliberalization in Italy», *Globalizations*, vol. 16, nº 3, 2019, p. 336-352.

(6) Susanne Soederberg, «Evictions: A global capitalist phenomenon», *Development & Change*, 2 février 2018,.

مصفّف أو على الأقلّ خلفيّة تبرز منها مواقف وروايات وممثّلين لا تحصى ولا تعدّ. ولكن مهما كانت الاختلافات، ومن هنا الهويّات الخاصّة، يخضع الكسر والانشقاق، والازدحام والاستنزاف إلى نفس القوانين الرئيسيّة، وهي كونيّة وضع الزنجي، والمستقبل الزنجي في جزء كبير من البشريّة في مواجهة من الآن فصاعدا خسائر مفرطة وأعراض إنهاك عميقة لقدراتها العضويّة[7].

لقد طاردتني هذه التحفّظات المظلمة، وبالتالي رموز الزمن ورموز السلطة على الأقلّ منذ الربع الأخير للقرن العشرين[8]. وفي ذهني، سرت دوما بالتوازي مع التساؤل عمّا صرنا عليه، وما يمكن لنا القيام به لتحقيقه وما يمكن أن تكون عليه إفريقيا، والكرة الأرضيّة والبشريّة، وبصفة عامّة الكائن الحيّ[9]. وبعيدا عن الانفتاح على الحزن، اقتضى الأمر وضع أسس نقد للعلاقات بين الذّاكرة، والإمكانيّة و"المستقبليّة".

لقد كان الأمر متعلّقا بفهم لماذا كلّ ما يطوف، وما يحدث، بدءًا بالزّمن الذي يمرّ، ظلّ رهانا حاسما لكلّ

---

(7) Achille Mbembe, *Critique de la raison nègre*, La Découverte, Paris, 2013.

(8) Achille Mbembe, *De la postcolonie. Essai sur l'imagination politique dans l'Afrique contemporaine*, Karthala, Paris, 2000; rééd. La Découverte, 2020.

(9) Achille Mbembe, *Sortir de la grande nuit. Essai sur l'Afrique décolonisée*, La Découverte, Paris, 2010.

سلطة. فكلّ سلطة تحلم فعلا، إن لم تصنع زمنا، بأن تضمّه على الأقلّ وأن تستعمر الخصائص الجوهريّة. وفي غموضه، ألا تكون خاصيّة الزّمن أن لا تنضب، وأن لا تُحصى موضوعيّا، وأن لا تكون فوق كلّ ذلك غير مناسبة؟ وإضافة إلى ذلك، فالزّمن غير قابل للتّدمير. وربّما تكون هذه آخر خاصيّة له، وهي الأزليّة، التي تفتن، في نهاية المطاف، السلطة. ولهذا السبب، تصبو كلّ سلطة، في جوهرها، إلى أن تصنع لنفسها زمنا، أو على الأقلّ استيعاب حسناته. وفي نفس الوقت، تكون السلطة، من البداية إلى النهاية، تقنيّة لاستعمال الوسائل والبناء. فهي في حاجة إلى العجين، والخرسانة، والإسمنت، وخليط الرّمل، والعوارض الخشبيّة، والحجارة للسّحق، والرّصاص، والفولاذ ـ وأجسام من عظام، ولحم، ودم، وعضلات وعروق. فتكون عمليّة الهدم في الحقيقة مهمّة عظيمة.

إنّ هذه الممارسات للهدم، والكسر، ووضع الحصى، والتدمير، والسّحق، هي من صلب الوحشيّة في معناها السياسي. وهي ليست المعادلة الصحيحة للافتراس، ولالتهام الذات، أو لأكل لحوم البشر (لا يهمّ التعريف الذي نمنحه إلى هذه العبارات) التي اعتدنا تحديد أماكنها في المجتمعات القديمة أو البدائية[10]. وتكون بعمق، وهي

---

(10) انظر Anselm Jappe, *La Société autophage. Capitalisme, démesure et autodestruction*, La Découverte, Paris, 2017؛ ولتأويل كاثوليكي لهذه الممارسات، انظر:

مدفوعة في نفس الوقت بالآلات القديمة والتكنولوجيات الحسابية المتطوّرة جدّا، المستقبليّة والتي ستزن بثقل خاص على مستقبل الأرض. فهي لها بعد في الآن نفسه جيولوجي، وجزيئي وعصبي.

تيقّنت من ذلك عندما شرعت في كتابة هذا التأليف، وهو أنّ قسما من أفكاري منذ الربع الأخير من القرن العشرين ستكون مركّزة على ممارسة وتجربة السلطة باعتبارها تمرينًا لتدمير الكائنات، والأشياء، والأحلام، والحياة في سياق إفريقي معاصر. فقد صُدمت بكميّة الطاقة المُستهلكة، خاصّة في السلّم السفلي للمجتمع، لأعمال الترقيع السرمديّة، بل ولإصلاح ما انكسر، وانفصم، أو غُمر ببساطة من قبل الصّدأ، فظلّ في وضعيّة إهمال مستدام.

كنت بطيئا في فهم أنّ ممارسات الهدم فعلا لا تعود إلى حوادث. ففي كثير من الحالات، كنّا أمام أنماط تنظيم لكائن حيّ كان يعمل على أساس مضاعفة وضعيّات غير محتملة ظاهريًا، وتارة عبثيّة ومعقّدة، وطورا آخر غير قابلة للعيش. كان ذلك لأنّ مثل هذه السياقات يسيّرها قانون المستحيل والتدمير[11]. وظهر لي في البداية كسمة محدّدة لما

Joseph Tonda, *Le Souverain moderne. Le corps du pouvoir en Afrique centrale, Congo et Gabon*, Karthala, Paris, 2005, *puis L'Impérialisme postcolonial. Critique de la société des éblouissements*, Karthala, Paris, 2015.

(11) انظر على التوالي:
Achille Mbembe, «Désordres, résistances et productivité», *Poli-*

أسميته ما بعد الاستعمار، بأن شرع في فقدان ميزته كلما اتبع عملي شيئا فشيئا منحى استرجاع المخصصات المضاعفة في سياقات مختلفة. وفهمت بأنّ الأمر هو نسيج كان سلّمه أكبر بكثير من القارة الإفريقيّة. وفي الحقيقة، لم تكن هذه الأخيرة سوى مخبر لها لتحوّلات على المستوى الكوني[12]. ومنذ ذلك الحين، سخّرت نفسي، مع آخرين، للتفكير في هذا المنعرج الكوني للفاعل الإفريقي لنقيضه، المستقبل الإفريقي للعالم[13].

يكون الزّمن فعلا في الحدادة والمطرقة، في الجمرة والسندان، ويمكن أن يكون الحدّاد آخر تجسيد إلهي لأعظم المواضيع التاريخيّة. وهنالك عمليّة شاسعة لاحتلال الأراضي، والسيطرة على الأجسام والمتخيّل، والتفكيك، والانفصال والهدم قيد التقدّم[14]. وهو ما يؤدي، في كلّ

tique africaine, nº 42, 1991, p. 2-8; «Pouvoir, violence et accumulation», *Politique africaine*, no 39, 1990, p. 7-34; «Prosaics of servitude and authoritarian civilities», *Public Culture*, vol. 5, nº 1, 1992; «Du gouvernement privé indirect», *Politique africaine*, no 73, 1999, p. 103-121; «Necropolitics», *Public Culture*, vol. 15, nº 1, 2003, p. 11-40; «Essai sur le politique en tant que forme de la dépense», *Cahiers d'études africaines*, nº 173-174, 2004, p. 151-192.

(12) . Achille Mbembe, *Critique de la raison nègre*, La Découverte, Paris, 2013; *Politiques de l'inimitié*, La Découverte, Paris, 2016.

(13) Felwine Sarr, *Habiter le monde. Essai de politique relationnelle*, Mémoire d'encrier, Montréal, 2018; Achille Mbembe et Felwine Sarr (dir.), *Politique des Temps*, Philippe Rey/Jimsaan, Paris, 2019.

(14) Adi Ophir, Michal Givoni et Sari Hanafi, *The Power of Inclusive Exclusion: Anatomy of Israeli Rule in the Occupied Palestinian Ter-*

مكان تقريبا، إلى "حالات طوارئ" أو "حالات استثنائيّة"، تطول بسرعة كبيرة وتصبح دائمة[15]. وتتبلور الطرق المعاصرة للهدم بينما يقع بعمق إعادة صياغة الانشطارات الكلاسيكيّة بين الشكل/ المادّة، والمادّة/ المواد، والمادي/ واللامادي، والطبيعي/ المصطنع، والجيّد/ المتوسّط. وعند منطق المعارضات يتمّ استبدال منطق التعديلات، ونقط الالتقاء والتحوّلات المتعدّدة. فلم تعد هنالك مادّة جاهزة في الأصل وطيعة. ولا يوجد سوى ما هو متكوّن بالاشتراك انطلاقا من تماثل القوالب والرّوابط.

وهنالك مسار تغيير لعصر لا لبس فيه، بل وأيضا ظرف، ناتج عن تحوّلات المحيط الحيوي والتكنولوجيا. إنّ هذا المسار، الذي يثير هزّات غير مسبوقة، كونيّ. هدفه تعجيل تحوّل النوع البشري وتسريع مروره إلى وضع جديد، بلاستيكي واصطناعي في نفس الوقت، وبالتالي طيّع وقابل للتوسيع. ولتهيئة المرور نحو استغناء جديد عن الأرض (**قانون جديد للأرض**)، يجب في الحقيقة خلافا لذلك إلغاء المجتمع، وعلى الأقلّ نحته، وفي الأخير تعويضه بعالم كليّ، عالم الأجهزة الخلويّة، والعصبيّة والحاسوبيّة. فهو

---

ritories, Zone Books, New York, 2009; John Reynolds, «Repressive inclusion», *Journal of Legal Pluralism and Unofficial Law*, vol. 49, nº 3, 2017, p. 268-293.

(15) Haley Duschminski et Shrimoyee Nandini Ghosh, «Constituting the occupation: Preventive detention and permanent emergency in Kashmir», *Journal of Legal Pluralism and Unofficial Law*, vol. 49, nº 3, 2017, p. 314-337.

عالم الأنسجة، والدّم الاصطناعي، الذي سيتمّ ملؤه بأجسام وشخصيّات نصف طبيعيّة، ونصف اصطناعيّة[16]. فيجب، في لفتة نهائيّة لتهجين المادة والرّوح، إعادة الإنساني إلى موطنه، عند نقطة التقاء المادّي، وغير المادّي، والحسّي، مع محو دفعة واحدة آثار الطين الموسوم على الجبين وعلى وجه الإنسانيّة منذ أن استقبلته الأرض على بسيطتها وفي أحشائها.

إنّ تغيير الإنسانيّة إلى مادّة وطاقة هو المشروع النهائي للوحشيّة. سيُسلّط الانتباه، في هذا التأليف بطريقة منفردة على أثريّة وضخامة مثل هذا المشروع. إنّه عمل شاسع، بما أنّه ليس فقط هندسة العالم التي من الواجب صياغتها، بل نسيج الكائن الحيّ ذاته وأغشيته المختلفة. وقد فهمنا ذلك، بما أنّ الأفكار الموجودة في هذا التأليف ليست سوى شيئا آخر من حجّة طويلة لفائدة وعي كوني جديد ولإعادة تأسيس طائفة بشريّة متضامنة مع مجموع الكائنات الحيّة. سوف لا يحدث الانتماء إلى أرض مشتركة، حقيقيّة، وملموسة، وواضحة، دون مقاومة. ولكن مثل ما توقّعه فرانز فانون، كانت المقاومة الحقيقيّة، في أسبقيّتها، مسألة إصلاح، بداية من إصلاح ما وقع تهشيمه.

* * *

(16) Julie Kent et Darian Meacham, «"Synthetic blood": Entangling politics and biology», *Body & Society*, 14 janvier 2019.

إن كان لهذه البيّنة الجديدة فائدة **سياسة تعويض** أيّا كان الاستحقاق، فإنني أدين له باهتمام العديد من الصديقات، والأصدقاء والمؤسسات، بدأ من مركز فيتس للبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة في جوهانسبرغ، حيث استفدت، سنة 2001، من حريّة مميزة وظروف عمل فذّة. فأعبّر هنا عن امتناني إلى مديرة المؤسسة، الأستاذة سارة نوتال، وإلى أصدقائي كايث بريكانريدج، وإيزابيل هوفماير، وشيرين حاسيم، وباميلا غوبتا، وجوناتان كلايرن، وهلونيفا موكويينا، وريشارد روتنبورغ، وعديلة دوشموخ ونجيبة دوشموخ.

كانت ورشات الفكر في داكار مخبرا حقيقيّا، ومقرّ حوار آزره فيلوين سار، وإيليا دورلين، وناديا يالا كيزوكيدي، وفرانسواز فيرجاس، وعبد الرحمن ساك وبادة بدويي. واستفدت من حسن ضيافة العديد من المؤسسات والدوائر الأجنبيّة. كان ذلك خاصة، حال مركز جاكوب-فوجير في جامعة أوغسبورغ (ألمانيا)، وكرسي أليرتوس مانيوس من جامعة كولونيا، ومعهد تحليل التحوّل في التاريخ والمجتمعات المعاصرة للجامعة الكاثوليكيّة بلوفان (بلجيكا)، والمقهى الأدبي في أسلو، ومعهد فرانكلين للدراسات الإنسانيّة في جامعة ديوك (الولايات المتحدة)، ومركز ويتناي للدراسات الإنسانيّة في جامعة يال (الولايات المتحدة)، ومؤسسة وقف جيردا هنكل في دوسلدورف، ومركز أرنست بلوك في مانهايم (ألمانيا)، ومسرح تاليا في هامبورغ،

ومسرح دوسلدورف، ودار المأدبة والأجيال في لاغراس، ومخبر علوم المنطق الفلسفي المعاصر، ومخبر دراسات الجندر والعلوم الجنسيّة في جامعة باريس 8- فانسان - سانت دونيس، والمنتدى الفلسفي العالم لو مان ـــ في جامعة لو مان (فرنسا).

ومثلما هو في الماضي، تمكنت من الاعتماد على الصداقة الوفيّة والمؤازرة الصلبة لدافيد غولدبارغ، وبول جيلروا، وجان وجون كوماروف، وشارلي بيو، وإيان بوكوم، وإيريك فاسين. وأسدت لي منشورات **لا ديكوفارت**، وخاصة ستيفاني شيفريي، وباسكال إبلتيس، ودلفين ريبوشون وبرونو آوروباخ العديد من التشجيعات.

لقد صدرت أجزاء من هذه الفصول في منشورات مجلات وجرائد **ديبا**، **أسبري**، **لوموند وأ. أو. س.**

مقدّمة

قد نتظاهر بالاعتقاد بأنّ التسرّع التقني والمرور إلى الحضارة الحاسوبيّة، يمثلان مسلكا جديدا نحو الخلاص[1]. فكلّ شيء يسير وكأنّ التاريخ القصير للبشريّة على الأرض، في الحقيقة، قد وقع بعد إنجازه. وقد يكون الزّمن ذاته خسر جميع إمكانياته. وبما أنّ نظام الطبيعة أمسى من الآن فصاعدا فاسدا، وربما لم يبق لنا سوى تأمّل نهاية العالم. ومنذ ذلك الحين، ربّما لم تعد مهمّة الفكر تمثّل سوى القيام بالإعلان عنها. ومن هنا كان الظهور الحالي بقوّة لكلّ أنواع الروايات عن الآخرة وخطاب انهيار العالم[2].

احتراق العالم

يجازف، في الحقيقة، هذا الخطاب بالسيطرة على العشريات المعلن عنها، وينتشر على خلفيّة مخاوف متعدّدة.

---

(1) مثال على هذا التفاؤل التقني انظر:
Christopher J. Preston, *The Synthetic Age: Outdesigning Evolution, Resurrecting Species, and Reengineering our World*, MIT Press, Cambridge, 2018.

(2) Mabel Gergan, Sara Smith et Pavithra Vasudevan, «Earth beyond repair: Race and apocalypse in collective imagination», *Environment and Planning D: Society and Space*, 7 février 2018,.

فمن ناحية، يقع باستمرار شحذ ردود الفعل المفترسة التي طبعت المراحل الأولى من تطوّر الرأسماليّة في كلّ مكان، رويدا رويدا كلّما تحرّر الآلة من أيّ جذب وتحكيم وأن تهيمن على الكائن الحيّ كمادتها الأوّليّة[3]. ومن ناحية أخرى، لا نتوانى، من وجهة نظر إنتاج رموز تتكلم بصيغة المستقبل، من الدّوران في فراغ. ففي الشمال خاصة، تتظافر، من الآن فصاعدا، النبضات الإمبرياليّة القديمة مع الحزن والحنين إلى الماضي[4]. كان الأمر كذلك لأنّ المركز، مكلوم بالإرهاق المعنوي ومُصاب بالضجر، أصبح الآن دون رجعة منخورا برغبة متفاقمة للحدود وبالخوف من الانهيار، ومن هنا النداءات المبطّنة تقريبا لا للتوسّع كما هو عليه، بل للانفصال[5].

إن كان الطبع في انحسار وانغلاق، فذلك لأنّنا، في جزء، لم نعد نؤمن بالمستقبل[6]. فبما أنّ الزمن انفجر وأنّ

---

(3) Shoshana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power*, Harvard University Press, Cambridge, 2018.

(4) Paul Gilroy, *Postcolonial Melancholia*, Columbia University Press, New York, 2006.

(5) Luiza Bialasiewicz, «Off-shoring and out-sourcing the borders of Europe: Lybia and EU border work in the Mediterranean», *Geopolitics*, vol. 17, nº 4, 2012, p. 843-866. Lire aussi Laia Soto Bermant, «The Mediterranean question: Europe and its predicament in Southern peripheries», in Nicholas De Genova, The *Borders of Europe*, Duke University Press, Durham, 2017.

(6) في محاولة لإعادة طرح إشكالية المستقبل إلى ما وراء إيديولوجيا التطوّر انظر:

المدّة الزمنيّة وقع إخلاؤها، فإنّ حالة الطوارئ هي التي أصبحت المعيار الوحيد[7]. ربّما تكون الأرض قد أصيبت فعلا بالوباء بصفة جديّة[8]. فلم نعد نترقّب شيئا، سوى النهاية ذاتها. وفضلا عن ذلك، كادت الحياة عند حدود الأطراف أن تصير النموذج، وحالتنا المشتركة. إنّ تجميع رأس المال في بعض الأيدي لم يبلغ أبدا مستويات أرفع ممّا هو عليه اليوم[9]. وعلى المستوى العالمي، لم تتوان النخبة الثريّة العالمية النهمة من اللّعب في هذا الطرف وفي الآخر لسبي الثروات البشريّة ومصادرتها، وقريبا جميع موارد الكائن الحيّ[10].

Arjun Appadurai, *Condition de l'homme global*, Payot, Paris, 2013. Lire par ailleurs le dossier «The futures industry», *Paradoxa*, vol. 27, s.d.

وفي خصوص العلاقات بين المستقبل وحدود الحياة، انظر:

Juan Francisco Salazar, «Microbial geographies at the extreme of life», *Environmental Humanities*, vol. 9, nº 2, 2017, p. 398-417.

(7) Amanda H. Lynch et Siri Veland, *Urgency in the Anthropocene*, MIT Press, Cambridge, 2018.

(8) Francois Jarrige et Thomas Le Roux, *La Contamination du monde. Une histoire des pollutions à l'âge industriel*, Seuil, Paris, 2017.

(9) انظر:

Ian G. R. Shaw et Marv Waterstone, Wageless Life: *A Manifesto for a Future beyond Capitalism*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2019.

(10) انظر:

Aeron Davis, «Top CEOs, financialization and the creation of the super-rich economy», *Cultural Politics*, vol. 15, nº 1, 2019. Voir également Iain Hay et Samantha Muller, «That tiny stratospheric apex that owns most of the world», *Geographical Research*, vol. 50, nº 1, 2012, p. 75-88. Lire Melissa Cooper, *Life as Surplus: Bio-*

وتواجه، في نفس الوقت، طبقات بأسرها من المجتمع خطرا متزايدا من الانهيار المذهل[11]. ومنذ وقت ليس بالبعيد، كانت لديها إمكانيّة تغيير الوضع والقيام بتجربة حراك تصاعدي. وبما أنّ السباق متجه من الآن فصاعدا نحو التعثّر، فاقتصرت على المقاومة لحيازة وضمان القليل ممّا تبقى لها. ولكن عوضا من أن تنسب مسؤوليّة خيبة آمالها في النظام الذي يثيرها، تحيل خط التفقير الذي تواجهه على طبقات أكثر بؤسا منها، والمصابة مسبقا في وجودها المادّي، وتدعو بذلك إلى مزيد من الوحشيّة ضدّ الطبقات والأفراد الذين جُرّدوا من كلّ شيء تقريبا[12].

حدثت هذه الرغبة في العنف وزواج الأقارب وتنامي القلق على خلفيّة إدراك نهايتنا المكانيّة - بأكثر بروز من ذي قبل .- فلم تتوقف الأرض، في الحقيقة، عن التقلّص. وباعتبارها نظامًا منتهيا في حدّ ذاته، فقد بلغت حدودها. ولم تعد فيها القسمة بين الحياة وعدم الحياة سوى أكثر وضوحا. فلا يوجد جسم حيّ إلا في علاقة مع المحيط الحيوي، الذي يمثّل عنصرا مكتملا. ولم يكن هذا الأخير فقط حقيقة ماديّة، وعضويّة، وجيولوجيّة، ونباتيّة أو جويّة. ومثلما أعاد اكتشافه

---

technology and Capitalism in the Neoliberal Era, University of Washington Press, Seattle, 2008.

(11) Saskia Sassen, *Expulsions. Brutalité et complexité dans l'économie globale*, Gallimard, Paris, 2016 [2014].

(12) انظر:

James Tyner, Dead Labor *: Toward a Political Economy of Premature Death*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2019.

العديد من العلماء، فقد وقع أيضا صياغته عبر حقائق نوميناليّة [المرتبطة بعلم الأشياء]، تلك التي توجد في مصدر المعنى الوجودي[13].

لقد عاش البعض هذه التجربة للحدود قبل غيرهم. فبالنسبة إلى عديد من جهات الجنوب، كانت عمليّة **إعادة خلق الكائن الحيّ انطلاقا ممّا هو غير قابل للعيش** وضعيّة العديد من القرون[14]. والجديد هو أن نتقاسم من الآن فصاعدا هذه المحنة مع آخرين كثّر الذين لا يمكن لأيّ جدار، ولا أيّ جيب أو مقاطعة أن يحميهم مستقبلا.

إنّ تجربة احتراق العالم والانزلاق نحو الحدود القصوى لا يتوفّر فقط للمشاهدة في الاهتراء المذهل للموارد الطبيعيّة، والطاقات المتحجّرة أو المعادن التي تؤازر البنية التحتيّة الماديّة لوجودنا[15]. ويظهر أيضا على شكل سام في

---

(13) انظر:

Stefan Helmreich, Sounding the Limits of Life: *Essays in the Anthropology of Biology and Beyond*, Princeton University Press, Princeton, 2016; Istvan Praet et Juan Francisco Salazar, «Familiarizing the extraterrestrial/Making our planet alien», Environmental *Humanities*, vol. 9, nº 2, 2018, p. 309-324.

(14) Kathryn Yusoff, *A Billion Black Anthropocenes or None*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2019.

(15) لدراسة الحالة انظر:

Pierre Bélanger (dir.), *Extraction Empire: Undermining the Systems, States, and Scales of Canada's Global Resource Empire*, MIT Press, Cambridge, 2018.

المياه التي نشربها[16]، وفي الغذاء الذي نتناوله، وفي الأجواء التكنولوجيّة[17]، وحتى في الهواء الذي نستنشقه[18]. فهو في تفاعل مع التغييرات التي يتعرّض إليها المحيط الحيوي، مثلما تبرهن عليه ظواهر مثل تحمّض المحيطات، وارتفاع المياه، وتهشيم النظام البيئي المعقّد، وباختصار التقلب المناخي، والشعور بالفرار والسباق نحو الهجرة لمن وقع نهب وسطهم المعيشي. وفي الحقيقة، فإنّ النظام الغذائي للأرض ذاته هو الذي أُصيب، وربّما معه قدرة البشر على صناعة تاريخ مع كائنات أخرى.

ليس هنالك حتى تصوّرنا للزّمن الذي لم يقع وضعه محلّ جدل[19]. وعلى الرغم من أنّ السرعة لم تتوقف عن الانفجار، وأن يتمّ احتلال المسافات، فإنّ الزّمن الملموس، زمن لبّ العالم وتنفّسه، وزمن الشمس التي تشيخ، لم يعد

(16) . Bérengère Sim, «Poor and African American in Flint: The water crisis and its trapped population», in François Gemenne, Caroline Zickgraf et Dina Ionesco (dir.), *The State of Environmental Migration 2016*, Presses universitaires de Liège, Liège, 2016.

(17) Miriam L. Diamond, «Toxic chemicals as enablers and poisoners of the technosphere», *The Anthropocene Review*, vol. 4, nº 2, 2017, p. 72-80.

(18) انظر:

Josh Berson, The Meat Question: *Animals, Humans, and the Deep History of Food,* MIT Press, Cambridge, 2019.

(19) Dipesh Chakrabarty, «Le climat de l'histoire: quatre thèses», *La Revue internationale des livres et des idées*, no 15, 2010 [2009], p. 22-31.

متجدّدا إلى ما لا نهاية[20]. وفي الأساس، فهو من الآن فصاعدا محسوب علينا[21]. إنّنا في صميم عصر احتراق العالم. وفجأة، فإنّنا نواجه حالة طوارئ. غير أنّ حقيقة الطوارئ، والهشاشة، والضعف تحملت فعلا العديد من الشعوب محنتها من قبلنا، في ثنايا العديد من الكوارث التي فضحت تاريخها، محنة الإفناء، وعمليّات الإبادة الجماعيّة الأخرى، والمجازر، وانتزاع الملكيّة، وسلسلة من الغارات للاستعباد، والنزوح القسري، والحجز في المحتشدات[22]، ومناظر طبيعيّة سجنيّة[23]، وويلات استعماريّة[24] وأشلاء عظام على طول الحدود الملغّمة[25].

تحوم إذن إمكانيّة قطيعة عامة حتى على غشاء العالم، الخاضع كما هو إلى نشاط إشعاعي مدمّر. فهو، من ناحية، مدفوع بالتسلّق التقني وتكثيف ما نسمّيه **الوحشيّة**، ومن ناحية

---

(20) James Lovelock, Novacene: *The Coming Age of Hyperintelligence,* MIT Press, Cambridge, 2019.

(21) Marcus Hall, «Chronophilia; or, biding time in a Solar System», *Environmental Humanities*, vol. 11, nº 2, 2019, p. 373-401.

(22) Gary Fields, Enclosure: *Palestinian Landscapes in a Historical Mirror*, University of California Press, Berkeley, 2017.

(23) Brett Story, Prison Land: *Mapping Carceral Power Across Neoliberal America*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2019.

(24) انظر:

«Reflections on the Plantationocene: A conversation with Donna Haraway and Anna Tsing», 18 juillet 2019.

(25) Jason De León, *The Land of Open Graves: Living and Dying on the Migrant Trail*, University of California Press, Berkeley, 2015.

أخرى، بعقليات الاحتراق والإنتاج البطيء وغير المحدّد لجميع أنواع غيوم الرّماد، والأمطار الحمضيّة، وبإيجاز للأنقاض التي يضطرّ أن يعيش من فيها منْ انهارت عليه العوالم[26]. وبالمعنى الدّقيق للكلمة، يكون عصر احتراق العالم عصر ما بعد التاريخ[27]. فقد أنعش الانطباع مثل هذا الحدث سباقات قديمة، بدءًا بالسباق نحو تقسيم جديد للأرض، وإحياء كوابيس قديمة، ابتداء بكابوس انقسام النوع البشري إلى كائنات مختلفة وأصناف ملحوظة، كلّ واحدة منها، بخصائصها المزعومة التي لا يمكن التوفيق بينها[28].

ربّما يفسّر، على المستوى العالمي، إحياء الرّغبة في زواج الأقارب وممارسات الانتقاء والفرز التي طبعت تاريخ العبوديّة والاستعمار، وهما لحظتان من التّمزّق التي تحملها العاصفة الفولاذيّة، وقع تغذيتها بالتساوي بالوفود التي ستكون عليه العنصريّة في الحداثة[29]. وخلافا لهذه العصور، يرتكز محرّك الانتقاء الجديد من الآن فصاعدا على جميع

---

(26) Matthew S. Henry, «Extractive fictions and postextraction futurisms: Energy and environmental injustice in Appalachia», *Environmental Humanities*, vol. 11, nº 2, 2019, p. 402-426.

(27) Clive Hamilton, Christophe Bonneuil et François Gemenne (dir.), *The Anthropocene and the Global Environmental Crisis: Rethinking Modernity in a New Epoch*, Routledge, Londres, 2015.

(28) Daniel Martinez HoSang et Joseph E. Lowndes, *Producers, Parasites, Patriots: Race and the New Right-Wing Politics of Precarity*, Minnesota University Press, Minneapolis, 2019.

(29) A. Mbembe, *Critique de la raison nègre, op. cit.*

أنواع تكنولوجيّة النانو[30]. ولا يتعلّق الأمر أبدا، هذه المرّة، بالآلات فحسب، بل ببعض الشيء أكثر ضخامة أيضا، وبشيء دون حدود ظاهريّة، عند نقطة التقاء الحساب، والخلايا، والأعصاب، والتي يظهر أنّها تتحدّى حتى تجربة الفكر[31]. لقد صنعت التكنولوجيا البيولوجيا وعلم الأعصاب، وأصبحت حقيقة رمزيّة، وهي مجموع العلاقات الأساسيّة للبشر مع العالم الذي خرج منها مهتزّا.

وبينهما يدفع كلّ شيء نحو وحدة غير مسبوقة للكوكب، ثابر العالم القديم للأجسام، والمسافات، والمادّة، والنطاقات، والمجالات والحدود بالتجوّل بذاته. واكثر من ذلك، لم يتوقّف تحوّل أفق الحساب عن السير بالتوازي مع العودة المذهلة لمذهب حيويّة المادّة، وعبادة النّفس والأشياء، بينما أدّى التوسّع غير المحدّد تقريبا لمنطق القياس الكمّي إلى تسريع غير مرتقب للمستقبل- الاصطناعي للبشريّة. وربّما يمثل هذا المستقبل- الاصطناعي، ورديفه، المستقل- البشري للأشياء والآلات، المدّة الحقيقيّة لما يسمّيه البعض اليوم "البديل الرائع".

إنّ الوحشيّة هي اسمها الحقيقي، وهي تعظيم لشكل من سلطة دون حدود خارجية ولا في الخارج، والتي تخلّت

---

(30) Ruha Benjamin, *Race After Technology: Abolitionist Tools for the New Jim Code*, Polity, Londres, 2019.

(31) Luciana Parisi, «Instrumentality, or the time of inhuman thinking», 15 avril 2017,.

أيضا عن أسطورة الخروج، مثل أسطورة **عالم آخر قادم**. وبشكل ملموس، تتميّز الوحشيّة بتداخل ضيّق للعديد من رموز المنطق، وهي المنطق الاقتصادي والذرائعي، والمنطق الإلكتروني والرقمي، والمنطق العصبي والبيولوجي. وترتكز القناعة العميقة التي من خلالها لا يوجد أبدا فرق بين الكائن الحيّ والآلات. والمادّة في نهاية المطاف، هي الآلة، أي، في أيّامنا هذه، الحاسوب بمعناه الأكثر اتساعا، بما في ذلك الأعصاب والدّماغ، وكذلك كلّ حقيقة مضيئة، ففيه تكمن شرارة الكائن الحيّ. ومن الآن فصاعدا، لا تمثّل عوالم المادّة، والآلة والحياة سوى شيئا واحدا. وترافق الاتجاهات المفضّلة للحيويّة الجديدة التي تغذّي الليبراليّة الجديدة، والمذهب الحيوي للمادّة والوحشيّة، فتحوّلت إلى نظام تقني جديد أكثر شبكيّة، وآليّة، وهو في نفس الوقت أكثر واقعيّة وتجرّدا. وفي هذه الظروف، هل يمكن جعل الأرض والكائن الحيّ ليس فقط مناطق إثارة، بل مفاهيم سياسيّة محضة **وأحداثا للفكر ؟**

نجد ثانيّة فكرة القطيعة المتوارثة، الزلزالية والجيولوجيّة في الآن نفسه وظاهريّة التقنيّة تقريبا على أساس فكرة الشتات الإفريقي المعاصر. وهي بالخصوص حاضرة في التيارات الثلاث المتمثّلة في التشاؤم الإفريقي، والمستقبل الإفريقي، والسياسة الإفريقيّة. فكلّ واحد من هذه التيّارات مفعم بموضوع البذرة الواقعة على أرض مقفرة والتي تحاول التقاط أشعّة النّور حتى تعيش في بيئة معادية. فكيف يمكن، في

الحقيقة، لهذه البذرة، الملقاة في عالم مجهول وعرضة للغلوّ، أن تنبت هناك أين يوجد القليل وأين ينمو الكلّ بالتجفيف؟ وأيّ الأنظمة الجذريّة التي يجب تطويرها وأيّ أقسام جوفيّة يجب العناية بها؟ ففي كلّ واحد من هذه التيّارات الثلاثة، وخاصة في المستقبل الإفريقي، يكون، في كلّ مرّة، اختراع عالم جديد، فعلا اهتزازيّا. ويتأتى هذا الفعل ممّا يمكن أن نطلق عليه اسم الخيال الراديكالي[32]. وتكون خاصيّة الفعل الاهتزازي في تجاوز وتخطّي المعطى وقيوده. وفي هذا يساهم الفعل الاهتزازي في النشاط التقني، إن ارتأينا، بالنشاط التقني، القدرة على التحيين، وعمليّة الانتشار، وتظاهر احتياطيّ الطاقة[33].

ستُمثّل إفريقيا، في هذه التيارات الثلاثة، بشكل متناقض، وأبعد من الجرح، هذا الاحتياطي للطاقة، أو بالأحرى هذه **الطاقة الاحتياطيّة**، الوحيدة القادرة على إعادة توطين الآدمي لا على الأرض فحسب، بل وعلى الكون. إنّها الطاقة، الحقيقة، المحتملة تأسيسيًا، سواء في شكلها، أو في ذبذباتها أو في مادتها، بما أنّها عرضة للانفتاح على مجال لا متناه من التعديلات ووضع هياكل جديدة. وبالتالي، نطلق، في هذا التأليف الرّاهن من الفرضيّة القائلة **بأنّه في**

(32) Erik Steinberg, *Afrofuturism and Black Sound Studies: Culture, Technology, and Things to Come*, Palgrave Macmillan, Londres, 2019.

(33) Hadi Rizk, *L'Activité technique et ses objets*, Vrin, Paris, 2018, p. 147.

القارة الإفريقيّة، البلد الأمّ للبشريّة، تُطرح من الآن فصاعدا مسألة الأرض، بشكل مفاجئ جدّا وبشكل أكثر تعقيدا وتناقضا.

وهنا تكون، فعلا، إمكانيّات الوهن أكثر وضوحا. ولكن، هنا أيضا تكون فرص **الانتقال الخلّاق** الأكثر نضجا، إلى درجة أنّ بعض القضايا الكونيّة المتعلقة بمسألة التعويض ستبرز بأكثر حدّة، ابتداء من تعويض الكائن الحيّ في مجمله، وإصرار ومتانة الهيئات البشرية في حراك وتنقّل، والمواضيع التي هي من رفاقنا، ولكنها **من قبل موضوع** هو من الآن فصاعدا لا ينفصل عمّا أصبحت عليه البشريّة .**اهتزاز الأرض** (بالمعنى الذين يتحدّث فيه آخرون عن **الحسّي**)، فوقع، ها هنا أيضا، تقييم جميع الفئات التي ساعدت على تخيّل ما هو الفنّ، والسياسة، والحاجيات، والأخلاق، والتقنيّة واللغة بالطريقة الأكثر راديكاليّة، على الرّغم من أنّه، في الوقت ذاته، لم تتوقّف ظهور أشكال متناقضة للكائن الحيّ.

وبالتالي، ربّما سيمثّل هذا المنعطف الكوني للوضع الإفريقي والتوجّه الإفريقي للحالة الكونيّة الحدثين الفلسفيين، والثقافيين، والفنيين الأساسيين للقرن الحادي والعشرين. إنّها ستطرح، في الحقيقة، هنا، قضايا القرن الكبرى، التي تسأل بطريق مباشرة جدّا الجنس البشري، بأكثر إلحاح وحدّة، سواء كان الأمر إعادة التعمير الجارية للكوكب، أو تحرّكات السكان الكبرى، وضرورة إلغاء الحدود، ومستقبل الحياة والتفكير، أو أيضا ضرورة إزالة الكربون من الاقتصاد. وبسبب هذه الميادين العظيمة من مذهب حيويّة المادّة،

سيُجبر إلزاما كلّ الفكر الكوني على مواجهة العلامة الإفريقيّة.

فارماكون [دواء] الأرض

يجب دوما، من الآن فصاعدا، اعتبار "العلامة الإفريقيّة" سببا لتجاوز ما يمكن ملاحظته. وعلاوة على ذلك، فإنّ مظهر هذا التجاوز وما بعد هذا من المظاهر تقع محاولة خلق الشتات الإفريقي المعاصر. وهذا ما تجتهد فيه لشحذ طاقة خاصّة. وكانت إفريقيا من جديد، على المسرح العالمي، موضوع نشاط مكثّف، بدني وشبيه بالحلم في الآن نفسه، مثلما هو الحال في بداية القرن العشرين. ومن داخل مختلف مناطق شتاتها، عرف حلم أمّة قائمة، قويّة ومتميّزة في صلب البشريّة أو أيضا لحضارة (والعبارة ليست بالزائدة)، قادرة على كسب نواة تقنيّة مستقبليّة من تقاليدها الألفيّة، اهتماما متجدّدا.

يعرض الإنتاج السينمائي أرضا تضمّ خيرات عميقة الأغوار، بكلّ أنواع المعادن، **وبمواد أوّليّة** تجعل منها دون شكّ **دواء الأرض**. ويستحضر الخيال العلمي، والرقص، والموسيقى والرّواية طقوس بعث شبه مزلزل، عندما يشرع جسم الملك، حتى في الصلصال أو مكفّن في التربة الحمراء المغرّة، رحلته نحو الأسلاف، محمولا بطيف أوزيريس، ويقوم بالتحاور مع الموتى. وتستحوذ الموضة والصّورة على

أزياء بجمال الشمس، في طوفان من الألوان وإعصار من الأشكال.

وفي كلّ مكان، هنالك أجسام بألوان لامعة، من أسود أزرق داكن إلى أسود شمسي، وأسود ناري، وأسود بنّي واصفر، وأسود من طين، وأسود نحاسي وفضّي، وأسود قمري، وأسود بركاني وأسود فوهة البركان، تقوم جميعها بالظهور، وهي ترنيمات حقيقيّة للتعدّد، والانتشار والنثر. ومن جهة أخرى، ما هو القول في مادّة هي في تناغم مع عالم الأحلام والآلات، هي بدورها منحوتة في صورة عالم الحيوانات، والطيور، والعالم النباتي والحيواني البيئة المائيّة القديمة؟ ومع ذلك، كيف لا يمكن الإشارة إلى المرأة؟ إذ أليست، في النهاية، بما أنّ الأمر يتعلّق بالمدّة وبنهضة العالم، اللغز والسرّ في نفس الوقت؟

وهنا تظافر دائما كلّ شيء بصيغة الجمع. قد تتكوّن الحياة ذاتها في التعرّف على وضع مجموعة من العناصر المركّبة، والمتباينة والمتنافرة إلى حدّ ما، ثمّ إلى إقامة معادلات فيما بينها، وإلى تحويل الواحدة منها بأخرى. وتجدر إضافة الحركة و**التنقلات** إلى هذا الشرك الاجتماعي. فقد وقع، في الحقيقة، صياغة المجالات الجامدة ظاهريّا عند السطح وفي الأغوار بحركة مكثّفة[34]. وليس هنالك مدّة

---

(34) Peter Mitchell, *African Connections: Archaeological Perspectives on Africa and the Wider World*, AltaMira, Walnut Creek, 2005; Sonja

لا يمكن أن تكون مقطعا متحرّكا. فهنالك إذن مستقبل إفريقي للكون. ويجب أن يتولّى النقد هذه الكونيّة باعتبارها مهمّتها الخاصة.

وفي النهاية، إنّ أيّ مشروع لإصلاح الأرض يستوجب الأخذ بعين الاعتبار ما نطلق عليه، في هذا التأليف، اسم **المستقبل- الاصطناعي للبشرية.** وفي الحقيقة، ينفتح القرن الحادي والعشرون على عودة مذهلة للروحانيّة[35]. لا يتعلّق الأمر بروحانيّة القرن التاسع عشر، ولكن بروحانيّة جديدة لا يُعبّر عنها على نمط عبادة الأسلاف، ولكن عبادة الذات ونسخنا المتعدّدة التي تمثلها الأشياء. وأكثر من أيّ وقت مضى، تمثل هذه الأخيرة الإشارة الممتازة للوضعيات الفاقدة للوعي لحياتنا النفسيّة.

يقع بواسطتها اختبار، أكثر فأكثر، تجارب قوّة العاطفة المكثفة، وتصبو عن طريقها من الآن فصاعدا إلى التعبير عمّا لا يمكن أن يكون ذات رمز. فلم تعد توجد من ناحية إنسانيّة

Magnavita, «Initial encounters: Seeking traces of ancient trade connections between West Africa and the wider world », *Afriques. Débats, méthodes et terrains d'histoire*, nº 4, 2013;

انظر أيضا ملفّ هذه المجلّة (عدد 6، 2015) المخصص لشبكة التبادل والاتصالات الرقمية بين إفريقيا والمحيط الهندي.

(35) في شأن تحوّلات المفهوم وإمكانياته الاستدلاليّة في الحاضر، انظر:
Nurid Bird-David, «Animism revisited», Current *Anthropology*, no 40, 1999, p. 67-91; Karl Sierek, «Image-animism: On the history of the theory of a moving term», *Images-Revues*, hors-série nº 4, 2013.

ومن جهة أخرى نظام مواضيع بالنسبة إلى ما تتموقع فيها الكائنات البشريّة كما لو كانت عبئا. ومن الآن فصاعدا تخترقنا مواضيع من ناحية إلى أخرى، فاعلة فينا مثلما نمتهنها. فهنالك موضوع مستقبلي للبشريّة، رديف المستقبل البشري للمواضيع. فنحن المعدن، تكون المواضيع مكلفة باستخراجه. وتتصرّف هذه الأخيرة معنا، وتجعلنا نتصرّف وتحرّكنا بالخصوص.

إنّ إعادة اكتشاف هذه السلطة للإنعاش وهذه المهمّة الاصطناعيّة، تجعلها التقنيات الرّقميّة بالخصوص ممكنة. وللوهلة الأولى، تمتزج الرّوحانيّة مع المنطق الإلكتروني والخوارزمي، الذي يكون بالنسبة إليها الوسيط والغلاف، بل والمحرّك. وعلى المستوى السياسي، فإنّ هذه الرّوحانيّة هي عقدة التناقضات. وتوجد في نواتها العميقة جدّا فرضيات الانعتاق. وربّما تعلن عن نهاية الانقسامات. ولكنها تمكّن أيضا من أن تكون ناقلا مفضلا للحيويّة الجديدة التي تغذّي الليبراليّة الجديدة. وإذن، فإنّ نقد الفكر الروحاني الجديد ضروريّ. وقد يكون عندئذ هدف هذا النقد المساهمة في **حماية الكائن الحيّ ضدّ قوى التّفكك**. وهنا، تكمن بالفعل قوّة دلالة الموضوع الإفريقي في العالم المعاصر.

وهذا النقد، المُقام انطلاقا من أدوات ما قبل الاستعمار، هو أيضا نقد لمادّة ومبدأ ميكانيكي لائق. ويعارض الموضوع الإفريقي، في مواجهة هذا المبدأ الميكانيكي، مبدأ عمليّة التنفّس، الخاصة بكلّ شكل من

الحياة. وعلاوة على ذلك، كانت المواضيع الإفريقيّة دوما تظاهرة لما يمكن أن يكون أبعد من المادّة. فهي، المصنوعة من مادّة، تمثّل في الحقيقة دعوة صاخبة لتجاوزها وتغيير مظهرها. ففي المنظومات الفكريّة الإفريقيّة، يكون الموضوع خطابا عمّا هو أبعد من الموضوع. فهو يعمل، مع قوى أخرى متحرّكة، في إطار اقتصاد متجدّد وتكافلي. قد يستفيد النقد، دون تنازل حضارة في طور التخلّي عن المادّة التي نسبح فيها، ممّا يستوحيه من هذا التاريخ وهذه الإيبستيمولوجيا[36]. إنّهما يعلماننا بأنّ الحياة في حدّ ذاتها غير كافية. فهي ليست بالشيء الذي لا ينضب. أمّا الحيويّة الجديدة، من ناحيتها، فهي تؤكّد على أنّها ستعيش أمام جميع أنواع المواقف القصوى، بل الكارثيّة. وحسب هذا المنطق، يمكن إذن أن ندمّر بقدر ما نريد[37].

لا تعرف الحيويّة الجديدة العيش أبدا مع الخسارة. فكلّما واصلت الإنسانيّة سباقها المحموم نحو أقصى الأمور، سيكون انتزاع الملكيّة والحرمان نصيب الجميع. والمحتمل، أكثر فأكثر، هو أنّ ما أُخذ منّا سيكون بلا ثمن ولا يمكن أبدا إعادته إلينا. وربما ستكون عمليّة توقيع غياب كلّ إمكانية

---

(36) Luciana Parisi et Tiziana Terranova, «Heat-death: Emergence and control in genetic engineering and artificial life», *CTheory*, 10 mai 2000.

(37) انظر:

Ian Klinke, «Vitalist temptations: Life, Earth and the nature of war», *Political Geography*, nº 72, 2019, p. 1-9.

للاسترجاع أو الترميم نهاية متحف، لا باعتباره فحسب امتداد لغرفة العجائب، بل كرمز بامتياز لماضي البشريّة، ماض قد يكون مثل التلّة الشاهد. قد لا يبقى سوى المضاد للمتحف، وليس المتحف دون أشياء أو المقرّ الطريد لأشياء دون متحف، ولكنه نوع من المخزن للمستقبل، قد تكون مهمّته استقبال ما سيولد، ولكنه لم يكن بعد موجودا هنا.

إنّ توقّع وجود محتمل، ولكنه أيضا ليس معروفا، والذي ما زال لم يكتس شكلا مستقرّا، ربّما يكون نقطة انطلاق لأيّ نقد قادم يكون أفقه تهيئة لتربة مشتركة. قد يكون الأمر الانطلاق لا من الغياب، وليس ممّا هو شاغر ولكنه من **حضور مسبق**. وإذن، دون هذه التربة المشتركة ودون التخلّص من الحدود، لا يمكن مستقبلا إصلاح الأرض ولا يمكن للكائن الحيّ أن يعود للتنقّل.

1

الهيمنة العالميّة

اندفع الجنس البشري، خلال الأربعة قرون الأخيرة، في سباق عظيم، مذهل وغير قابل للمقاومة في الآن نفسه، نستطيع الآن قياس ميزاته الكونيّة تقريبا. ولكن في أيّ اتجاه؟ يجب انتظار النهاية للإجابة بيقين على السؤال. لقد استوجب هذا السّباق صناعة كميّة لا تحصى من الأدوات والآلات، واستهواء القوّة المتأصّلة في المادّة عموما وتغييرها إلى طاقة وحركة. وعند التقاء الجسم والحركة، والمادة والطاقة، ظهر مثلا الاحتراق، ومعادن المسبك أيضا، وكذلك عالم المحرّكات، والقطع المزمجرة، والأعضاء الاصطناعيّة والآلات المتحرّكة، والتي يجب أن نضيف إليها النشاط الخيالي، وبإيجاز ما أسماه أندري لوروا-غورهان "سلاسل المآثر"[1].

(1) André Leroi-Gourhan, Le Geste et la Parole, II: La mémoire et les rythmes, Albin Michel, Paris, 1965, p. 60.

انطلاقا من هذا، كان الجنس البشري قد قام بتغييرات حاسمة لا يمكن الشكّ من جهة أخرى على أنّها انتهت. وربّما ما زالت لم تتجسّم الخرافة الديكارتيّة للإنسان المائي المتكوّن من عظام، وأعصاب، وشرايين، وأوتار وعروق شبيهة بأنابيب الآلات[2]. ولكن ليس من الغريب التمكّن من الآلة ذاتها إن لم يكن بوعي، فعلى الأقلّ بنظام عصبي. فأمام الإنسان- العضلة سيركب عليه الإنسان- العقل، والإنسان- في- الآلة، والآلة- في- الإنسان، وهو الحزمة البركانيّة عند نقطة الالتقاء بين الخلق العضوي والخلق الاصطناعي[3].

كان الهدف من هذا السياق احتلال العالم، وانتشار القوّة، واندفاعها وتأجّجها لأهداف السيطرة الكونيّة. ويجب أن لا نفهم فقط "بالقوّة" و"القدرة" الانفجار المتدفّق من الأجسام والعضلات، والنار، والآلة، والكهرباء، وآلات التصفيح، والغازات أو أيضا ما يمكن أن نطلق عليها اسم المواد الجديدة أو حتى نزع من "العاصفة الفولاذيّة"، التي

---

(2) انظر طبعة Adam et Tanery des Œuvres de Descartes, et en particulier la cinquième partie du *Discours de la méthode*. Lire aussi Jean-Pierre Cavaillé, *Descartes. La fable du monde*, Vrin, Paris, 1991; et Dennis Des Chenes, Spirits and Clocks: *Machine and Organisms in Descartes*, Cornell University Press, Ithaca, 2001.

(3) Bernadette Bensaude-Vincent et William R. Newman (dir.), *The Artificial and the Natural: An Evolving Polarity*, MIT Press, Cambridge, 2007.

قد تكون بمثابة الخلاصة النهائيّة لقنبلتها[4]. ويجب أن نفهم من "القوّة" **في النهاية**، هو **الاستيلاء على ما هو غير مناسب.** أوليس هذا، في نهاية المطاف، الموضوع نفسه للتكنولوجيا الحديثة، وشمسها الوهّاجة؟ وفي النهاية، أوليس تحديدا السبب الذي جعل منه تقليدا عنيدا من الميتافيزيقا الغربيّة **الآخر من الإنسان**، وهذا في نظره لا يمثّل أيّ حدّ[5]؟

وفي الحقيقة، إنّه لذو دلالة أن تكون "القوّة"، في مواجهة هذا التقليد لا "بالضعف" فحسب، بل باللغة، هذه الهبة التي من المفترض أن تجعل من كلّ كائن بشري موضوع الكلمة. ولفترة طويلة، أرادت الكلمة أن تصدّق بأنّ اللغة تمثّل خاصيّة الجنس البشري، وهي إحدى تلك المميّزات الخاصة التي لا تمنحه وحدته فحسب، بل وأيضا عبقريّته. وتتضح هذه العبقريّة في ممارسة العقل، ولكن أيضا في

---

(4) Ernst Junger, *Orages d'acier*, Christian Bourgois, Paris, 1970; *Feu et sang*, Christian Bourgois, Paris, 1998.

(5) نستعمل هنا فمهوم "التكنولوجيا" في محتواها الانيق جدّا. كان في الإمكان الاكتفاء بعبارات أخرى مثل "الإشارة التقنيّة"، بل "التقني" مثلما نقول "السياسي" أو "الديني". انظر في هذا الشأن: André Leroi-Gourhan, *èvolution et techniques, I: L'homme et la matière, et II: Milieu et techniques*, Albin Michel, Paris, 1945. لا يخلو من أن نعرف بأنّه، لو أنّ جزءا من التكنولوجيا محلّ مراهنة فعلية في قوّة المادّة ذاتها، لا توجد تكنولوجيا إلا في طرق مختلفة لنشر تلك القوّة المذكورة، أي الطريقة التي وضعت فيها في حركة من قبل جهات فاعلة موجودة عبر الزمن والفضاء الاجتماعي المختلف.

نتيجتها الأوّلية، وهي القدرة على التخلّي الحرّ. وبالفعل، وبالرغم من عدم وجود أيّ قيد لما يمكن القيام به، كان الكائن البشري، لوحده، القادر على التقيّد الذاتي. وكانت التكنولوجيا **الآخر من الإنسان**، إذ باستسلامها لذاتها، كانت عاجزة عن تقييد نفسها. وبفضل اللغة وباللغة، توصّلت البشريّة، حسب ما اعتقدنا، بأن ترتفع إلى أعلى سلّم للكائن الحيّ. وامتزجت الحياة ذاتها بالقدرة على طرح أعمال بارزة، وكان القول من أوّلها.

وأكثر من ذلك أيضا، تمكّنت، بفضل اللغة، من أن تتجنّد في هذا النشاط الفريد للكائن البشري الذي كان متمثّلا في النشاط الرّمزي، أي الأسلوب لتنفيذ الرّموز بتلك الطريقة حتى تنتج معنى. وبالتمكّن من معرفة الرّموز، وفّرت الإنسانيّة لنفسها الوسائل للتعبير عن ذاتها وعن الواقع، وأن تحتلّ المجال والزمان، وأن تساهم، بالخصوص، في كشف النقاب وفي ظهور الحقيقة. وإذن، فإنّه عن طريق اللغة، تمكّنت البشريّة من أن تستقرّ بحزم في الكون والحصول على حقّ الإقامة فيه. وعند حدوث هذا، أصبحت اللغة مسكنه، وملجأه الأساسي أو بذكر ذلك بطريقة أخرى، مفتاح دخوله للكائن وللمعنى والحقيقة. ولكن لم تكن اللغة كلّ شيء.

وتنضاف إلى هذه القوّة الرّمزيّة قوّة أخرى، وهي القدرة على صنع جميع أشكال الأدوات والآلات، وكأنّه من واجب المآثر الرمزيّة الإجابة بأيّ ثمن على المآثر التقنيّة. وأقامت، بصفة مبكّرة، نوعيّة من الميتافيزيقا الغربيّة فرقا بين هذين

المأثرين، وكأنّهما يحيلان على إمبراطوريتين مختلفتين، حتى وإن حافظ هذان الأخيران على علاقات معقّدة فيما بينهما[6]. ومن هنا القسمة بين، من جهة، نظام الرّموز، والمعنى، والمقاصد والقيمة (اللغة، والثقافة، والكلمة والحضارة)، ومن ناحية أخرى، مملكة الفعل للحكم الخرافي في الأدوات والآثار، والوسائل، والآلات والأعضاء (التقنيّة). لقد أقنعت نفسها بأنّ الواحدة منها كانت في خدمة الأخرى. ولم يقع، في نظره، تبرير السلطة التقنيّة إلّا بقدر ما كانت منظّمة لإنجاز مصير البشريّة، بمعنى رفع النّقاب وظهور الحقيقة. أمّا بالنسبة إليه، فقد كان نظام الرموز المكان المتميّز لرفع هذا النقاب. وإن اعتبرنا أنّه جائز في كلّ مكان وللجميع، فتظهر هذه القسمة العظيمة من الآن فصاعدا منقضية.

ولكن ماذا عن أحد الركائز المركزيّة، الفكرة القائلة بأنّ البشريّة ليست ممنوحة وأنّها مدعوّة باستمرار إلى تحيين نفسها؟ إذ تكون تلك العقيدة الأخرى التي يظهر أنّ اعتمادها هو أيضا في نفاذ. وحسب التصوّر الأقنومي المتوارث عن المثاليّة الإغريقيّة، قد تكون ممارسة الحقيقة هي المصير الحقيقي للجنس البشري. وقد يتمثّل التاريخ البشرية ذاتها في توسيع مجال الحقيقة وتظاهرها. وقد يكون ذلك هو معنى إقامتها في العالم. وهذا ما قد يجعل منها آخر جنس. إنها حدود نهائية لتطوّر فيزيائي حيوي، قد لا يوجد فيها شيء

---

(6) Lewis Mumford, *Technique et civilisation*, Seuil, Paris, 1950 [1934].

آخر من نوعه من ورائها. وبفضل اللغة وقع أساسا تنظيمها لإنتاج الرّموز وتوزيع المعنى. وهذا هو تحديدا ما قد يميّزها عن باقي الكائنات وكذلك بقيّة الكائنات المتحرّكة والجامدة. وقد تكون فيها إرادة قوّتها مبرّرة، ومعها، مشروعها للسيطرة على الكون. وقد تكون بمفردها القادرة على أن تكون موضوعيّة، أي أن تكون في نفس الوقت في ذاتها وخارج ذاتها[7]. فهي الوحيدة التي قد تولّد الحياة. ذلك ما كانت عليه الأسطورة وكانت مبهرة.

وأكثر من أيّ شيء آخر، حافظ الفكر الغربي على الجدل بطريقة قسريّة. وبالاعتقاد فيه، قد يوجد إذن "جوهر الإنسان". وقد يكون تزامن هذا الجوهر مع النهاية الأخيرة لإقامتنا في الكون، إذ من تزامن الإنسان مع جوهره قد يرتبط الظهور النهائي للحكم الرمزي، حكم الحقيقة. وبالامتناع عن التزامن مع "جوهره" - وإذن القيام إلى ما لا نهاية بتجربة الانفصال - قد ترتسم قمّة تراجيديا الإنسان. وبذلك قد يقع إزعاج إصرار الهيمنة العالميّة التي قد يتمّ من خلالها دعوة الحريّة للظهور والحقيقة للكشف عن نقابها. وأن يظلّ سيّد الكون، ومواصلة الإقامة فيه، قد لا يكون لها معنى آخر، وقد لا تكون التقنيّة سوى وسيلة لهذه الرّغبة في الإنجاز والكمال.

---

(7) Gilbert Hottois, *Le Signe et la Technique. La philosophie à l'épreuve de la technique*, Vrin, Paris, 2018 [1984].

إن أنتجت البشريّة آلات، فلم يكن ذلك إذن لتحسين ظروفها المادّية فحسب، أو لإشباع حاجياتها الحيويّة. فلم يكن الأمر لفقدان السيطرة عليها مباشرة أو، في انعكاس غير مسبوق، لكي يجد نفسه تحت هيمنة صناعاته الشخصيّة. ومن وجهة نظر إقامة البشريّة في العالم، كان للتكنولوجيا وظيفة بارزة للآخرة. وبالقضاء على جميع العوائق التي تحول بينها وبين جوهرها، ستعود البشريّة لذاتها. وبعبارات أخرى، من واجبها المساهمة في التظاهرة الحاسمة والمضيئة للحقيقة. وكان الاعتقاد فعلا بأنّه قد تحدث نهاية التاريخ. وقد تشير هذه النهاية إلى تجاوز الاستلاب، وتحقيق الإنسانيّة. وربّما يفتح "إلغاء الاستلاب" طريق "عودة الإنسان إلى الذات". فلا يتمثّل المستقبل في شيء آخر سوى "حركة العودة إلى الأصل" العظيمة، تمهيدا "للتصالح الكوني" الذي قد يضمّ تصالح الكائن البشري مع الطبيعة[8]. وقد تتلاشى هذه المهمّة من الإيمان بالآخرة للتقنية.

وخلافا لما تمّ ادّعاءه أحيانا، لم يصل بالضرورة هذا التحرّر دون عائق ولا قيد لقوّة إنتاج غير محدودة تقريبا إلى القضاء على أسطورة العالم. ومن ناحية أخرى، ومهما قيل، ليس من الأكيد أن يكون الجنس البشري منفصلا كليّا عن أيّ صلة مع ما تبقى من الكائن الحيّ. لقد تسلّح الكائن البشري فعلا بمعدّات خارجيّة، ولكن، وإن كان ذلك هدفه، فإنّه لم

(8) Kostas Axelos, *Marx, penseur de la technique*, UGE, Paris, 1974 [1961], t. I, p. 8, puis t. II, p. 82-85.

يقدر على "عدم تحريك" العالم كما هو كليّا. وقد يكون استطاع ضمّ وهضم بعض الألغاز. ولكنّنا نكون بعيدين عن المسألة. وأعادت التكنولوجيا، بشكل متناقض، وربّما بطريقة غير متوقّعة، تسجيل البشريّة في حركة ذات مسار كوني. فقد استعجلت ليس بالكثير ظهور عالم معقّم وعاجز على استقبال مختلف الأشكال للكائن الحيّ، ولكن لعالم لا يمكن أن يوجد فيه من الخارج ما لا يمكن احتسابه، وبالتّالي يكون مناسبا.

إنّ هذا المشروع **لعالم دون خارج غير مناسب**، ستكون الرأسماليّة أحد محرّكاته. ولم يتعلّق الأمر، إن صحّ القول، بعمليّة فصل الكائن البشري عن الأشكال الأخرى للكائن الحيّ، مثلما وقع تكراره عديد المرّات أحيانا. ففي نواتها، يجب أن تتوقّف مقاربة الطبيعة ككلّ متحرّك ومستقلّ. وفي الواقع، يمنح الإنسان لنفسه مهمّة إخضاعها وتحديدها بآثاره وبصماته. ولكن، أكثر من ذلك، بما أنّ الكائن موضوع هكذا في مركز الكون والعالم، فمن واجبهما أن يكونا من الآن فصاعدا نتيجة مسار **إنتاج محتسب**. فيجب أن تكون البنية الأساسيّة للمادّة في نهاية الامر مخترقة ومنكشفة، باعتبار أنّ القسمة بين الكائن البشري وغير البشري الملغى والهشاشة الجذريّة للكائن البشري المكتملة بقوى ما هو غير بشري. فيجب، من هذه الأعمال، أن تكون الرأسماليّة والعلوم التقنيّة هي التي تخلق العالم.

وعند انفتاح القرن الحادي والعشرين، كانت الطريق

نحو هذا العالم المتكون من الطبيعة المصنوعة والكائن الممكن صناعته مهيأة على نطاق واسع. وفي نهاية الأمر، تمكّنت التكنولوجيا من أن تنتصب كمصير أنطولوجي لمجموع الكائن الحيّ[9]. ولم تعد المسألة في معرفة إن أمكن لغير المنطق أن يسير بالتوازي مع عبادة التكنولوجيا[10]. فلم يعد الأمر أبدا القيام بمناصرتها أو معارضتها. وإن "تغتصب" "تقنيّة أكل لحوم البشر" الطبيعة، وتهينها وتجرّدها، وإن "تلتهم البشر وكلّ ما هو بشري"، وإن تستعمل أجسامهم كوقود ودماءهم "كسائل للتبريد" أو "تغتال الحياة" (أرنست نيكيستش)، فإنّنا نعرف ذلك، ولكن ليس هذا كلّ شيء.

إنّ التكنولوجيا، بالنسبة إلى العديد من المعاصرين، هي، من الآن فصاعدا في نفس الوقت، حقيقة ماديّة وغير ماديّة، ونفسيّة، وشخصيّة وداخليّة. وهي ليست فقط ملكا للعالم الخارجي، الغشاء الذي رسم حدودا بين ما هو داخلي

---

(9) حول الأبعاد الجيولوجيّة للتكنولوجيا، انظر: Peter K. Haff, «Technology as a geological phenomenon: Implications for human well-being», in Jan Zalasiewicz *et al.*, *A Stratigraphical Basis for the Anthropocene*, Geological Society, Londres, 2014, p. 301-309. وانظر أيضا Bronislaw Szerszynski, «Viewing the technosphere in an interplanetary light», The *Anthropocene Review*, 19 octobre 2016,.

(10) Jeffrey Herf, *Le Modernisme réactionnaire. Haine de la raison et culte de la technologie aux sources du nazisme*, L'èchappée, Paris, 2018 [1984].

(الإنسانيّة) وما هو خارجي (الطبيعة). فهي عيادتنا، والمكان الذي تتظاهر فيه، في أحلك وضوحها، الحقائق التأسيسيّة الثلاث للعالم الحيّ، بمعنى الحقيقة البيولوجيّة، والعضويّة، والنباتيّة والمعدنيّة لأجسام من كلّ نوع، والحقيقة النفسيّة للعواطف، والحقيقة الاجتماعيّة للمبادلات، واللغة والتفاعلات[11]. وعن طريقها يتحقّق في أيّامنا نشاط الفكر وعمل الرسم، والتعبير بالرّموز، وحفظ الذّاكرة، ويوضع فيها أيضا احتياطيّ الحلم. فكيف يكون القول عمّا هو تجارب هلوسة خاصة بالعصر، وفيما يخصّ البشر خاصة من نشاط تشكيلي، ومن كتلة اسقاطات مشحونة شكّا أو مادّة نفسيّة مسبقة التشكّل التي نستهلكها بكثير من الشغف[12]؟

إذا قمنا بتعداد الزّمن، فلا أحد يشكّ في ذلك. لم تنته حتى الآن المغامرة البشريّة على الأرض بعد، ولا تحوّلات الجنس البشري أيضا. غير أنّ الآفاق التي ترسمها تنطلق من نقطة يكون فيها العمل لصناعة عالم دون خارج غير محتسب وغير مناسب هو الكلّ من الآن فصاعدا. فلا يوجد تقريبا انفصال بين الكائن البشري والمادّة، والكائن البشري والآلة، أو أيضا، الكائن البشري والموضوع التقني، والشيء. ومن

---

(11) Tristan Dagron, *Pensée et cliniques de l'identité*, Vrin, Paris, 2019, p. 41.

(12) William Davies, *The Happiness Industry: How the Government and Big Business Sold Us Well-Being*, Verso, New York, 2016; Eva Illouz et Edgar Cabanas, *Happycratie. Comment l'industrie du bonheur a pris le contrôle de nos vies*, Première Parallèle, Paris, 2018.

الآن فصاعدا، لم يعد الكائن البشري مزدوجا مع الآلة، والمادّة والموضوع. ولم يعد فقط مستقرّا في طياتها وثناياها. فقد وجد حرفيّا في هذه الأخيرة الأماكن المتميّزة لتجسيدها، وفي المقابل، تكاد هذه الأخيرة أن تتحلى لا بوجهها، بل على الأقلّ بقناعها. فلم يعد يوجد، من جهة، التكنولوجيا، ومن الأخرى، ما تطلق عليه الفلسفة اسم "حقيقة الكائن"[13]. فالاثنان لا يكوّنان سوى نفس الحزمة الواحدة، ونفس المستقرّ الواحد. تلك هي على الأقلّ العقيدة الجديدة.

انتهى إذن عصر الاستلاب، مثله مثل عصر العلمنة، إن صحّ القول. فلم تعد التكنولوجيا مجرّد وسيلة، وأداة أو حتى غاية، بل جعلت من نفسها قولا وفعلا. فهو الصّورة الظاهريّة للكائن الحيّ، الاقتصادي، والبيولوجي، والإيمان بالآخرة في نفس الوقت من الآن فصاعدا[14]. وهو ليس مصنوعا من ديانة في اتجاه زواج غير مرتقب بين عالم الألغاز، عالم غير

---

(13) Martin Heidegger, *Pensées directrices. Sur la genèse de la métaphysique, de la science et de la technique modernes*, Seuil, Paris, 2019, p. 318.

(14) Michael S. Burdett, *Eschatology and the Technological Future*, Routledge, Londres, 2017. Pour deux études de cas, voir Cecilia Calheiros, «La fabrique d'une prophétie eschatologique par la cybernétique: le cas du projet WebBot», *Raisons politiques*, vol. 4, nº 48, 2012, p. 51-63; et Abou Farman, «Cryonic suspension as eschatological technology in the Secular Age», in Antonius C. G. M. Robben (dir.), *A Companion to the Anthropology of Death*, Wiley Blackwell, 2018.

ملموس وعالم المنطق[15]. ويكفي أن نلاحظ كيف تتناسل، في الولايات المتّحدة مثلا، إمكانيّة تكنولوجيّة سامية سواء في روايات العلم- الخيالي أو في نبوءات ما بعد الإنسانيّة. ومن الآن فصاعدا، قليل جدّا من هم يشكّون في أصول **العصر الجديد** للمجتمع الرّقمي وللأشكال الجديدة لروحانيّة نموذجيّة لعلم أعصاب إعلامي جديد[16]. فقد اجتمعت ظروف إعادة سحر العالم في الخطابات حول نانو التقنيات، والتقنيات البيولوجيّة وتقنيات الإعلام أو العلوم الإدراكيّة[17]. فليس هنالك إلى حدود الأنظمة الهندسيّة المعاصرة والتكنوشامانيّة حيث لا تكون الحدود بين الدّيانة والأسطورة مشوّشة[18].

وما إن وقع إنجاز هذا التحوّل، حتى برز إذن نوع آخر من الاختبار الوجودي. فلا يُمتحن الكائن مستقبلا إلا كتجمّع بشري غير منفصم وغير بشري[19]. ويبصم تحوّل القوّة في

---

(15) Pierre Musso, *La Religion industrielle. Monastère, manufacture, usine. Une généalogie de l'entreprise*, Fayard, Paris, 2017.

(16) Baptiste Rappin, «"Esprit californien, es-tu là?" Les racines New *Age* de la société digitale», *ètudes digitales*, nº 5, 16 avril 2019, p. 56-65.

(17) Stéphanie Chifflet, «La techno-religion du NBIC», *ètudes digitales*, nº 5, 16 avril 2019, p. 47-55.

(18) Carlos Eduardo Souza Aguiar, «Technochamanisme et les mutations de l'imaginaire mystique contemporain», *ètudes digitales*, nº 5, 16 avril 2019, p. 87-95.

(19) Yuk Hui, *On the Existence of Digital Objects*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2016.

آخر كلمة لحقيقة الكائن الحيّ على الدّخول في آخر عصر للإنسان، وهو العصر التاريخي، عصر أن يكون الكائن قابلا للتصنيع في عالم مصنوع. ووجدنا لهذا العصر اسما، وهو الوحشيّة، العبء الحديدي العظيم لعصرنا، ثقل المواد الخام[20].

قد نميل إلى التفكير بأنّ الوحشيّة هي لحظة سكر عابر. قد تلجأ السلطة، المتحرّرة من كلّ شيء، إلى المجازر والدّماء وقتيّا[21]. وقد تتسبّب في الموت وفي نفس الوقت تخضع من حين إلى آخر إلى غضب وحنق أهدافها، في شكل أعمال شغب أو انتفاضات دون مستقبل[22]. وقد تخلد إلى حروب مكلفة، يصير خلالها العنف الشديد موضوعا تافها. ويجب عندئذ أن نفهم من "الوحشيّة" "الفظاظة"، اكتناز عنف الحرب الذي قد يسمح بقبول جميع أبعادها، بما فيها

(20) Reyner Banham, *Le Brutalisme en architecture. èthique ou esthétique?*, Dunod, Paris, 1970 [1966]. Lire également Laurent Stalder, «"New Brutalism", "topology" and "image": Some remarks on the architectural debates in England around 1950 », *The Journal of Architecture*, vol. 13, nº 3, 2008, p. 263-281; et Francesco Tentori, «Pheonix Brutalism», *Zodiac*, no 18, 1968, p. 257-266.

(21) David T. Johnson, «Governing through killing: The war on drugs in the Philippines », *Asian Journal of Law and Sociology*, vol. 5, nº 2; 2018; David Garland, Peculiar Institution: *America's Death Penalty in an Age of Abolition*, Harvard University Press, Cambridge, 2010.

(22) . Franklin E. Zimring, *When Police Kill*, Harvard University Press, Cambridge, 2017.

الأكثر تسبّبا في نوبات مرضيّة شديدة[23].

ولكن لا تلخّص الوحشيّة أهوال الحرب وفظائع أخرى لوحدها. فهذه الأخيرة هي، إلى حدّ ما، الطريقة التي تترجم شناعة السكر الذي يحمل السلطة والوضعيات القصوى في الفترات الفاصلة لما هو يومي وبالخصوص أجسام وأعصاب منْ من الذكور والإناث يُعاملون بوحشيّة. إنّ عمليّة التصغير والجزيئيّة هي مصدر الحيويّة الاجتماعيّة. ففي مثل هذه الظروف ليس من الضروري أن تكون عمليّة التدمير، والقتل أو أن تُقتل رسما للعودة إلى الحالة الطبيعيّة. ولا تحدث عمليّة القتل بالبندقيّة، والمدفع، والمسدّس، أو السيف فقط. فلا يهمّ السلاح؛ فإنّ منْ وقع قتله، وبذلك، تعرّض إليه، ينهار، بإصدار صرخة مخنوقة دون سواها. ومن هذه الزاوية، تتمثّل الوحشيّة في إنتاج سلسلة من الأشياء التي تؤدّي، في لحظة معيّنة، إلى مجموعة من الأحداث المميتة.

والوحشيّة أيضا طريقة لإدارة القوّة. فترتكز هذه الأخيرة على إنتاج تسلسلات متعدّدة ومعقّدة، التي تؤدّي تقريبا بصفة حتميّة إلى جراح، وقضاء وقدر، وصرخة مختنقة، وانهيار لكائن بشري أو أكثر عموما لكائن حيّ. وربّما في هذا التجديد المتواصل وهذه الروتينيّة تتجدّد خاصياتها. وإضافة إلى عمليّة القتل، استوجب إضافة الغبطة والمتعة ولذّة القتل،

---

(23) George Mosse, *De la Grande Guerre au totalitarisme. La brutalisation des sociétés européennes*, Hachette, Paris, 1999.

والإعدام بقسوة وأحيانا بشكل جماعي[24]. أو ببساطة ببرودة متجمّدة[25].

وفي ظلّ الوحشيّة، يتوقّف القتل عن أن يكون استثناء. ويؤدّي تغيير حالة الحرب في صلب الحالة المدنيّة إلى تطبيع وضعيات منتهية. فتقوم الدّولة باقتراف جرائم الحقّ العام تجاه المدنيين، وتتحوّل طلعة القاتل، ورئيس العصابة أو القاتل المستأجر مع مرور الوقت كلما تحرّرت غرائز القسوة والخوف المكبوت للأحشاء. ويقع الصّراع جسما لجسم، ولكنّه يمكن أن يحدث عن بُعد أو في ارتفاع عال. وفي جميع الأحوال، تنفجر أجسام، أو أشلاء أجسام في الهواء. ولكن هنالك دوما صراخ، وقدرة على انتزاع الحياة وتقطيعها إلى ألف قطعة[26].

نعرف الوحشيّة عند انخفاض التقنيات الخاصة بساحة المعركة في الدائرة المدنيّة[27]. وعلى سبيل المثال، تطوّق

---

(24) Joanna Bourke, *An Intimate History of Killing: Face-to-Face Killing in Twentieth Century Warfare*, Granta, Londres, 1999.

(25) Henry De Man, *The Remaking of a Mind: A Soldier's Thoughts on War and Reconstruction*, Scribner, New York, 1919.

(26) انظر بالخصوص، Georges Gaudy, *Le Chemin-des-Dames en feu (décembre 1916-décembre 1917)*, Plon, Paris, 1923; Jean Norton Cru, *Témoins*, Les ètincelles, Paris, 1929; Blaise Cendrars, *Œuvres complètes*, t. IV, Paris, Denoël, 1962; et Antoine Redier, *Méditations dans la tranchée*, Payot, Paris, 1916.

(27) Oliver Davis, «Theorizing the advent of weaponized drones as techniques of domestic paramilitary policing», *Security Dialogue*, vol. 50, nº 4, 2016, p. 344-360. Oliver Davis, «Theorizing the ad-

الشرطة الجماهير وتستعمل قاذفات الرّصاص ضدّ المتظاهرين العزّل، وتلجأ إلى قاذفات الرّصاص المطاطي من 44 مم وقاذفات رصاص أخرى مزعومة دفاعيّة، وقنابل يدويّة بدعوى فكّ الارتباط، وقنابل يدويّة مؤثرة على التنفّس، ولا تتردّد في استعمال قنابل يدويّة متفجّرة من نوع ج.ل.أي- ف4، والحال أنّها محجّرة. وفي جميع الحالات، فالأمر يتعلق بأسلحة حربيّة[28]. ويندسّ بعض الحاملين للأسلحة في الجماهير، وهم يحملون أزياء مدنيّة. ويكون آخرون ملثّمين، ويحمل آخرون أيضا خوذات درّاجات ناريّة أو لوح تزلّج. وليس لديهم شارة ولا شعار. وعند مرورهم، يجرحون العديد من المتظاهرين. فهل يستهدفون الأعضاء السفلى، أو العليا أو الجذع؟ وعلى كلّ ينتهي بهم الأمر إلى إصابة المتظاهرين في الوجه مباشرة. فيتمّ تشويه البعض الآخر. وتكون أيدي آخرين مقيّدة[29].

يكون النّفور من القتل وحظر الجريمة موضوع تعريّة. فقد تحرّرت الغرائز التي كانت في الماضي محلّ مراقبة[30].

---

vent of weaponized drones as techniques of domestic paramilitary policing», *Security Dialogue*, vol. 50, nº 4, 2016, p. 344-360.

(28) William I. Robinson, «Accumulation crisis and global police state», *Critical Sociology*, vol. 45, nº 6, 2018, p. 848-858.

(29) Edward Lawson, Jr., «Police militarization and the use of lethal force», *Political Research Quarterly*, 2 juillet 2019; Caren Kaplan et Andrea Miller, «Drones as "atmospheric policing": From US border enforcement to the LAPD», *Public Culture*, vol. 31, nº 3, 2019, p. 419-445.

(30) Elke Schwarz, «Prescription drones: On the techno-biopolitical re-

وارتفع ثمن التّصرّفات في الحرب كما هو عليه وانتقل إلى الساحة المدنيّة. وأصبح التجرّد من الإنسانيّة ممارسة عاديّة، والتخلّص من النزوات العنيفة ممارسة شرعيّة، وكان موضوع تشجيع، وهيمن البحث عن المختلف وانتشرت تقنيات التبرئة. ووقع التحكّم في الحياة المدنيّة بوحدات خاصّة. وتحوّل "التمشيط" إلى برنامج. فالتخلّص من أشخاص دون أن يطالب بذلك أحد، أصبح نموذجا بنفس الشكل المتمثّل في الإجهاز على الجرحى وقتل المساجين[31]. ولكن تتصرّف الوحشيّة أيضا على قاعدة تبدّد وقائعها وكذلك تأثيرها. وتتمثّل عمليّة التبدّد في إخفاء بشاعة العنف، وخاصة الموت الجماعي، حتى الموت الجزيئي[32].

ثمّ هنالك أسطورة الرّجل الفحل، الشخصيّة المسيحيّة، رمز الدّيانة المدنيّة الجديدة؛ هذه الأخيرة التي، لا تشتغل إلّا بفضل الإصابة، وأيضا بموت الجماهير، تحجب باستمرار وعلى الدّوام هذا الأخير[33]. وذلك

gime of contemporary "ethical killing"», *Security Dialogue*, vol. 47, nº 1, 2015, p. 59-75.

(31) حول تقييم هذه التصرّف في حالة حرب، انظر:
Antoine Prost, «Les limites de la brutalisation. Tuer sur le front occidental, 1914-1918», *Vingtième Siècle*, nº 81, 2004, p. 5-20.

(32) Daniel Pécaud, «De la banalité de la violence à la terreur: le cas colombien», *Cultures & Conflits*, nº 24-25, 1997, p. 159-193.

(33) George Mosse, *L'Image de l'homme. L'invention de la virilité moderne*, èditions Abbeville, Paris, 1997.
ومن جهة أخرى انظر لنفس المؤلف
The Nationalization of the Masses: Political Symbolism and Mass

دون احتساب البعد الجنسي[34].

وبالنظر إليها من هذه الزّاوية، لا يقع تحديد الوحشيّة عند حدّ السياسي. فهي ليست على الأكثر حدثا مقتصرا على ظروف اللحظة. فهي في الآن نفسه سياسيّة وأخلاقيّة. إنّ السياسة هي التي توضع في حراك قوّة التجديد الاجتماعي التي يكون هدفها الإبادة أو عجز الطبقات المتميّزة من السكان، والتي، في عصر الأنثروبوسين، تُنجز هذه الإبادة أو هذا العجز تحت نمط إدارة النفايات من جميع الأنواع[35]. فالوحشيّة، من وجهة النظر هذه، هي طريقة لتجنيس الحرب الاجتماعيّة. فيقع تقديم الحرب بصفة عامّة لا فحسب كتعبير عن الحياة ذاتها، بل وأيضا كأعظم تظاهرة للوجود البشري. فحقيقة الحياة، حسب رأينا، هي البحث من ناحية قوّتها الهدّامة[36]. وعمليّة الهدم هي كشف عن حقيقتها القصوى، وأهمّ مصدر لها للطاقة. وهي في نفس الوقت لا تنتهي ولا يمكن إيقافها.

Movements in Germany from the Napoleonic Wars through the Third Reich, Howard Fertig, New York, 1975.

(34) انظر:

Klaus Theweleit, *Fantasmâlgories*, L'Arche, Paris, 2016 [1989].

(35) انظر:

Vasiliki Touhouliotis, «Weak seed and a poisoned land: Slow violence and the toxic infrastructures of war in South Lebanon», *Environmental Humanities*, vol. 10, nº 1, 2018, p. 86-106. De manière générale, voir Michael Marder, «Being dumped», *Environmental Humanities*, vol. 11, no 1, 2019, p. 181-192.

(36) Walter Benjamin, «Théories du fascisme allemand», *Lignes*, nº 13, 1991, p. 57-81.

إنّه عصر فورة القوى والقذف، تزامنت فيه الوحشيّة مع أشكال مضاعفة من تدمير الكائن الحيّ والمساكن، ولكن أيضا إعادة إقحام البشريّة في صلب الطبيعة الأوّليّة. وهي من جهة أخرى تبصم على الدّخول إلى عصر النهب.

وإنّه لمهمّ أن يثير فريدريش جورج يونجار مفهوم الجوع، عند تعرّضه إلى النهب. فهو يرى بأنّ الآلة تخلق انطباعا بالجوع الحاد والمتزايد وغير المحتمل. قوّة لا تستسلم دون حساب، فتقع مؤازرتها بمشهد الجوع. وما يميّز، في نظره، الآلة ليس فقط قبحها وضخامتها، بل وأيضا نهمها الذي لا يشبع. فالجوع هو الذي يضعها في حركة، ويدفعها إلى التدمير، والافتراس والابتلاع دون راحة ولا استكانة. وفي النهاية، لا تستطيع الآلة أن تتخلص أبدا من الجوع، وبدرجة أقلّ التحرّر منه، ولا أن تصل إلى التخمة. وتلك هي أحد الأسباب التي تميّز التقنيّة عن طريق النهب الأعمى، المتضخّم باستمرار. ولكن من يقول أيضا نهبا يقول استخراجا. ويمكن أن يكون هذا استخراجا للفحم، والنفط والمعادن. ومهما كانت المادّة، يؤدّي النهب بالضرورة إلى الدّمار.

يضع هذا الأخير نفسه في استعراض على هذه المواقع، حيث يقع المرور، بعد استخراج المعدن، إلى الإنتاج. إنّها، مثلا، مثال موقع إنتاج البلوتونيوم في هانفورد، في ولاية واشنطن. فهنالك، حسب ما رواه يونجار، أين يقع تحويل معدن الأورانيوم إلى بلوتونيوم لا نستطيع "الدّخول إلّا

مزوّدين بأحذيّة وقفازات مطاطيّة، وأقنعة، وغرف الانتظار، وأشرطة حسّاسة أمام الإشعاعات، وعدّادات جيجار وعدّادات لإشعاع آلفا؛ ويجب أن يتمّ تهيئة الطريق بميكروفونات، ومضخّمات صوت وإشارات إنذار". ويلوّث النشاط الإشعاعي كلّ شيء، "ليس لليوم والغد، وإنّما لآلاف السنين. وحيثما توجد نفايات إشعاعات، تصبح الأرض غير مأهولة بالنسبة إلى الإنسان". ويضيف قائلا: "إنّ الهواء مدخّن، ومجاري المياه ملوّثة، والغابات، والحيوانات والنباتات قد أبيدت". ويقع الادعاء بأنّنا نحمي الطبيعة من الاستغلال لا بإعادتها إلى الحياة، ولكن "بتغليفها بمتحف من المحرّمات وإحاطتها بأقسام شاسعة بمناظر طبيعيّة من سياج أسلاك وأسوار"[37].

وعلى أيّ حال، فقد دقّت ساعة الوصل الكبرى. فظهرت من كلّ جانب كائنات تتلاءم مع تهجين أكثر فأكثر متفرّد ومفاجئ، دون تماسك بيولوجي واضح. فتتحدى حدود ما هو طبيعي. ويصبح كلّ شيء تقريبا ازدواجيّة، وتطعيما وتراكبا. وحسب كلّ مظهر، لا تهدف جلّ الانتفاضات إلى قلب واجتثاث جهاز الالتقاط حسب المقياس العالمي الذي أصبحت عليه الرأسماليّة، بل بالعكس، إنّها متحفّزة للتحرّر الشامل لتيّار الرغبة، خاصّة الرّغبة الجامحة للبيع قصد الشراء

(37) Friedrich Georg Jünger, *La Perfection de la technique*, Allia, Paris, 2018 [1946-1949], p. 47-48.

وللشراء قصد إعادة البيع. فنفضّل أن نكون ملتقطين بدلا من مقطوعي الطريق ومبعدين.

عند عصر فردانيّة الجماهير وتكنولوجيات النانو، ألم تستبدل "شيعيّة العواطف" مجموعة المصالح مؤدّيّة في الطريق إلى تأثيرات تمطط الأنا و"تراجع صبياني نحو المصدر"، وهي شيخوخة الأفكار[38]؟ وبعيدا عن صدّ عمل مجموع الآلات وآلات إخضاع أخرى، فلم يقم هذا التصغير وتشابك الطفولة والشيخوخة إلا بإبراز هيمنتهم. فإمكانيّة الهروب، قد لا تظهر أن تكون موجودة.

الابتزازات

تلك هي الحالة بالخصوص عندما تعلّق الأمر بصناعة حياة لا طائل منها في الرأسمالية المعاصرة. وفي الحقيقة، فإنّ المرجعيّة البروليتاريّة غير كافيّة أبدا. ولم يعد العمل - وبالتّالي الأجر - المحدّد مطلقا، ولا مسائل مداخيل وقدرة شرائيّة، ولا ظروف حياة أقسام شعبيّة عموما. وبعبارات أخرى، لم تعد هذه الأخيرة مهيكلة بالمركزيّة التي كانت سابقا الشغل الشاغل للطبقة الشعبيّة. ويكون هذا بالخصوص صحيحا من بين الأقسام المتأثرة بالعنصريّة لمجتمعات ما بعد

---

(38) Paul Virilio, *Vitesse*, Carnets Nord/Le Pommier, Paris, 2019, p. 49. Lire également Eva Illouz (dir.), *Les Marchandises émotionnelles*, Premier Parallèle, Paris, 2019.

الصناعة. ففي صلب هذه الفئات، اقتصرت خيارات الحراك أحيانا سواء على الإقامة الجبريّة في الغيتوات أو الاعتقال[39]. واليوم، تلعب المؤسسة السجنيّة، بنفس مستوى المؤسّسة الحدوديّة، دورا محرّكا في الإدارة الكونيّة للأجسام الخبيثة و"الزائدة".

ستكون الأهداف المبكّرة موضوع تماثل. فالقانون يكفي، وهذا الأخير، بيد خفيّة، يختصر الحياة اليافعة إلى وصمة عار، فهو مجرم، وغاصب، ومعتد، ومفترس. وهكذا يوصد باب ويتقرّر مصير. وفي صلب الأقسام المتأثرة بالعنصريّة للمجتمعات الصناعيّة، ترتكز القوانين الخاصّة بالقصّر على نظريّة بسيطة، وهي نظريّة الفقر الأخلاقي. وهكذا، يشرح جاكي فانغ بأنّه يكفي أن تكبر "محاطًا برشّد منحرفين، جناة، ومجرمين، في محيط مبتذل، وعنيف، دون إله، ودون أب، ودون شغل"، حتى تكون محلّ ريبة "بالفقر الأخلاقي" وأن تكون عرضة، في حالة جريمة، لعقوبة بالسجن المؤبّد، دون إمكانية السراح الشرطي[40].

يمكن أن يتمّ الانتقال من حالة إلى أخرى بسرعة فائقة

---

(39) William J. Wilson, *When Work Disappears*, Knopf, New York, 1996; Ruth W. Gilmore, *The Golden Gulag*, University of California Press, Berkeley, 2007.

(40) Jackie Wang, *Carceral Capitalism*, The MIT Press, Cambridge, 2019.

لأتفه الأسباب، مثل سرقة، عند العرض، لقنينة بيرة[41]. وانطلاقا من الحدث- المصغّر المشحون دلالة (التعدّي على الملكيّة الخاصة) يحتدم كلّ شيء: إيقاف، وحجز، ومثول أمام المحكمة، وإدانة بغرامة مشفوعة بفترة مراقبة، بما فيها حمل سوار يجب تسوّغه خوفا من خطر الذهاب إلى السجن. لم تكن هذه المادّة للزينة مجانيّة. فهي مكلفة مالا من الواجب أن لا تنضاف إليه مصاريف خدمة شهريّة فحسب، بل وأيضا مصاريف الاستعمال اليومي. وترتبط، من الآن فصاعدا، حول جسم القاصر والمتهم بجريمة، سلسلة سيادية قانون وعدالة بنية النهب والابتزاز النظامي. وتتقاسم الدّولة والسوق معا المساهمات. أفلا تُدفع الخطيّة إلى البلديّة، بينما تُدفع بقيّة المصاريف إلى مؤسسة خاصة؟

هكذا تشتغل الوحشيّة على نمط الابتزاز، واقتطاع الأجسام. فقد كانت الأجسام المعتبرة عنصريّة لأنّها ضمنيّا عنيفة (وعنيفة لأنّها معتبرة عنصريّة) محلّ اختطاف، والوقوع في الفخّ المتمثل في القانون. وفي الحقيقة، لم تكن مهمّة القانون إقرار العدل. فهي موجودة لتجريدهم حتى تجعل منهم فريسة سهلة[42]. ولا تشتغل الوحشيّة دون اقتصاد سياسي للأجسام. فهي شبيهة بالمحرقة العظيمة. وتمثّل الأجسام

---

(41) S.n., «Policing and profit», *Harvard Law Review*, vol. 128, nº 6, 2005.

(42) انظر حول "الفريسة" في وضعيات مماثلة. Elsa Dorlin, *Se défendre. Une philosophie de la violence*, Zones, Paris, 2017, p. 163-171.

المعتبرة عنصريّة والمشجوبة في الآن نفسه حطبها، وفحمها وموادها الأوّليّة. وتمتلك فضاءات الانزواء والحجر، على غرار الغيتوات، بهبة ثريّة من الموارد الجسميّة. وتكون هذه الأخيرة قابلة للقياس الكمّي، مُتاحة وسهلة المنال. يكفي معرفة كيفيّة التعامل معها. فتكون فعلا، الطاقة متدرجة، ولكن مصادرها وتدفّقها الجسمي مثل الطاقة الحرّة التي، بتعويلها على نفسها، قد تتبدّد في كلّ الأحوال. وعوض التخلي عنها لفائدة الأنتروبيا، فإنّ الحرارة التي تنتجها تكون ملتقطة، ومكبوحة ومتحوّلة إلى "عمل" بمختلف آليات الابتزاز. وبذلك، فإنّ الوحشيّة شكل من **القياس الحراري السّياسي**. فهي تُخضع الاجسام المُحطّمة، وطاقة وحياة بعض الأجناس إلى عمل النّار، وإلى الاحتراق البطيء.

وبالنظر من خلال الأجسام المعنيّة بالعنصريّة، فإنّ ما نطلق عليه اسم الليبراليّة الجديدة، هي، في الحقيقة، جهاز ضخّ وتفحيم ضخم. ومثل القاصر، سارق قنينة الجعة في أماكن العرض، هنالك الكثير من ليس لهم مورد رزق سوى أجسادهم[43]. تمتصّ إبرة منغرسة في اليد دماءهم لاستخراج

---

(43) انظر:

Leon Anderson et David A. Snow, «L'industrie du plasma», *Actes de la recherche en sciences sociales*, nº 104, 1994, p. 25-33; Zoe Greenberg, «What is the blood of a poor person worth?», *The New York Times*, 1er février 2019. Lire par ailleurs Harriet A. Washington, *Medical Apartheid: The Dark History of Medical Experimentation on Black Americans from Colonial Times to the Present*, Doubleday, New York, 2006.

البلازما منها، ذلك السائل الأصفر الثريّ بالبروتين، المزوّد لصناعة الأدويّة. ويوجد في صلب هذا الجهاز السجن. ولتكاثره، يحتاج إلى بقيّة الأجهزة الصغرى، مثل الشرطة، والبلديّة، والمحاسبة، والمالية، والضرائب، والخطايا، وبإيجاز إلى العديد من سلاسل الابتزاز. ويجب أن نضيف إليها سلسلة كاملة من التجهيزات الضروريّة لعمل أماكن الاعتقال، وهي المراقبة، ومصالح فترة التجربة، وتجهيزات المراقبة، والأجهزة الخوارزميّة. وبوضعها جنبا إلى جنب، ترسم هذه السلاسل دائرة نحاسيّة، لا في الخارج ولا الدّاخل. وبما أنّ الخارج مجهول في الدّاخل **والعكس بالعكس**، فأيّ دلالات قد يكتسيه، في هذه الظروف، السياسي؟

يجب التذكير بأنّ السياسي يتمثّل في المجهود الخيالي غير المكتمل اطلاقا ومجهود خلق عالم ومستقبل مشتركين. إنّ نقطة انطلاق بناء هذا العالم المشترك هو اقتسام الكلمة. فالكلمة، مثل الحركة، هي التعبير عن الكائن الحيّ. فتتأتى القواعد الرّسميّة، والمؤسسات والمعايير جزئيّا من سلوك أوّلي، سلوك الكلمة في شكل عنوان، وإجابة على عنوان أو أفضل من ذلك على مداولة. ويجعل اقتسام الكلمة من السياسي قوّة تبادل وعلاقة. ولا يلغي الصّراع فعلا. غير أنّه يجعل معالجة الاختلاف ممكنة بشيء آخر مختلف عن السّيف، هو الجدل في الحقل العام.

إنّ الديمقراطيّة الليبيرالية في العالم المعاصر مهدّدة

جزئيّا، بحكم أنّ عددا متزايدا من الرّجال والنّساء لا يريدون أبدا التفكير والحكم بأنفسهم. وكثير منهم يفضّل، مثل أمس، تفويض ومناولة هذه القدرات لسلطات أخرى غيرهم، بل إلى آلات. وبشكل متناقض، لم يتوان أفق العالم المشترك أن يتوارى كلّما أصبح العالم أصغر بكثير. وفي غياب الكلمة الحيّة، فإنّ الفكرة التي من خلالها يفتح العقل، والقانون والأخلاق طريق التحرّر البشري، قد فقدت أكثر فأكثر مصداقيتها. وفي نفس الوقت، يظهر أنّ كلّ شيء يناضل ضدّ أقلّ جهد للتقيّد الذاتي من قبل الفاعل، بينما لا يظهر التخلّي عن الرضا العاطفي في جدول الأعمال تقريبا ولم يعد جزءا من المهام العاجلة للبشريّة(44).

لم تكن أفكار الاستقلال والعقل النّاقد في تراجع فحسب. فهي على وشك أن تفقد أناقتها وهيبتها. ولم تعد السلطة أبدا قادرة على التفكير والنّقد. فقد صار الإغراء في مكان آخر. وتشير الكثير من الأجهزة التقنيّة للعصر إلى أنواع أخرى من الرّغبات. ولم تتوقّف ضرورة الاعتقاد عموما، ولم يتوقف الاعتقاد خصوصا فيما يمكن الاعتقاد فيه بأيّ حال سلفا، من التأكّد. ولم تساهم الأجهزة التقنيّة الجديدة في تجزئة مستعجلة فقط وفي تطويق مختلف أجزاء الجسم الاجتماعي. فقد تعقّد أكثر من أيّ وقت مضى أيّ التحام لهذا الأخير حول شيء آخر مغاير للأنا الخاص.

---

(44) Sigmund Freud, *Malaise dans la civilisation*, Paris, Denoël, 1934 [1930].

انقسم هذا الأخير كثيرا، أكثر ممّا أقرّه علم النّفس في منعطف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتأكدت هذه الازدواجيّة الدّاخليّة مع تعقيد منطقيات الفردانيّة وظهور الأنا المتعدّد الذي أصبح ممكنا بالأجهزة الرّقميّة[45]. ولم تعد أبدا هذه التجزئة للفاعل تعتبر كجزء لهشاشتها الهيكليّة، بل والأنطولوجيّة. وإن أمكن أن تتعايش مختلف الصّور في نفس الشخص، سواء في الوقت ذاته، أو على التوالي، فيعود ذلك من الآن فصاعدا إلى البداهة، وتلك التجزئة التأسيسيّة، فلم يعد أبدا في حاجة إلى آلة نفسيّة للكشف عنه. وفي المقابل، تكون مستقبلا الرّيبة والتلوّن مضطلعا بهما، ومعهما تكون الفكرة المتمثلة في أعمال مندفعة ونادرة مقبولة، وأن يكون العمل، في النهاية، بعقل شخص آخر، أو حتى بآلة، محبّذا.

قد يكون الموضوع متعدّدا، فليس هنالك حاجة أبدا لعمل دائم لأن تتحقق بذلك وحدة وتوليفة. هذا على الأقلّ ما تشجّع عليه التجهيزات التقنيّة لعصرنا. فهي، في الحقيقة، تعمل إلى الخلف بعيدا عن كلّ الآفاق الكبيرة المحدّدة من قبل علم التحليل النفسي. وحصلت هذه التجهيزات التقنيّة على مراقبة أبعاد هي في نفس الوقت كلينيكيّة وسياسيّة، تكفلت بها، حتى هذه المرحلة، هيئات وسلطات أخرى.

---

(45) انظر:
Scott Wark, «The subject of circulation: On the digital subject's technical individuations», *Subjectivity*, nº 12, 2019, p. 65-81.

ومن وجهة النظر هذه، فإنّ خاصيّة التقنيات الرقميّة هي تحرير القوى العاطفيّة، التي ساهم قرن من القمع على الأقلّ في كبحها بصعوبة. وفي الأساس، ترك البحث عن الوحدة المكان للبحث عن التعدّد الملتمس كخالق لزيادة القيمة. ولم يعد محكوم على الشخصيّة الماديّة أن تتماثل مع الشخصيّة الرقميّة. فالانتقال من واحدة إلى أخرى هو، من الآن فصاعدا، المقياس[46].

تحلّ الرغبة الجامحة للإحساس محلّ القمع. فتكون سلطة العواطف وصخب الغرائز، موضوع إعادة تأهيل مذهلة. ويكون الأمر كذلك بالنسبة إلى العواطف الدينيّة والقوميّة. ولم يعد هنالك انفساخ للوعي. ويكوّن التساؤل عن الهويّة، والذات، والعرق، والجندر، والأمّة، جزءا من هذا البرنامج الثقافي الجديد. ولم يعد لهذا الأخير من هدف التخلّي عن العواطف، بل إعادة الإرساء في الذّات دون شيء خارجي ولا وساطة. وفي هذا الإطار، لم تعد الهويّة معتبرة كبناء مكتمل إلى الأبد والمُطالب بإعادة اختراعها باستمرار. فهي بالأحرى عادة قارّة وُضعت لكلّ الأزمنة. إنّ هذا الوضع الثقافي الجديد هو مصدر بعض المعضلات المعقّدة لعصرنا. وتلك هي مسألة الهويّة.

(46) Katerina Kolozova, «Subjectivity without physicality: Machine, body and the signifying automaton», *Subjectivity*, nº 12, 2019, p. 49-64; Beverly Skeggs, «Subjects of value and digital personas», *Subjectivity*, nº 12, 2019, p. 82-99.

بما أنّ الأمر يتعلّق تحديدا بالهويّة والاختلاف، فهنالك شيء يمكن قوله بحريّة، وهو من نحن، وبمناداة الأشياء بمسمياتها والقول بأنفسنا من أين أتينا وإلى أين نسير. وهنالك هويّة أخرى وهو أن نرى أنفسنا وقد ارتدينا قناعا، نكون بذلك مرغمين على وضعه، وأن يكون، منذ ذلك الحين، كمرادف لما نحن عليه في الواقع(47). ولكن، هل نعلم حقيقة منْ نحن؟ ألا يعود ذلك إلى اللغز بأنّ الكائن البشري سيظلّ حتى النهاية، ومن جانب التعتيم الذي سيجعل منّا، حتما، من الفارّين أصليّا؟

سيكون أيضا، طوال الفترة الحديثة، هدف معظم صراعات الهويّة لدى الشعوب الخاضعة هو التخلّص من الغشاء الأنطولوجي الذي غمرها نتيجة لذلك العمل الذي أنجزته العنصريّة(48). إنّها صراعات قصد الحصول على اعتراف، وتأكيد الذّات، بل وتقرير المصير. ولأنّها تمثل ميزات تقدّميّة بارزة، ساهمت هذه النضالات في الرواية التحرريّة الكبرى. وكان ذلك هو شأن النضالات الكبرى لفائدة إلغاء العبوديّة، وحقوق المرأة، والتخلّص من الاستعمار، والحقوق المدنيّة، أو أيضا تفكيك نظام الميز العنصري.

---

(47) Frantz Fanon, *ècrits sur l'aliénation et la liberté*, La Découverte, Paris, 2015.

(48) W. E. B. Du Bois, *Les ômes du peuple noir*, La Découverte, Paris, 2007.

واليوم، نجد أنفسنا غارقين في ضيق عميق. أوّلا، ما زلنا نشقى في الفهم بأنّه لا يوجد تاريخ للإنسان عموما. وإن حدث، فإنّ مثل هذا التاريخ قد لا يكون سوى سلسلة طويلة من الأفكار المجرّدة. وقد لا يمكن كتابته إلا بالدّم. هكذا هو الأمر لأنّه قد لا يمكن أن يكون بشكل عام مبتذلا لموضوع طاغ، موضوع- سيّد، سيكون أحيانا، وبالصّدفة، في التاريخ الرّاهن أبيض وذكوريّا[49]. أمّا عن تاريخ المستقبل، فليس هنالك سوى كائنات بشريّة في وضع للقيام بحركة[50].

ومن ناحية أخرى، إنّه لهامّ جدّا أن لا تتوقّف عديد الحركات المطالبة بالاختلاف من الانتشار. ولم تعمّر الكونيّة المجرّدة، المصبوغة بالاستعمار والممزوجة عنصريّة طويلا. فقد انتهت بأن اتخذت شكل هذا الموضوع- السيّد، الذي يجعل الإنسان في غضبه إنسانا فقط، فمن الواجب أوّلا أن يعرف نفسه في ومع ما يشمله ويجرّده من أهليّته، في ومع ما يسمح به وما يخفّض من قيمته، في ومع الحدود التي يقيمها بين ذاته والآخرين. وفجأة، تلعب هذه الحركات بالاختلاف، لا لكي تطرد نفسها ممّا هو مشترك، ولكن كركيزة لإعادة التفاوض في صيغ الانتماء والاعتراف.

يجب أن لا يتمّ مزج مثل هذا النضال مع مطلب

---

(49) Aimé Césaire, *Discours sur le colonialisme*, Présence africaine, Paris, 1955.

(50) Edouard Glissant, *Poétique de la relation. Poétique III*, Gallimard, Paris, 1990.

الانفصال التي تتخلل العديد من الطبقات المهيمنة في العالم المعاصر. وعوضا عن جسم دون حياة ولا طاقة، يهدف بالعكس إلى إبراز أجسام متكلّمة، أعضاء طائفة حقيقيّة من أصحاب الحقوق. وأظهرت هذه الحركات، من جهة أخرى، بأنّه، للوصول إلى ما هو مشابه، يجب الشروع في اقتسام الاختلافات. إذ عندما يقع اللقاء في العنف، يكون الاعتراف بالاختلاف نقطة انطلاق لسياسة المماثل، أو، في أحسن الأحوال، لسياسة ما هو مشترك.

وعلاوة على ذلك، فأينما سادت لمدّة طويلة الفكرة القائلة بأنّ هرم الأجناس هي معطى طبيعي، فتظهر المطالبة بالاختلاف أحيانا، وكأنّها قوام المطالبة الإنسانيّة. وأن تعلن نفسك مختلفًا، يصير الأمر عندئذ طريقة للفرار من النفي المفروض. كذلك الأمر بالنسبة إلى المطالبة بالحقّ في الذّاكرة. فوجود هذا الإرث التاريخي هو الذي يدفع بالقول بعدم وجود سياسة المماثل أو القاسم المشترك دون أخلاق الآخر. وتوجد وضعيّات لا يكون فيها الاختلاف، **مسبقا**، رفضا للتشابه. وبقدر ما تشتغل حيازة الذاكرة بطريقة خطّ الفصل بين الكائن البشري و"الآخرين" يكون الحقّ في الذّاكرة سرمديّا بالنسبة إلى نضالات الهويّة.

وخلاصة القول، لا يمكن أبدا حجب الوجه أمام الأخطار التي ربّما تستطيع أن تتضمّن رغبة الاختلاف سياسيّا وثقافيّا كمستقرّ لخصوصيّة لا يمكن فهمها بطبعها. وفي الحقيقة، تستطيع الرّغبة في الاختلاف أن تنشأ عن رغبة

موجّهة بالتّمام نحو موضوع سيء. ففي أيامنا، تصبو الهويّة فعلا إلى أن تصبح الأفيون الجديد للجماهير. وهكذا يكون الأمر لأنّ العقل كملكة بشريّة كونيّة يكون محاصرا وأنّ نمط الديمقراطيّة الليبيراليّة المفترضة بأن تكون فيها إحدى التظاهرات هي في أزمة في كلّ مكان(51). فتعبّر معظم التناقضات السياسيّة عن نفسها أكثر فأكثر في شكل حشوي. وتمثّل توتّرات الهويّة أعراض هذا الدّخول في عصر مرض الأحشاء. وأدّت هذه الأعراض، المُصابة بفيروس التقنيّات الجديدة للتواصل، إلى تحرير الطاقات السلبيّة الباحثة عن كبش فداء لتفسير مصائب الأزمان.

وعلى مستوى آخر، لم تعد رغبة الاختلاف دائما رغبة تلقائيّة. إنّ نظام العبوديّة والنّظام الاستعماري، إضافة إلى أنّهما نظامان اقتصاديان، كانا، على سبيل المثال، أعظم آلات صناعة الاختلاف العنصري والثقافي(52). فالنّظام الرأسمالي الشامل الذي نعيشه، هو، من بين أمور أخرى،

---

(51) انظر الملف:
«Democracy: Its normative foundations and current crisis», *Constellations*, vol. 26, nº 3, 2019, p. 355-474.

(52) انظر:
David Roediger, *The Wages of Whiteness: Race and the Making of the American Working Class*, Verso, New York, 1999; Theodore W. Allen, *The Invention of the White Race*, vol. 2: *The Origin of Racial Oppression in America*, Verso, New York, 1997. Dans le cas des colonies de peuplement, voir à titre d'exemple Yuka Suzuki, *The Nature of Whiteness: Race, Animals, and Nation in Zimbabwe*, University of Washington Press, Seattle, 2017.

نظام تفشّي الاختلافات. ويقع إنتاج وتداول الاختلاف، في ظلّ العولمة، كوسيلة للتبادل ومادّة للاستهلاك. وبعدّة طرق، جعل الاقتصاد السياسي المعاصر من الاختلاف مادّة أوّليّة وفي نفس الوقت عمليّة للمبادلات.

إنّ المذهب الإنساني الكلاسيكي من أسس الديمقراطيّة الليبيراليّة والنظام الجمهوري مورّط كثيرا لإثارة مشاركة مستدامة وغير مشروطة. ويجب تعديله والعودة إلى تصوّر شامل للعالم، بل وللأرض. والأرض، إضافة إلى أنّها ملكٌ لنا على قدم المساواة، مأهولة من عدّة أجناس، بشريّة أو غير بشريّة، يجب التفاوض معها على أشكال جديدة من التواطؤ، والتعايش والودّ. وبالنسبة إلى المستقبل المباشر، لم تعد المسألة مسألة الدّولة- الأمّة، والعرق أو هوايات فرديّة بل كذلك مسألة كوكب. ولم يعد للكوكب في حدّ ذاته أيّ معنى خارج البعد الكوني. وسينتج عن القاسم المشترك الاعتراف بتشابك عالمنا. ولهذا السبب، عالم إعادة التعريف بسياسة الخير للعالم إلى أبعد من الإنساني، فإنّ التفكير وتضميد الجراح لا ينفصلان.

لم يمض وقت طويل، حتى وقع الادّعاء بتحديد الحدود بين هنا وهناك بدقّة لا أكثر ولا أقلّ. واليوم، فإنّ مثل هذا التمرين عقيم. وتصبو الحدود من الآن فصاعدا إلى التّمدّد، وإلّا أن تُلغى، بالرّغم من كلّ المحاولات للاستعانة بمصادر خارجيّة، وتقزيمها أو عسكرتها. وفي الواقع، وعلى الرّغم من القوميّات والقوميّات العرقيّة. فلم يوجد أبدا إلّا

عالم واحد. وأردنا أم أبينا، فجميعنا فيه أصحاب حقّ. فلم تكن الأزمنة إذن مناسبة أكثر لإعادة صياغة إعدادات ما هو مشترك بيننا في العالم الكوني.

ومهما كان ما حصلنا عليه، فإنّ العالم لا يتكاثر إلى ما لا نهاية. وليست الكائنات البشريّة من سكانه الوحيدين ولا أصحاب حقّ بمفردهم. فقد لا يمكن لهم عندئذ أن يمارسوا على هذا العالم سيادة غير محدودة. انطلاقا من هذا، لا يمكن أن تكون هنالك ديمقراطيّة حقيقيّة إلا ديمقراطيّة الكائنات الحيّة في مجملها. وتستوجب هذه الديمقراطيّة من الكائنات الحيّة تعميقا لا في الاتجاه الكوني، ولكن في اتجاه المصير المشترك، وإذن ميثاق معالجة، المعالجة الممنوحة لجميع سكان العالم من البشر وغير البشر.

ويظهر، من الوهلة الأولى، في صلب هذا الميثاق للمعالجة، واجب الإعادة والإصلاح، وهي أولى المعالم نحو عدالة كونيّة حقيقيّة. ففي الأفكار الإفريقيّة القديمة، تشمل عمليّة الإصلاح مجمل الكائنات الحيّة. وتعتبر هذه الأخيرة بمثابة النسيج في التطوّر، وبالتالي جاهزة لعمليّة الترقيع. ولا تهمّ هذه الأفعال الجراح والصّدامات الناتجة عنها فقط. فليس للعيادة الحقيقيّة موضوعا لاسترجاع الملكيات المفقودة، بل تهدف قبل كلّ شيء إلى إعادة بناء العلاقة. وتكون هذه الأخيرة من مستوى كونيّ بقدر ما من واجبها معالجة جميع أجسام العالم. فتشمل العيادة بالضرورة ما أسماه كانط "**الضيافة الكونيّة**". ويحذّر من الوهلة الأولى،

بأنّ "المسألة ليس عملا خيريّا، بل **حقّ**". والخلاصة، ماذا تعني الضيافة في سياق القانون الكانطي؟ ففي نظر الفيلسوف، تعني الضيافة الحقّ الذي يحصل عليه الغريب عند الوصول إلى بلد آخر على أن لا تقع معاملته كعدوّ من قبل هذا الأخير". ويوضّح بأنّه يمكن لهذا الأخير أن لا يستقبله، إن أدّى ذلك إلى إمكانيّة خسرانه". ولكن طالما ظلّ آمنا في مكانه، فلا يمكن معاملته بطريقة معاديّة. وليس **حقّ الضيافة** الذي يمكن للغريب استحضاره (ممّا قد يشترط عقد عمل خيري جاعلا منه، لفترة، قاطنا نفس البيت)، ولكن **حقّ الزّيارة**، وهو الحقّ الذي يعود لكلّ كائن بشري أن يقترح نفسه عضوا لمجتمع، حسب الملكيّة المشتركة لمساحة الأرض، التي، بحكم كرويّتها، لا تسمح للبشر بأن يتشتّتوا إلى ما لا نهاية، بل تجبرهم رغم كلّ شيء على تحمّل تعايشهم، إذ ما من أحد، في الأصل، له الحقّ أكثر من غيره بأن يكون في أيّ مكان من الأرض"[53].

وبقدر ما "ليس، في الأصل، لشخص حقّ آخر في أن يكون في مكان ما من الأرض"، فلا يمكن للحدود، كما هي، أن تكون موضوع تقديس. فلا يمكن لهذا الأخير أن يتحوّل إلى محضور ثقيل. ويؤكّد إيدوارد غليسان في هذا الشأن بأنّ "تخطّي الحدود هو امتياز لا يمكن أن يُحرم منه أحد". ويضيف قائلا: "لا توجد حدود إلّا أخيرا في ذلك

---

(53) Emmanuel Kant, *Pour la paix perpétuelle*, Le Livre de poche, Paris, 2002 [1795], p. 62-64.

الكمال لتجاوزها، ومن خلالها اقتسام الاختلاف بكلّ عزم. ونستطيع الالتزام بتخطّي بعض الحدود، تحت ضغط البؤس، هو أيضا فضيحة، مثل أصول ذلك البؤس"[54].

ومثلما لم يتوقّف إيدوارد غليسان عن ترديده، فإنّ "كلّ واحد منّا في حاجة إلى ذاكرة الآخر، إذ لا يوجد فضل للرّحمة ولا للإحسان، بل هنالك وضوح جديد في سياق علاقة"[55]. ويضيف: وإن أردنا اقتسام جمال العالم، يجب أن نتعلّم على أن نكون متضامنين مع كلّ آلامه. ويجب أن نتعلّم، وأن نتذكّر جميعا، وذلك بإصلاح نسيج ووجه العالم. فلا يتعلق الامر بالانغلاق على النفس، وأن نكون مسكونين بهاجس البيت الذاتي، والبيت الجامع، والبيت المتسامي، بل بالمساهمة، قبالة السّاحل، في ظهور هذه المنطقة الجديدة من العالم، أين نستطيع، جميعا، الدّخول دون شرط، قصد معانقة، والأعين منفتحة، العالم المعقّد، وبنيته الواضحة وميزته المركّبة.

وهكذا، فإنّ مشروع ما هو مشترك يترك المكان للعابر. ويحيل العابر في آخر المطاف على ما يؤسّس وضعنا المشترك، وضع الهالك، في الطريق نحو مستقبل مبدئيا منفتح. فأن يكون عابرا، فذلك في النهاية هو الوضع البشري على الأرض. فضمان، وتنظيم وإدارة العبور، ليس في إقامة أقفال جديدة. تلك هي مهمّة الديمقراطيّة في العصر الكوني.

---

(54) Edouard Glissant, *Une nouvelle région du monde. Esthétique 1*, Gallimard, Paris, 2006, p. 123.

(55) نفس المصدر، ص. 161.

2

الكسر

إنّ ما نسمّيه منذ زمن غير بعيد "التاريخ الكوني" بعيد المنال. وليس في الإمكان تحديد الأشياء جملة وتفصيلا. فقد ظل الانفتاح والحركة البصمتين الواضحتين للعصر، بل وللكائن الحيّ. وكان كارل شميت واعيا بذلك، وأكّد بأنّه "طالما أن يكون للبشر وللشعوب مستقبل وليس ماضيا فقط، سيولد **قانونٌ** جديدٌ" في "أشكال دوما جديدة"، وأضاف بأنّ كلّ عصر جديد من تعايش الشعوب، تدعو الإمبراطوريات والشعوب بصفة حتميّة تقريبا إلى "تقسيمات مجاليّة جديدة، وحدود جديدة، ونظم فضائيّة للأرض جديدة"[1].

جسم الأرض

إنّه لمن الضروري، قبل المواصلة، التذكير بما رآه شميت "بالأرض" وبعبارة **القانون**. فعادة، تحيل الأرض إلى نمط مجالي، وإلى امتداد. فهي مصنوعة من تربة صلبة نسبيّا، ومناظر طبيعيّة، وتضاريس، وأعماق وأسس تحتيّة،

---

(1) Carl Schmitt, *Le Nomos de la Terre. Dans le droit des gens du* Jus publicum europaeum, PUF, Paris, 2001, p. 83.

ومسالك، وحضائر، وأراض بور في حالة احتياط، ومعابد. وتندرج، حسب ما نعتقد، في حزمة اتجاهات (شرق وغرب، جنوب وشمال). وهي، المصنوعة من مادّة معدنيّة ونباتيّة، بل ومن تربة، دائريّة، وإذن محدّدة. وهي بالخصوص مأهولة. ويمارس البشر خاصة هيمنتهم عليها بسكناها، ويقومون بمسحها واستغلالها. ويفلّحونها وفي النهاية يهتمون بها. وتتلاعب حياتهم ومصيرهم بالتربة. وهي، كبيت مشترك، مكان إقامة للكائنات البشريّة والكائنات الأخرى، وموضع قسمة بدائيّة بين جميع الموجودين، وانطلاقا من وجهة النظر هذه، في نفس الوقت اسمهم المشترك وجسمهم الأمومي[2].

قد يكون هنالك إذن، خلف الصّورة العامّة التي تمثّل "الأرض" شيئا من طراز قوّة خاصّة - قوّة أسس تحتيّة، لما ترتكز عليه الصنيعة، مهما كان شكلها وصانعها. ولكنه أيضا شيء يعود إلى الامتداد، والأعماق والجذر - الجذر، وإلّا مسقط رأس كلّ شيء، هذا الذي تختفي عنده الحدود عن الأنظار، وهذا الذي يُحفر ويصلح كملجأ أساسي لمن من الذّكور والإناث يقطنها. ورغم أنّها دائريّة، فقد تكون الأرض في الحقيقة رمزا لما هو لانهائي. وقد لا يمكن لأيّ شخص أو دولة بالخصوص ادّعاء الملكيّة الشرعيّة للأرض في مجملها. قد تستطيع الكائنات البشريّة أن تترك عليها بعض

---

(2) Renée Koch Piettre, Odile Journet et Danouta Liberski-Bagnoud (dir.), *Mémoires de la Terre. ètudes anciennes et comparées*, Jérôme Millon, Grenoble, 2019.

الآثار عند عبورها. ولكن قد تظلّ الأرض، المُحاطة بليل مُدقع، متميّزة دوما عن سكانها. ونادرا من بينهم من حضر بداياتها الأولى، ولا يمكن دوما لجميعهم معرفة نهايتها. ويجعلها إذن شيئا ما من مادّتها وماديّتها، بطريقة أو بأخرى، غير مناسبة أساسا. وهذا هو السّبب الذي قد يجعلها تحتلّ موقعا مركزيّا جدّا في "أعمار العالم"(3).

وهي ليست إذن مجرّد مادّة، وتكوين جيولوجي، وكتلة متماسكة مصنوعة من طبقات متعدّدة ومنضّدة، وهي ليست أيضا كيانا صامتا. وأبعد من مظاهرها المتعدّدة، فهي مأخوذة أيضا في شبكة سرمديّة من المهام الرّمزيّة. وهي كـ"بطن حقيقي للعالم"، تضمن توازن الكون، وهي بذلك المكان المتميّز لما هو مشترك ومتقاسم. وهي أيضا ما سيظلّ دائما **ذخيرة**، أي غير مناسبة. ويجب أن نفهم بأنّ ما هو غير مناسب ليس فقط ما هو مبدئيّا مقاومة لإجراءات الاستلاب، ولكن أيضا ممّا لا يحرم منها أيّا كان، أو أيضا أن لا يمكن لأيّ مستعمل أن ينكرها شرعيّا. ففي هذا الاتجاه، فإنّ الأرض هي هيئة ما يتحقق نهائيّا لما كان الإغريق يطلقون عليه اسم **المساواة**، أي ذلك القانون الذي لا ينطبق على الكلّ فحسب، ولكنّه **متساو للجميع**. وهي أيضا الاسم المناسب الذي يُمنح **للمماثل**، أي **المتشابه مع كلّ الآخرين**(4).

---

(3) F. W. J. Schelling, Les *ôges* du *monde*, Vrin, Paris, 2012..

(4) Jean-Pierre Vernant, *Mythe et pensée chez les Grecs*, Maspero, Paris, 1965.

يظهر أنّ كارل شميت تجاهل في كتابه **قانون الأرض**، بطرق متعدّدة، صناعة الملكيّة والعلاقات التي تقيمها ثقافات أخرى بين التربة والأرض كما هي. فعلاقة البشر بالأرض، في نظره، تمّ التفكير فيها بالخصوص على المستوى القانوني. ويؤكّد بأنّ الأرض "مرتبطة قانونا بثلاثة أبعاد". "فهي تحمله في ذاتها، مثل مكافأة عمل، وتظهره عند سطحها، وتنقله في ذاتها، كرمز عمومي للنظام". ويستنتج بأنّ "فائض الأرض يعود للأرض"[5]. ليست الأرض معتبرة في حدّ ذاتها. ولكن من وجهة نظر ما تحمله، ومن وجهة نظر قدرتها على مكافأة الرّجال والنّساء الذين يحرثونها (الإرهاق، والجهد، والبذر مقابل الحصاد) بصفة عادلة، ومن وجهة نظر موهبتها لإظهار بذلك فكرة عدالة محدقة تقريبا.

ففي تصوّر شميت، تكون التربة إحدى مكوّنات الأرض. وتتميّز التربة بدورها بصلابتها. فالإقامة في الأرض، هو جزئيّا استصلاح للتربة، ورسم وتحديد للحقول والبساتين والغابات. وهو أيضا غراسة وبذر، وترك بعض الأجزاء بورا، واستصلاح أجزاء أخرى. وفي نهاية هذا العمل، يتمّ تحديد التربة بحواجز، وأسوار، وحدود وجدران. وتنتشر فيها أيضا منازل، وبنايات وبنى تحتيّة أخرى. وبعبارات أخرى، لا تصير الأرض ذات معنى إلّا بفضل وساطة الجهد البشري. ولكن، يتمثّل هذا الجهد في سلسلة من أعمال التقسيم

---

(5) C. Schmitt, *Le Nomos de la Terre*, *op. cit*., p. 48..

والتملّك، أو أيضا في ما يسميه شميت "غنائم"[6]. وتأخذ مثل هذه العمليات للاستحواذ، التي يقول عنها بأنّها تؤسس القانون، أشكالا مختلفة. ولا يهمّ إن وقعت تحت طائلة بناء المدن وتحصينها، والاستعمار، والحروب، والغزوات أو النخاسة، والاحتلال، والحواجز أو الحصار. فهي دوما تخلق "أوّل منظومة لكلّ علاقات الحيازة والتملّك"[7]. وهي، بعبارات أخرى، العمليات التأسيسيّة الأصليّة للقانون. فـ"الاستيلاء" على الأراضي، وتحديد التربة هو موضوع الضمانات القانونيّة وصناعة للملكيّة. وهذا تمييز بين ما تملك وما أملك.

ويتحدّث شميت عن "امتلاك الأراضي" وكأنّها من ناحية أخرى حدث سياسي بارز، "أصل كلّ نظام ملموس لاحقا وكلّ قانون خفيّ"[8]، والنواة الفعليّة لكلّ تاريخ ذات بعد عالمي، أي تاريخ يواجه كلّ ما يحدث في العالم. ولا يضمّ مثل هذا التاريخ فقط مجموع الكرة الأرضيّة. ومثلما لاحظ آخرون، فهو، إضافة إلى ذلك، عرضة لأن يثير كلّ أشكال التدخّلات، وأن يضع التاريخ العالمي في حراك، والإنسانيّة جمعاء[9]. وأكثر من ذلك، تنجلي هذه الميزة

---

(6) نفس المصدر، ص. 49.

(7) نفس المصدر، ص. 50.

(8) نفس المصدر، ص. 53.

(9) Kostas Axelos, *Vers la pensée planétaire. Le devenir-pensée du monde et le devenir-monde de la pensée*, Les Belles Lettres, Paris, 2019 [1964]; voir en particulier p. 13-54 et 339-363.

التاريخيّة عندما يوفّر "امتلاك الأرض" بروز "مرحلة [جديدة] للوعي الإنساني بفضاء ونظام شامل"[10].

وبالنّظر إلى الأشياء من هذه الزّاويّة، يكون إذن للكونيّة بعدٌ مزدوجٌ. فمن ناحية، لا توجد كونيّة في غياب قدرة تمثيليّة شاملة للأرض. ومن ناحية أخرى، لا توجد كونيّة دون الوعي بانتماء مشترك إلى نظام فضائي شامل لكلّ البشريّة. وبالتالي، يفترض الوعي الكوني تمثيل عالم مشترك "لجميع البشر ولكلّ الشعوب"، لكوكب مشترك[11]. وهو ليس متساويا لوعي عالمي أو شامل فحسب، بل وحقيقة كوكبي، فإنّ التسجيل في عالم، بإشارته إلى وجود أرضي، يواصل هذا الأخير في اتجاه الكون بأكمله. وتقع إحدى أكبر لحظات البروز لمثل هذا الوعي في الفترة المنسوبة إلى "الاكتشافات الكبرى" في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهي في الحقيقة لحظة تقاسم وتقسيم للأرض التي لم تفض فحسب إلى نظام مجالي جديد، بل وأيضا إلى تصادم الأوهام[12].

ولأوّل مرّة، أصبحت الأرض في مجملها "مكتسبة ومُقاسة بالوعي الشامل للشعوب الأوروبيّة"[13]. فانتقلنا عندئذ من وجود قاري إلى وجود بحري. وسمحت الثّورة

---

(10) C. Schmitt, *Le Nomos de la Terre, op. cit.*, p. 54.

(11) نفس المصدر، ص. 59.

(12) Nathan Wachtel, *La Vision des vaincus. Les Indiens du Pérou devant la Conquête espagnole, 1530-1570*, Gallimard, Paris, 1971.

(13) C. Schmitt, *Le Nomos de la Terre, op. cit.*, p. 54.

الصناعيّة باجتياز خطوة إضافيّة مع بروز عالم تقني. فقد تواصل، في القرن التاسع عشر، هذا المسار للتقسيم واقتسام الكرة الأرضيّة مع احتلال إفريقيا، وضمّ أجزاء كاملة من أراضيها، والاحتلال الاستعماري، وسلسلة من التنازلات التي قلبت رأسا على عقب النّظام المجالي السابق وأتمّ **القانون** الذي وقع تدشينه بغنائم الأراضي لما بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر. ونتج عن ذلك إعادة تنظيم هيكلي للكوكب، ولعبة جديدة للحدود وإعادة توزيع العنف والقوّة. وأنعش هذا الوعي الجديد بالفضاء الكوني بدوره صراعات جديدة تهدف إلى رسم حدود، وأسوار جديدة، وحضائر جديدة.

التّصعيد

كانت الأرض، منذ منتصف القرن العشرين فعلا، محلّ تجربة وتحوّلات سريعة ومتعدّدة الأشكال بنتائج متناقضة. وأمست حدودها الخاصّة قليلة الوضوح جدّا[14]. وكان الأمر كذلك ممّا يميّزها، مثلا، عن فضاءات بحْريّة شاسعة، وثروات تخفيها وظروف امتلاكها[15]. وإن تعلّق الأمر

(14) انظر:

Tanja L. Zwann (dir.), *Space Law: Views of the Future*, Kluwer, Deventer, 1988; G. C. M. Reijnen et W. de Graaff, *The Pollution of Outer Space, in Particular of the Geostationery Orbit: Scientific Policy and Legal Aspects*, Martinus Nijhoff, Dordrecht, 1989.

(15) في خصوص الأبعاد القانونيّة لهذا الجدل، انظر:

بأشكال جديدة من الصّراعات، وحياة النقود، والاستثمارات والمبادلات أو أيضا من ميادين الإبداع الثقافي والفنّي، ومن الأشكال الحضريّة والأنظمة العقائديّة، كلّ هذا عن طريق إعادة صياغتها في ظروف احتراس جذريّة أحيانا. فتفنى أشياء كنّا تعوّدنا عليها، وأخرى، كنّا اعتقدنا أنّها اختفت إلى الأبد، عادت إلى الظهور تحت مسمّيات جديدة، مع أقنعة جديدة وأحيانا بنفس مشاهد الأمس، بالرّغم من أنّها بشخوص مختلفة. وترسم مظاهر الحركية عالما بخرائط متعدّدة، منسوجة من أماكن وصول وعبور في نفس الوقت، وملتقى طرق، وطرق فرعيّة، وتشعبات، وطرق مغلقة غير متوقعة، وجدران، وحدود متلوّنة، وجيوب، ومحتشدات وسجون. فما هي الأسوار، والحضائر المسيّجة، والحدود؟ وأين توجد المعابد الجديدة والمحميّات[16]؟ وهل أنّ

John P. Craven (dir.), *The International Implications of Extended Maritime Jurisdiction in the Pacific: Proceedings of the 21st Annual Conference of the Law of the Sea Institute*, Law of the Sea Institute, Honolulu, 1989; Lewis M. Alexander et al. (dir.), *New Developments in Marine Science and Technology. Economic, Legal and Political Aspects of Change*, Law of the Sea Institute, Honolulu, 1989; John M. Van Dyke et al. (dir.), *International Navigation: Rocks and Shoals Ahead*, Law of the Sea Institute, Honolulu, 1988 *; Brian D. Smith, State Responsibility and the Marine Environment: The Rules of Decision*, Clarendon Press, New York, 1988; John Warren Kindt, *Marine Pollution and the Law of the Sea*, W. S. Hein, Buffalo, 1998.

(16) . Dorinda G. Dallmeyer et Louis DeVorsey Jr., *Rights to Oceanic Resources: Deciding and Drawing Maritime Boundaries*, Martinus Nijhoff, Dordrecht, 1989.

الأنظمة المجاليّة الجديدة أرضيّة فقط؟ وأين تبدأ وأين تنتهي[17]؟

ويعلن أيضا عالم الواجهات والتشابك المتعدّد عن انفصالات محتّمة. تتعزّز البديهيات المعاصرة للانفصال، والتجزئة والترحيل بمختلف التقنيّات الكونيّة. فالإنتاج على مستوى موسّع "لسكان في وضعيّة غير قانونيّة"، وإذن محرمون في أحسن الحالات من أيّ حماية. ولا تخصّ هذه الظاهرة فقط المهاجرين، واللاجئين والأشخاص الباحثين عن ملاذ. فهي متوازية مع الاستحواذ على خيرات الكوكب من قبل الأثرياء المتسرّعين لممارسة **حقّ التهرّب** والتذمّر. ومن ناحية أخرى، يرتكز هذا العالم على أحد الأتربة، بل وحتى العديد من الأتربة[18]. ولم يكن جوهر وجوده سوى ماديّا، وجيولوجيّا، وسائلا، أو معدنيّا، ولكنه أيضا نباتيّ ومن مواد اصطناعيّة. ولتشغيلها ولتشغيل بنيتها التحتيّة واحتساب الكوكب الممثلة في أطرافها الاصطناعيّة، تستوجب استخراج لكلّ أنواع المصادر والمعادن، تسريعا

---

(17) Barbara Kwiatkowska, *The 200-Mile Exclusive Economic Zone in the New Law of the Sea*, Martinus Nijhoff, Dordrecht, 1989; Prosper Weil, *The Law of Maritime Delimitation: Reflections*, Grotius, Cambridge, 1989; Fillmore Earney, *Marine Mineral Resources*, Routledge, Londres, 1990. Lire également Umberto Leanza (dir.), *Mediterranean Continental Shelf: Delimitations and Regimes*, Oceana Publications, Dobbs Ferry, 1988.

(18) Benjamin H. Bratton, *Le Stack. Plateformes, logiciel et souveraineté*, UGA, Grenoble, 2019.

لمسار احتراق من مختلف الأنواع، ووساطات خياليّة ولغويّة جديدة[19].

يتطلّب وصف وتحليل ولادات هذا العالم ببطاقات متعدّدة أن نعرف ماضي ومستقبل الجنس البشري غير منفصلة عن بلاد بقيّة جميع أجناس الكائنات الحيّة. فهل من الواجب، لبلوغ ذلك، إزالة كلّ الحواجز، والتخلّي عن المجال، والانفتاح على مسائل ليست عالميّة أو حتى استعراضيّة، ولكن كونيّة؛ ومعانقة العلوم الإنسانيّة والعلوم الطبيعيّة، وتعميق التساؤل الفلسفي والتاريخي، وترك المجال ومواد الخيال. ويجب دوما أن نكون على استعداد للخروج من المجال الأكاديمي المُقام والحسابات التأديبيّة ومؤسّستيّة مهمّتها الوحيدة هو استنساخ الجاذبيّة المنظّمة. ومن الواجب قبول المرور بسبل تارة منحرفة وأخرى استعراضيّة، قصد تحديد وضع في تواصل لميادين تصبو عموما إلى فصلها.

وللبقاء على هذا النحو، فإنّ التصعيد لا جدال فيه[20]. فلا وجود أبدا لدائرة وجود معاصر لم تكن إطلاقا موضوعا للاختراق من قبل الرأسماليّة. وهذا الاختراق،

---

(19) N. Katherine Hayles, *Lire et penser en milieux numériques. Attention, récits, technogenèse*, UGA, Grenoble, 2016; et Angelo Braito et Yves Citton (dir.), *Technologies de l'enchantement. Pour une histoire multidisciplinaire de l'illusion*, Grenoble, UGA, 2014.

(20) كان هذا القسم الثاني من هذا الفصل محلّ دراسة منشورة تحت عنوان: «La démondialisation», *Esprit*, nº 12, décembre 2018, p. 86-94.

فعلا، غير متكافئ في عديد الجهات من العالم. فهو يعيش بالخصوص بالوكالة. وهذه الجهات المصابة بذهول الفقر، فإنّ الفاقة والعوز لطبقات بأكملها من السّكان تقوم، مباشرة، بتجربة التفكّك بين العالم المعيش فعليّا، هو عالم الحياة الجسديّة عند نقطة خاصة من التربة الأرضيّة، والحياة، المتعجرفة والواسعة الانتشار، للشاشات، فعلا، في متناولهم، ولكن بعيدة جدّا عن أياديهم، وأصواتهم وممتلكاتهم.

وإن تعلّق الأمر بالانفعال، والعواطف والمشاعر، وبالمهارات اللغويّة، ومظاهر الرّغبة، والحلم، والفكر، وبإيجاز مهما كانت الحياة، فما من شيء لم يظهر من الآن فصاعدا يمكن الهروب من قبضته. فقد غنم حتى أعماق العالم، تاركا خلفه أحيانا حقولا شاسعة من الفضلات والسموم، ونفايات رجال منخورة بجراحات وقُرحات ودمّل. وبما أنّ كلّ شيء أصبح مصدر رسملة محتملة، فقد خلق رأس المال عالما لنفسه، وحقيقة هلوسة ذات بُعد كوني، منتج في نفس الوقت، وعلى سلّم عريض، لأفراد محتسبين وخياليين ووهميين.

وبما أنّ رأس المال متكوّن من لحم، فقد أمسى كلّ شيء وظيفة لرأس المال، بما فيها الدواخل الشخصيّة. وتكون المسارات المؤدّيّة إلى هذه الإضافة الشاملة غير منتظمة. وتخلق، في كلّ مكان، ما هو عشوائي وغامض. وتشرّع، في كلّ مكان، للمجازفة والهشاشة حتى في الحظّ

العاثر للواقع[21]. وتكون، أحيانا، محلّ اختلاسات وإغراءات. ولا يهمّ إن أصبح رأس المال بُنيتنا التحتيّة المشتركة، وجهازنا العصبي، والفكّ التجاوزي الذي يرسم من الآن فصاعدا خريطة عالمنا وحدوده النفسيّة والماديّة.

لقد تمّ هذا الخلق للعالم في فترة يتحقّق فيها من الآن فصاعدا تنظيم المجتمعات في ظلّ نفس الرّمز، وهو التقدير الرّقمي. ويجب بالتقدير الرقمي أن نراعي ثلاثة أشياء. أوّلا، منظومة تقنيّة أو بالأحرى جهاز آلي متخصّص في العمل التجريدي، وإذن للالتقاط، ومعالجة المعطيات (الماديّة والفكريّة) آليّا، سواء تعلّق الأمر بالتحديد، والاختيار، والفرز، والترتيب، وإعادة التركيب والإثارة. وإن مثلت الرّقمنة، من وجهة النظر هذه، عملا تجريديّا، فلم يكن هذا الأخير منفصلا إطلاقا عن الآخر، وهو الحساب - لما هو حيّ ومعقول في نفس الوقت. ولكن، بما أنّه مأخوذ أم لا من طرف مهندسين تقنيين، فإنّ الحساب، مبدئيّا، لعبة فرضيات. وبما أنّ عمليّة الحساب تتعلق في نهاية الأمر بالصدفة، فإنّ ما هو غير محدّد يظلّ إذن القاعدة[22].

---

(21) في خصوص هذا الجدل، انظر:
Pat O'Malley, Risk, *Uncertainty and Government*, Glasshouse Press, Londres, 2004; Samid Suleiman, «Global development and precarity: A critical political analysis», *Globalization*, vol. 16, nº 4, 2019, p. 525-540. Pour un cas d'étude, voir Brett Neilson, «Precarious in Piraeus: On the making of labour insecurity in a port concession», *Globalization*, vol. 16, nº 4, 2019, p. 559-574.

(22) حول هذه النقاشات، نقرأ باهتمام:

ثانيا، إنّ الرّقمنة هي مظهر الانتاج، وإقامة سلسلة من المواضيع، والأشياء، والظواهر، ولكن أيضا من الضمائر والذكريات والآثار الممكن ترقيمها وخزنها، وهي إضافة إلى ذلك موهوبة بمؤهلات التداول. وأخيرا، إنّ الرقمنة هي المؤسّسة التي عن طريقها يُخلق ويتشكل عالم مشترك، ومعنى جديد مشترك، وجداول جديدة للواقع والسلطة. ويكون هذا العالم وهذا الحسّ المشترك نتاج انصهار ثلاثة أنواع من النّسب، خاضعة، لكلّ واحدة منها، ديناميكيّة انتشار وازدياد - وهي الفكر الاقتصادي، والفكر البيولوجي والفكر الخوارزمي. وتكون هذه الأشكال الثلاثة من الفكر، مهووسة بتخيّلات ميتافيزيقيّة - وهي القداسة التقنيّة.

ولا تمثّل آليات الترقيم والنمذجة الخوارزميّة وانتشار رأس المال نحو مجموع الحياة سوى نفس القضيّة الواحدة. وإن تعلّق الأمر بالأجسام، والأعصاب، والمادّة، والدّمّ، وأنسجة الخلايا، والدّماغ أو الطاقة، يظلّ المشروع كما هو، وهو أن تتحوّل كلّ مادّة إلى كمّيات، والحساب الاستباقي للقدرات، والمخاطر والاحتمالات قصد تمويلها من ناحية، وتحويل المقاصد العضويّة والحيويّة بوسائل تقنيّة من ناحية أخرى. وإذن فالأمر يتعلّق باجتثاث الكلّ من كلّ مادّة متفاعلة، ومن كلّ مجسّم، وكلّ ماديّة؛ ومن كلّ "متصنّع"، و"آليّ"، وكلّ

Luciana Parisi, «Critical computation, digital automata and general artificial thinking», *Theory, Culture & Society*, 22 janvier 2019, puis «Instrumental reason, algorithmic capitalism and the incomputable», *Multitudes*, vol. 1, nº 62, 2016, p. 98-109.

"تمكين". ويتعلّق الأمر بإخضاع الكلّ إلى تأثيرات القياس والتجرّد. فالترقيم ليس بشيء آخر سوى استرداد للقوى والقدرات وضمّها بلغة آلة- العقل المتحوّل إلى نظام مستقلّ وآلي.

إقامة الحدود

إنّ البشريّة، في الحقيقة، على أهبة الولادة في طبيعة ثانية عند منعطف تحوّل جوهري لأفق الحساب ولانتشار غير متناه تقريبا لبديهيات القياس الكمّي. ويمكن أن يظهر متناقضا، بل ومعاديًا للحدس، أن ننعت هذه اللحظة التّقنيّة بالقصور، والحال أنّها كذلك بطرق عدّة. وبالفعل ليست عمليّة الالتقاط، والتحديد، والقسمة، والفرز، والاختيار، والترتيب خاصة بالآلات الاصطناعية. وهي أيضا لحظة الحدود، هذه الأماكن أين ينفضّ العالم، بالنسبة إلى العديد من معاصرينا، وتلتقي العولمة بحدودها.

ليست الحدود خطّ فصل لكيانات سياديّة متميّزة فقط. فهي جهاز وجودي تعمل من الآن فصاعدا بذاتها ولذاتها، بطريقة مجهولة وغير شخصيّة، مع قوانينها الخاصّة. وهي الأكثر فأكثر النسبة الخاصة للعنف الذي تضمّه الرأسمالية المعاصرة ونظام العالم بصفة عامّة - أي الابن المنفصل عن أهله، والمقيّد في قفص[23]، والمرأة والرّجل التافهان

---

(23) Karen Jones-Mason, Kazuko Y. Behrens et Naomi I. Gribneau

والمحكوم عليهما بالاستسلام، والناجون من الغرق والغارقون بالمئات، وحتى بالآلاف في الأسبوع[24]، والترقّب المستمرّ، والإذلال في القنصليات[25]، والزمن الجائر، وأيّام البؤس والتّيه في المطارات، ومراكز الشرطة، وفي المنتزهات، وفي محطّات الأرتال، وحتى على أرصفة المدن الكبرى، أين نسحب، عند حلول المساء، الأغطيّة والثياب الرثّة عن كائنات بشريّة كانت سابقا مجرّدة ومحرومة من كلّ شيء تقريبا، بما في ذلك الماء، والنظافة، والنوم، وهي أجسام محطّمة، وبإيجاز بشريّة مهملة[26].

كلّ هذا يعيدنا، في الحقيقة، إلى الحدود، هذا

Bahm, «The psychological consequences of child separation at the border: Lessons from research on attachment and emotion regulation », *Attachment & Human Development*, 26 novembre 2019; lire également Sarah Mares, «Fifteen years of detaining children who seek asylum in Australia - evidence and consequences», *Australasian Psychiatry*, 8 décembre 2015,.

(24) Henrik Dorf Nielsen, «Migrant deaths in the Arizona Desert: La vida no vale nada », *Journal of Borderlands Studies*, vol. 34, nº 3, 2019; Joseph Nevins, «The speed of life and death: Migrant fatalities, territorial boundaries, and energy consumption», *Mobilities*, vol. 13, nº 1, 2018.

(25) Francesca Zampagni, «Unpacking the Schengen visa regime: A study on bureaucrats and discretion in an Italian consulate», *Journal of Borderlands Studies*, vol. 31 nº 2, 2016.

(26) Tamara Last et al., «Deaths at the borders database: Evidence of deceased migrants's bodies found along the southern external borders of the European Union», *Journal of Ethnic and Migration Studies*, vol. 43, nº 5, 2017; Cédric Parizot, «Viscous spatialities: The spaces of the Israeli permit regime of access and movement», *The South Atlantic Quarterly*, vol. 117, nº 1, 2018.

المستقرّ الصفر لما هو ليس بعلاقة ونكران حتى لفكرة إنسانيّة مشتركة، لكوكب، هو الوحيد الذي من الواجب أن نتقاسمه جميعا، والذي قد تربطنا به وضعيّتنا المشتركة كعابرين. ولكن ربّما يكون من واجبنا، حتى نكون دقيقين، الحديث عن "إقامة حدود" عوضا عن الحدود[27].

ألم تكن إذن "إقامة الحدود" سوى مسارٍ تغيّر به القوى العظمى لهذا العالم باستمرار بعض الفضاءات إلى مناطق لا يمكن للبعض من طبقات السكان أن تتخطاها؟ ألم تكن سوى التّعدّد الواعي لفضاءات الخسارة والحزن، أين تتهشّم حياة العديد من الأشخاص غير المرغوب فيهم؟ ألم تكن إذن سوى طريقة للقيام بحرب ضدّ أعداء تحطّمت سابقا محيطات وجودها وظروف بقائها على قيد الحياة - باستعمال ذخيرة خارقة من اليورانيوم، وأسلحة محرّمة مثل الفوسفور الأبيض؛ والقصف من المرتفعات للبنى التحتيّة الأساسيّة؛ وكوكتيل المواد الكيميائيّة المسرطنة والمشعّة الموضوعة في التربة وتغمر الهواء؛ والغبار السّام في أنقاض المدن المدمّرة؛ والتلوّث الناتج عن نيران المحروقات[28].

---

(27) انظر الملفّ:

«Effets-frontières en Méditerranée: contrôles et violences», *Cultures & Conflits*, nº 99-100, 2015.

(28) Catherine Lutz et al., War and Health: *The Medical Consequences of the Wars in Iraq and Afghanistan*, New York University Press, New York, 2019; Barry S. Levy et Victor W. Sidel, «Documenting the effects of armed conflict on population health », *Annual Review of Public Health*, vol. 37, 2016, p. 205-218.

وما القول عن القنابل؟ فمنذ الرّبع الأخير من القرن العشرين، إلى أيّ نوع من القنابل خضع السّكان المدنيون والمساكن والفضاءات - قنابل كلاسيكيّة عمياء، تمّ تحويلها بفضل وضع، في تناسق، لأنظمة وحدة القصور الذاتي؛ وصواريخ كروز مجهّزة برؤوس بحّاثة من الأشعة الحمراء، وقنابل بموجات صغرى موجّهة لشلّ المواقع الإلكترونيّة الحسّاسة للعدوّ؛ وقنابل تنفجر في المدن، تنبعث منها بشكل عابر إشعاعات من الطاقة لها مظهر الصّاعقة؛ وقنابل موجّهة صغرى أخرى لا تقتل، ولكنّها تحرق النّاس وترفع من درجات حرارة البشرة؛ وقنابل حراريّة تتسبّب في ظهور جدران من النّار وتلتهم أوكسجين الفضاءات المغلقة نسبيّا، وتقتل بموجات صادمة وتخنق تقريبا كلّ من يتنفّس؛ وقنابل عنقوديّة تكون نتائجها على السّكان المدنيين مدمّرة، تنفتح فوق التربة وتنثر، دون دقّة وعلى مناطق شاسعة، ذخيرة صغيرة من المفترض أن تنفجر عند ملامسة الأهداف؛ إنّها كلّ أنواع القنابل، وهي مظهر عبثي لسلطة هدم غير مسبوقة[29].

---

(29) Joseba Zulaika, Hellfire From Paradise Ranch: *On the Frontlines of Drone Warfare*, University of California Press, Berkeley, 2019; Katherine Chandler, Unmanning: How Humans, *Machines and Media Perform Drone Warfare*, Rutgers University Press, New Brunswick, 2019. Voir également Jairus Victor Grove, Savage Ecology: *War and Geopolitics at the End of the World*, Duke University Press, Durham, 2019; et A. Mbembe, *Politiques de l'inimitié*, *op. cit*.

فكيف التعجّب، في هذه الظروف، من أنّ من يستطيع من النساء والرّجال، النّاجين من الجحيم الحيّ، أن يفرّوا، وأن يبحثوا عن ملجأ في كلّ مكان، وكلّ ركن من أركان الأرض، أين يمكنهم إنقاذ حياتهم؟ إنّ هذا الشكل من الحرب الغبيّة، المحسوبة والمبرمجة، والمتّبعة بوسائل جديدة، هي حرب حتى على فكرة الحراك، والتّنقّل، والسّرعة، بينما العالم هو فعلا عالم السرعة والتّسرّع، لأكثر تجرّد وأكثر خوارزميّة على الدّوام[30].

ومن جهة أخرى، لا تستهدف أجساما مفردة فحسب، بل وكتلاً بشريّة تُعتبر حقيرة وتافهة، ولكن كلّ عضو فيها هو محلّ موضوع إعاقة محدّدة، موروثة جيلا عن جيل - الأعين، والأنف، والفم، والأذنان، واللسان، والبشرة، والعظام، والرئتان، والأحشاء، والدّم، والأيدي والأرجل، جميع هؤلاء المشلولين، والمقعدين والناجين، وجميع تلك الأمراض الصدريّة، مثل السلّ، وجميع تلك الآثار لليورانيوم على الشعر، وآلاف الحالات من السّرطان، والإجهاض، ومسخ الأطفال، و التشويهات الخلقيّة، والأقفاص الصدريّة المضطربة، والاختلالات الوظيفيّة للجهاز العصبي، هو الإحباط الكبير.

يحدث هذا الصّراع الموجّه ضدّ بعض الاجسام القذرة،

---

(30) Margarida Mendes, «Molecular colonialism», in id. (dir.), *Matter Fictions*, Stenberg Press, Berlin, 2017, p. 125-140.

الأكوام من اللحم البشري، على المستوى العالمي. وهو على وشك أن يصبح ميزة عصرنا. وأحيانا، يسبق أو يتمّم الصّراع الجاري بيننا أو عند أبوابنا، فيلاحقه بأجسام عيبها أن تتحرّك (وهي خاصيّة الجسم البشري)، أجسام نعتبرها دخلت خطأ إلى أماكن وفضاءات من المفترض أن لا توجد فيها أبدا أماكن تربكها من الآن فصاعدا بحضورها فقط، والتي من الواجب إجلاؤها[31].

ومثلما تقترحه الفيلسوفة إيلسا دورلين، يستهدف هذا الشكل من عنف الفريسة[32]. فهو شبيه بعمليات الصيد الكبيرة للأمس. ومبدئيا، الصيد بالكلاب والصيد بالأغوية، وتقنياتهما ذات الصلة - البحث، واقتفاء الأثر، والشّرك، وحصر الطريدة بفضل الكلاب المأمورة وكلاب الدّم. ولكنّه يمثّل جزءا كبيرا من التاريخ الطويل لمطاردة الإنسان. وتعرّض غريغوري شيمايو لأشكالها في كتابه **مطاردات الإنسان**[33]. فقد تعلّق الأمر دوما بنفس الهدف تقريبا - العبيد السمر، والهنود الحمر، والزّنوج، واليهود، والمشرّدون،

---

(31) John R. Logan et Deirdre Oakley, «Black lives and policing: The larger context of ghettoization», *Journal of Urban Affairs*, vol. 39, nº 8, 2017; CalvinJohn Smiley et David Fakunle, «From "brute" to "thug": The demonization and criminalization of the unarmed Black male victims in America», *Journal of Human Behavior in the Social Environment*, vol. 26, nº 3-4, 2016.

(32) E. Dorlin, *Se défendre, op. cit.*

(33) Grégoire Chamayou, *Les Chasses à l'homme. Histoire et philosophie du pouvoir cynégétique*, La Fabrique, Paris, 2010.

والفقراء، وقريبا منّا المحرومون من الهويّة[34]. وتخصّ عمليات الاصطياد هذه الأجسام النشطة والمتحرّكة والتي، بالرّغم من أنّها موهوبة بقوّة جذب، وشدّة، وبقدرات شاردة ومتحرّكة، من المفترض أن لا تكون أبدا أجساما من لحم ودم كأجسامنا، المحدّدة، والمنبوذة كما هي عليه. ويتمّ هذا الاصطياد من ناحية أخرى في لحظة لا تتوقف فيه تكنولوجيات التسريع من الانتشار، خالقة كوكبا مجزّئا، بسرعة متعدّدة.

إنّ تطوير تكنولوجيات الحدود في أوجها[35]. حواجز تفرقة جسديّة وافتراضيّة، ورقمنة المعطيات الأساسيّة، ومنظومة وضع الملفّات، وتطوّر أجهزة جديدة لتحديد الموقع مثل أجهزة الاستشعار، وطائرات بدون طيّار، وأقمار صناعية، وربوتات خافرة، وأجهزة تجسس بالأشعة تحت الحمراء، وآلات تصوير بأنواع مختلفة، ومراقبة للبصمات باستعمال بطاقات ذكيّة تضمّ معطيات شخصيّة، جميعها وُضعت في المحكّ لتغيير حتى من طبيعة الظاهرة الحدوديّة

(34) . Stefan Newton, «The excessive use of force against Blacks in the United States of America», *International Journal of Human Rights*, vol. 22, nº 8, 2018.

(35) Louise Amoore, «Biometric borders: Governing mobilities in the War on Terror», *Political Geography*, nº 25, 2006, p. 336-351; Jose Sanchez del Rio et al., «Automated border control e-gates and facial recognition systems», *Computer & Security*, nº 62, 2016, p. 49-72. De manière générale, lire Irma Van der Ploeg, *The Machine-Readable Body Essays on Biometrics and the Informatization of the Body*, Shaker Publishing, Maastricht, 2005.

والتسريع في إقامة حدود متحرّكة، محمولة وواسعة الانتشار[36].

احتجاز وتشذيب

لم يكن إذن المهاجرون واللاجئون، كما هم، محلّ اختلاف. وعلاوة على ذلك، ليست لهم أسماء خاصّة، ولا وجوه مفردة، ولا بطاقات هويّة. إنّهم ليسوا سوى سراديب، نوعا من الخزائن المتنقّلة عند سطح أعضاء متعدّدة، أشكال خاوية، ولكنّها مهدّدة، نبحث فيها عن دفن تخيّلات عصر مذعور بذاته وبتجاوزاته الخاصّة. فالحلم بأمن دون ثغرة، لا يتطلّب مراقبة منظّمة وشاملة فحسب، بل وأيضا تطهير، يكون مصحوبا بأعراض توتّرات هيكليّة، رافقت، منذ عقود، عبورنا إلى منظومة تقنيّة جديدة أكثر آليّة، وأكثر تشابكا وفي نفس الوقت أكثر تجرّدا، مصنوعة من شاشات متعدّدة - رقميّة، وخوارزميّة وضوئيّة.

توقّف العالم أمامنا من الظهور بعبارات قديمة. فنحن أمام ولادة شكل غير مسبوق للإنساني (الفاعل/ والمفعول به) وأنواع أخرى من الاختصاصات. فخرجت منها تجربة الظواهر التي لدينا من العالم مهتزّة بعمق. ولم يعد العقل والإدراك متزامنين. ومن هنا الذّعر. فلم نعد نرى ما هو متوفّر

---

(36) Louise Amoore et Alexandra Hall, «Taking people apart: Digitised dissection and the body at the border», *Environment and Planning D: Society and Space*, vol. 27, 2009, p. 444-464.

لنا لرؤيته وأكثر فأكثر ما نريد رؤيته بأيّ ثمن، حتى وإن لم يناسب ما نريد رؤيته بأيّ ثمن مع أيّ حقيقة أصليّة. ويمكن للغير، ربّما أكثر من ذي قبل، أن ينذر لنا نفسه في حضور جسدي وبصفة ملموسة مع البقاء في غياب شبحي وفراغ ملموس أيضا، واستثنائي تقريبا. فهي وضعيّة المهاجرين واللاجئين والباحثين عن مأوى. ولم تكن فقط طريقة ظهورهم بيننا هي التي تغوص بنا في قلق تاريخي ووجودي، بل هي أيضا رحم طهور الكائن الذي نفترض أنّه ليس سوى قناع (ماذا يوجد، فعلا، خلف ما يظهر؟) الذي يجعلنا في وضعيّة اضطراب وريبة جذريّة.

مسالك الهجرة الأكثر فتكا لعالم هو، لا محالة، أكثر فأكثر بلقنة وتطويقا؟ هي أوروبا ! وجثث في البحر وأوسع مقبرة بحريّة لبداية هذا القرن؟ هي أوروبا ! وعدد من الفيافي، والمياه الإقليميّة والدّولية، وأذرع البحر، والجزر، والمضيقات، والجيوب، والقنوات، والأنهار، والموانئ، والمطارات، المخوّلة إلى جدران من الحديد الإلكترونيّة؟ هي أوروبا ! وفي النهاية، في هذه الأزمنة للتصعيد المستمرّ، المحتشدات، والعودة إلى المحتشدات[37]. إنّها أوروبا المحتشدات. ساموس، وخيوس، ولسبوس، ولامبيدوسا،

(37) Federico Rahola, «La forme-camp. Pour une généalogie des lieux de transit et d'internement du présent», *Cultures & Conflits*, vol. 4, nº 68, 2007, p. 31-50; Michel Agier, «Camps, encampments, and occupations: From the heterotopia to the urban subject», Ethnos,

وفنتيميليا، وصقليّة، وسوبتيتسا، مسبحة من المحتشدات[38].

محتشدات اللاجئين؟ محتشدات المنقولين؟ محتشدات المهاجرين؟ ومناطق انتظار لأناس في حالة ترقّب؟ ومناطق عبور؟ ومراكز احتفاظ؟ وأماكن إقامة في حالة طوارئ؟ وأدغال؟ ومناطق طبيعيّة مركّبة وغير متجانسة، دون منازع. ولكن علينا تلخيص كلّ هذا في كلمة، الوحيدة التي تصف حقيقة ما يقع فيها، وهي **محتشدات الغرباء**. وفي نهاية المطاف، لا يتعلّق الأمر حقيقة بشيء آخر. فهي محتشدات أجانب، في قلب أوروبا وأطرافها، وهو الاسم الوحيد المناسب لهذه التجهيزات ولنوع من الجغرافيا السجنيّة التي ترسمها[39].

ومنذ بضع سنوات، كنّا نعدّ منها قرابة الأربع مائة في صلب الاتحاد الأوروبي. كان ذلك قبل الموجة الكبيرة لسنة 2015. ومنذ ذلك الحين، نشأت محتشدات جديدة، بما فيها

---

vol. 84, nº 1, 2019. Et, de manière générale, Elizabeth A. Povinelli, «Driving across late liberalism: Indigenous ghettos, slums and camps», *Ethnos*, vol. 84, nº 1, 2019..

(38) Maurizio Albahari, Crimes of Peace: Mediterranean Migrations at the World's Deadliest Border, University of Pensylvania Press, Philadelphie, 2015; Leanne Weber et Sharon Pickering, *Globalization and Borders: Death at the Global Frontier*, Palgrave Macmillan, New York, 2011..

(39) Nick Gill et al., «Carceral circuitry: New directions in carceral geography», *Progress in Human Geography*, 3 novembre 2016; Alison Mountz et al., «Conceptualizing detention: Mobility, containment, bordering, and exclusion», *Progress in Human Geography*, octobre 2012.

محتشدات الفرز، سواء في أوروبا أو جوانبها، وبتحريض منها في بلدان أخرى. ففي سنة 2011، استطاعت مختلف هذه المناطق المخصصة للحجز أن تضمّ حتى 32 ألف شخص. وفي سنة 2016، ارتفع العدد إلى 47 ألف. وكان المحتجزون بالأساس أشخاصا دون تأشيرة، ولا تصريح بالإقامة، معتبرين غير مؤهلين بحماية دوليّة. إنّها بشكل أساسي أماكن اعتقال، وأماكن نفي، وأجهزة إقصاء لأشخاص معتبرين بمثابة الدّخلاء، دون ترخيص، وبالتّالي دون حقوق، وحسب ما اعتبروه، دون كرامة. وبهروبهم من عوالم وأماكن غير مأهولة بسبب ضراوة مزدوجة، خارجيّة وداخليّة، فقد دخلوا إلى أماكن لا يمكن لهم دخولها، دون دعوة منها، ودون أن يكونوا من المرغوب فيهم. فلا يمكن إذن لتجميعهم وإقصائهم أن يكون الهدف النهائي لنجدتهم. وإن أردنا أيضا إلقاءهم في محتشدات - أن نجعل منهم رعايا من المحتمل ترحيلهم، وقمعهم وحتى إمكانيّة تدميرهم[40].

ليس لهذه الحرب (المتمثّلة في الإقصاء، وإلقاء القبض، والتجميع، والفرز، والفصل، والطرد) سوى هدف وحيد. فالأمر لا يتعلق كثيرا في عزل أوروبا عن العالم أو

(40) في خصوص الخلفيات الاستعماريّة والفاشيّة لهذه الأشكال، انظر:
Andreas Stucki, «"Frequent deaths": The colonial development of concentration camps reconsidered, 1868-1974», *Journal of Genocide Research*, vol. 20, 2018; puis Javier Rodrigo, «Exploitation, fascist violence and social cleansing: A study of Franco's concentration camps from a comparative perspective», *European Review of History*, vol. 19, nº 4, 2012.

إقامة قلعة منيعة على أن يقع تكريس، كامتياز للأوروبيين بمفردهم، حقّ التملّك وحريّة التّجوال في كلّ أرجاء الكوكب الذي نحن فيه أصحاب حقّ لا محالة.

فهل سيكون إذن القرن الحادي والعشرون قرن الفرز والاختيار عن طريق تكنولوجيات الأمن؟ فهل أصبح المحتشد ثانية، من حدود الصحراء الكبرى مرورا بالبحر الأبيض المتوسّط، المحطّة النهائية لأيّ مشروع أوروبي، ولأيّ فكرة لأوروبا في العالم، وعلامته القاتلة، مثلما أشار إليها منذ زمن بعيد حدس إيمي سيزير[41].

كان دائما أحد التناقضات الرائدة للنظام الليبرالي هو التوتّر بين الحريّة والأمن[42]. ويظهر أنّ هذه المسألة تمّ البتّ فيها. فمجتمع الأمن ليس بالضرورة مجتمع الحريّة، ومجتمع الأمن هو مجتمع تهيمن عليه ضرورة غير مكبوتة للمساهمة في مجموعة من الحتميات. فهو يخاف بذلك من التساؤل الذي ينفتح على المجهول وعلى الخطر الذي، على عكس ذلك، من الواجب التصدّي إليه.

هذا هو السّبب بأن تكون الأولويّة، في مجتمع آمن، يؤدي إلى معرفة بأيّ ثمن منْ يجثم خلف كلّ بروز - من هو،

---

(41) A. Césaire, *Discours sur le colonialisme, op. cit.*

(42) انظر:

Hagar Kotef, Movement and the Ordering of Freedom: *On Liberal Governances of Mobility*, Duke University Press, Durham, 2015.

وأين يعيش، ومع منْ، ومنذ متى، وماذا يصنع، ومن أين أتى، وإلى أين هو ذاهب، ومتى، ومن أيّ سبيل، ولماذا، وهكذا دواليك. وأكثر من ذلك، منْ ينوي القيام بأعمال، عن وعي أو دون وعي. ولم يكن مشروع مجتمع أمن تأكيدا للحريّة، ولكن المراقبة والتحكّم في أساليب البروز.

تدّعي الأسطورة المعاصرة بأنّ التكنولوجيا تمثّل أحسن أداة للتحكّم في الأطياف. فهي لوحدها التي قد تقدر على حلّ هذه المسألة التي هي مسألة نظام، ولكن أيضا مسألة معرفة، وعلامات، وتوقّع وبصيرة. والخوف أن لا يكون الحلم بإنسانيّة شفافة لذاتها، وخالية من الغموض، سوى وهم كارثيّ. وحتى هذه الساعة، يدفع المهاجرون واللاجئون ثمن ذلك. وليس من المؤكّد أن يكونوا الوحيدين لمدّة طويلة.

فكيف تكون، في هذه الظروف، مقاومة هذا الادّعاء من إحدى مقاطعات العالم للحقّ الكوني للافتراس سوى التجاسر على تصوّر المستحيل، بمعنى إلغاء الحدود، أي تمكين جميع سكان العالم، من البشر وغير البشر، من الحقّ السرمدي بالتنقل بحريّة على هذا الكوكب.

3

الرّوحانيّة والباطنيّة

لم ينتج العالم قدرا من المعرفة أكثر من اليوم. وترتكز معظمها على العمليات الحيويّة وعلى المناهج الميكانيكيّة والفيزيائيّة- كيميائيّة. وتمثّل أخرى في حدّ ذاتها أعمالا فريدة للخلق والتخيّل. والكثير منها لها أيضا وظيفة اختراع قوى متحرّكة عند السطح الفاصل بين الأجسام والآلات. وتترقّب مثل هذه القوى بأن تكون قادرة على القتل بأسرع ما أمكن، وبأكثر فاعليّة، و"نظافة" تامّة باسم الأمن[1]. وتعلّق الأمر من ناحية أخرى بتغيير كلّ الواقع إلى إنتاج تقني، والإنساني بالخصوص باعتباره توليفة، وعند الحاجة بمناهج جديدة من سماد وإنعاش[2].

لم تحصل البشريّة أبدا على قدر كبير من المعلومات والمعطيات المتعلّقة تقريبا بكلّ شيء، وفي الحقيقة بكلّ ما يخصّ الكائن الحيّ. وهي تلك التي لم تكن أبدا سهلة

---

(1) Lucy Suchman, «Situational awareness: Deadly bioconvergence at the boundaries of bodies and machines», *MediaTropes*, vol. 5, nº 1, 2015, p. 1-24; et Lauren Wilcox, «Embodying algorithmic war: Gender, race, and the posthuman in drone warfare», *Security Dialogue*, vol. 48, nº 1, 2017, p. 11-28.

(2) Thomas Lamarra, *The Anime Machine: A Media Theory of Animation*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2009.

المنال، حتى وإن كانت الاكتشافات والابتكارات الأكثر حسما، بشكل أساسي، في الميادين التقنيّة- العسكرية، والعلميّة والتجاريّة، سريّة وتتحكّم فيها براءات الاختراع. كلّ هذا حقيقي. ولكن، لم يكن أبدا الجهل واللامبالاة، المستنتجة أو المصقولة، متقاسمة أيضا، ذلك لأنّ الجهل، مثل المعرفة، هو شكل من السلطة[3]. فالمعرفة لا تؤدي حتميّا إلى الحريّة، بينما عدم المعرفة تحرّر تقريبا من كلّ مسؤوليّة، سامحة، في المكان الضروري، بتنمية المراقبة والجبروت[4].

الحياة الشيطانيّة

تمّ نقد فكرة التقدّم ولم يوجد ما يمكن القيام به قصد إضافته إليه. وكمفهوم، ارتكز التقدّم على الإيمان بالحركة المستمرّة، غير محتملة التوقّف. ولا يتمّ تبرير الحركة في حدّ

(3) انظر على سبيل المثال:
Stephan Scheel et Funda Ustek-Spilda, «The politics of expertise and ignorance in the field of migration management», *Environment and Planning D: Society and Space*, 25 avril 2019, ou encore Jutta Bakonyi, «Seeing like bureaucracies: Rearranging knowledge and ignorance in Somalia», *International Political Sociology*, vol. 12, nº 3, 2018, p. 256-273, et, de manière générale, Linsey McGoey, «Strategic unknowns: Towards a sociology of ignorance», *Economy and Society*, vol. 41, nº 1, 2012, p. 1-16.

(4) انظر:
Seb Franklin, Control *: Digitality as a Cultural Logic*, MIT Press, Cambridge, 2015.

ذاتها بأهداف منفعيّة ووظيفيّة. ففي منظومة التطوّر، كانت الحركة المستمرّة والوظيفيّة مقترنة بالحيويّة. وبذلك يتعارض التطوّر أساسا مع كلّ ما توفّره مظاهر الشيء الميّت، فهو لا يحتمل الدّمار، ولا التلف، ولا الشيخوخة ولا الجوع، وكلّ منطقة ميّتة، وكلّ قسم ميّت، وكلّ نقطة ميّتة تتعارض مع مبدئه.

وبالرّغم من نقد التطوّر، فإنّ الرغبة في التحوّل الدّائم للعنصر البشري والعالم، وإرادة السّيطرة الكليّة على الحياة ظلّا لا محالة نشيطين. وفي الأصل، ظلّت هذه الرّغبة وهذه الإرادة للقوّة الأفق الذي لم تتوقف البشريّة من التوق إليه. واليوم، تقلّص هذا الطموح إلى مجرّد مسألة لتحديد كميّات العالم وترقيم هذا الأخير. فصار الرقم، إن صحّ القول، المنحني، والدّائرة، ورسمًا بيانيّا، ونظام خوارزمي[5]. فقد أخذ العدد الصّدارة عوضا عن الكلمة، وصار العدد الضامن الفيصل للحقيقة عوضا عن أن يكون المؤشّر[6].

---

(5) Matteo Pasquinelli, «Three thousand years of algorithmic rituals: The emergence of AI from the computation of space», *e-flux*, nº 101, 2019, p. 1-14. Lire, du même auteur, «The eye of the algorithm: Cognitive Anthropocene and the making of the world brain», 2014, https://www.academia.edu/8751480/The_Eye_of_the_Algorithm_Anthropocene_and_the_World_Brain, et «Machine that morph logic: Neural networks and the distorted automation of intelligence as statistical inference», 2017, https://www.glass-bead.org/article/machine-that-morph-logic/?lang=enview.

(6) في خصوص هذه المسألة انظر:
Olivier Rey, *Quand le monde s'est fait nombre*, Stock, Paris, 2016.

وفي الواقع، فإنّ ما أسمته الفترة المعاصرة مشروع العقلنة، لم يكن ممكنا إلّا بفضل المستجدّات الماديّة والتكنولوجيّة والإجرائيّة المتعدّدة. ومن الآن فصاعدا، يفترض فكّ رموز العالم، عن طريق العلوم والرّياضيات بالخصوص، للمعرفة المكتملة والتوسعيّة إلى ما لانهاية لهذا الأخير وللظواهر التي تثيرها[7]. إنّنا، أكثر من أيّ وقت مضى، مرتبطون بهذا المسار، مدفوعون بجميع أنواع الميغا- أو هياكل النانو وبالأخصّ بنوع جديد من الوضوح أو أيضا القدرة التي، نظرا لعدم وجود مفردات بديلة، من الواجب تسميتها بالرّقميّة[8].

إنّ ظهور العمل الرّقمي أحيى من جديد المتخيّل القديم، متخيّل المعرفة الشاملة. فهو يعتبر العالم كخزّان شاسع نغرف منه. وهو خاضع دون رحمة إلى رغبة القوّة

---

(7) ما زال استكشاف آخر القارّات متواصلا، واستكشاف عالم الفضاء وحدود الحياة في بدايتهما، انظر:

Daniela Liggett, Bryan Storey, Yvonne Cook et Veronika Meduna, *Exploring the Last Continent: An Introduction to Antartica*, Springer, New York, 2015; Michael J. Crowe, *The Extraterrestrial Life Debate, 1750-1900: The Idea of a Plurality of Worlds from Kant to Lowell*, Cambridge University Press, Cambridge, 1986. Et Steven J. Dick (dir.), *The Impact of Discovering Life Beyond Earth*, Cambridge University Press, Cambridge, 2015.

(8) Francis Lee et Lotta Bjorklund Larsen, «How should we theorize algorithms? Five ideal types in analyzing algorithmic normativities», *Big Data & Society*, juillet-décembre 2019, p. 1-6; Suzanne L. Thomas, Dawn Nafus et Jamie Sherman, «Algorithms as fetish: Faith and possibility in algorithmic work», *Big Data & Society*, janvier-juin 2018, p. 1-11.

للإنسان، وتكون قواه الأساسيّة مبثوثة في ميكانيكا نظام معرفة لا يمكن لأيّ شيء أن يغيب عنها. ومرّة أخرى، ليس هنالك أيّ معنى، في هذه الظروف، أن نعرف سوى ما يسمح به الثقب، والحفر والاستخراج[9]. وبالتالي، فإنّ نقاط الثقوب هي التي تحتسب. ولا تُحصى إلّا لأنّ ما يُستخرج يمكن، في نهاية السلسلة، أن يتحوّل إلى شيء آخر، قبل تسليمه للاستهلاك. وفي هذا المسار الابتزازي، تلعب الآلة دورا لا يُستهان به.

ومثلما هو في أيّامنا، فإنّ العلاقة الحميميّة للاقتصاد والظواهر العصبيّة أو للتكنولوجيا والبيولوجيا ولتغيير العالم إلى وكر حدادة أبهرت دائما النقّاد الأوائل لعصر المكننة. فهي حركة ابتدائيّة شنيعة، وسرعة دوران، وابتزاز، ورعشة، وانفجار عنيف، وكلّ شيء يذكّر بفرن في بداية احتراق العالم. وذكّر فريدريش جورج يونجر قائلا: "إنّها ورشة عمل السايكلوب". وأوضح بأنّ المشهد الصّناعي "له شيء بركاني، ونجد فيه جميع تلك الظواهر المرئيّة خلال وبعد الثورات البركانيّة: الحمم، والرّماد، والدّخان البركاني، والدّخان، والغازات، والغيوم الليليّة المضاءة بالنيران والدّمار على نطاق واسع". وبالانكباب على "القوى الابتدائيّة المتينة التي تجتاح حتى الآلات المصمّمة ببراعة"،

(9) انظر لدراسة مثل هذه الحالة:
Claire Wright, «Modèle extractiviste et pouvoirs d'exception en Amérique latine», *Cultures &* Conflits, nº 112, 2019, p. 93-118.

والمنجزة آليّا عمل العمليّة الموحّدة، أضاف قائلا : "إنّها تنتشر في الأنابيب، والخزانات، والتّروس، والقنوات، وأفران الصّهر، وتندفع بقوّة في جهاز الزنزانة الذي يطفح، مثل كلّ السجون، حديدا وشبكات من المفترض أن تمنع المساجين من الفرار. ولكن منْ لا يسمع هؤلاء المساجين وهم يئنون، ويتذمّرون ويرجّون القضبان بعنف، ويصيحون في غضب أحمق، عندما يصغون إلى هذا اللغط من الجلبة الجديدة والغريبة الناتجة عن التقنيّة؟" وتنتج هذه الضوضاء عن علاقة الميكانيكي والأصلي. وهي، من ناحية أخرى، مؤذيّة، وحادّة، وثاقبة، ومفزعة، وصارخة. إنّها، في النّهاية، هي التي توفّر للتقنيّة وجها وملامح "شيطان مسكون بإرادة خاصة"[10].

وتظلّ جميع هذه الملامح قبوًا لمشروع المعرفة الشاملة للعصر الخوارزمي[11]. ومثل **النسبة** التقنيّة، يمكن اعتبار **النسبة** الرّقميّة والخوارزميّة بمثابة اقتران الفكرة السببيّة والفكرة الغائيّة التي تنضاف إليها الفكرة التنبّئيّة. ففي حالة واحدة كما في الأخرى، تقتصر المعرفة على المعدّات. فهي شكل من التنظيم الاجباري[12]. وفي حالة **النسبة** الرّقميّة

---

(10) F. G. Jünger, *La Perfection de la technique*, *op. cit.*, p. 144.

(11) انظر إلى المساهمات المجموعة في:
«Algorithmic normativities », *Big Data & Society*, vol. 6, nº 2, juillet-décembre 2019.

(12) Nick Couldry et Ulises A. Mejias, «Data colonialism: Rethinking big data's relation to the contemporary subject», *Television & New Media*, vol. 20, nº 4, 2018, p. 336-349.

والخوارزميّة، نجد أنفسنا أمام معرفة تستهدف جميع الظواهر الحاليّة والمتخيّلة. ويكون مجالها غير محدود بقدر ما يكون مثل هذا النّظام، إن كان موجودا، لا يمثّل الظواهر في تجرّدها فحسب، بل وأيضا النوايا، والتصرّفات البشريّة، والعادات، والشهوات، والحاجيات، والطموحات الخفيّة جدّا للبشر[13].

إنّ هذا النوع من المعرفة المكتملة هو نتاج اجراءات الاستخراج انطلاقا من المادّة الأوّليّة التي تمثّل المعطيات والمعلومات المتحصّل عليها بكثافة، والمحلّلة في الزمن الحقيقي أو المتأخّر، والتي تظهر منها الارتباطات المعبّرة والتي يكون تأويلها مشفوعا بالآليّة. وتكون هذه الاجراءات للاستخراج، والتحليل، وتنظيم أكثر فأكثر علاقات منجزة بآلات أوتوماتيكيّة، غايتها النهائيّة نقل أماكن السّيادة، وفي النهاية، سلب المواقع فعليّا من نصيبه من الظلّ الأساسي[14]. قد يتمّ إلغاء اللغز. وقد لا يكون هنالك شيء ما لا يمكن تصوّره من الآن فصاعدا. قد يصمد في النهاية الفاعل البشري، في وضوح تامّ لنفسه، فيكون مستقيما أمام ذاته،

---

(13) حول هذا الجدل، انظر:
Rob Kitchin, «Big Data, new epistemologies and paradigm shifts», *Big Data & Society*, 1er avril 2014; Ian Lowrie, «Algorithmic rationality: Epistemology and efficiency in the data sciences», *Big Data & Society*, 24 mars 2017.

(14) Louise Amoore, «Cloud geographies: Computing, data, sovereignty», *Progress in Human Geography*, 11 août 2019, https// doi.org/10.1177/0309132516662147.

وفي أتمّ الوضوح للأشياء وبهاء مصيره. ولكن هل يكون هذا ممكنا، حقيقة؟

ومن ناحية أخرى، وفي الظروف المعاصرة، فإنّ المعرفة للمعرفة، المجانيّة، من المفترض من الآن فصاعدا أن تكون دون قيمة. ولا تكون المعرفة صالحة إلّا لأنّها كفيلة بتطبيقات صناعيّة، وإذن يمكن أن تحقّق دخلا[15] على الأرجح، فإنّ قيمتها النّقديّة هي المعيار الوحيد لحقيقتها. وبذلك ليس لها أيّ صلة بالأخلاق ولا بالحكمة.

لا تمكّن المعرفة والحقيقة لوحدهما من الحريّة فعلا. قد تكون البشريّة منذ أمد بعيد، بعد أن تحرّرت من الجهل، والأفكار المسبقة، والخوف والخرافة، وجدت مفتاح السعادة والسلام - وعصر الوفاق السرمدي. ومع ذلك، وبالرّغم من التراكم غير المسبوق للمعارف، فإنّ الأفكار السيئة، الرخيصة، والبسيطة والمحدودة ما وجدت مكانا. ذلك أنّ العصر هو عصر التجزئة، والخرافات البسيطة، ونوبات الهويّة والرغبة في ارتكاب المحارم، الملازمة لها. فيريدون البقاء فيما بينهم، وتبادل الأخبار التي لم يعد يعتقد فيها إلّا القليل. ولكن هذا لا يهمّ.

إنّ إحدى متطلّبات عصرنا هي المردوديّة المثلى والكفاءة. وإنّه لمتعارف عليه بأنّ المردوديّة المثلى والكفاءة

---

(15) Scott Lash et Bogdan Dragos, «An interview with Philip Mirowski», Theory, Culture & Society, 1er mars 2016, https//doi.org/10.1177/0263276415623063.

لا يمكن تحقيقهما إلّا بفضل انتشار التّقنية. ومع ذلك، كلّما هيمن العقل والعلم والتكنولوجيا على حياتنا، تناقصت تنسيقيّتها في ذهن العموم. وفي الواقع، وخلافا لأسطورة عصر الأنوار، يمكن أن لا يكون العقل العنصر المحرّك للجنس البشري. إنّ جعل الحياة تقنيّة لا يخلق منّا آليّا كائنات أكثر عقلانيّة، وأقلّ معقوليّة في كلّ مرّة. وفعلا، كلّما أبعد تطوّر العلوم والتكنولوجيا حدود الجهل، انتشرت إمبراطوريّة التحيّز، والسذاجة، والحمق، وكأنّما الخلفيّة المظلمة والغامضة كانت ضروريّة للإنسانيّة - وهي احتياطي لليلة ضخمة حاول معها علم النفس أن يصالحنا مع أنفسنا. وكان الأمر كذلك من استهلاك الرّموز التي ليس لنا فكرة عن مأتاها. وندرك بأنّ حبّ التكنولوجيا والكراهيّة يمكن لهما التعايش بسعادة. وفي كلّ مرّة وقع بلوغ هذه العتبة من التواطؤ، كان العنف الناتج عنها متفجرا وباطنيّا.

ربّما لم تمت الأفكار. ولكن، كان التوجّه قطعا للحكايات الصّغيرة من ناحية ولمناصرة التكنولوجيا من ناحية أخرى. لقد أكّد بيير ليفي بأنّ "أنصار **البيانات الضخمة** روّجوا الوهم الإيبستمولوجي، بأنّهم يستطيعون الاستغناء عن النظريّة وبأنّه يستحيل عليهم إبراز المعرفة لتحليل إحصائي 'بسيط' للمعطيات"[16]. فهي ربّما محاكمة كاذبة، إذ، خلف

(16) Pierre Lévy, «Préface», in Stéphane Vial, *L'ôtre* et *l'ècran*, PUF, Paris, 2013, p. 14.

كلّ إحصائيّة، وكلّ معطى، وكلّ عمليّة خوارزميّة، هنالك فعلا ضمنيّا أو صراحة فرضيّة، ونظريّة لا تبوح باسمها.

وفي الأساس، لم تتخلّ الإنسانيّة عن الإنتاج والتلاعب بالرّموز. وظلّت الرّغبة في الأسطورة سليمة. فلم يوجد أبدا، ولن يوجد إطلاقا واقع دون رموز. وربّما يعود الجديد إلى الإنتاج المتسارع للرّموز بدون واقع، تكتفي بذاتها وترمي من الآن فصاعدا إلى اختلال جميع مساحة الواقع. وبمساعدة العصر الرّقمي، دخلت إذن الإنسانيّة في نظام إنتاج جديد وتلاعب رمزي. وخلف كلّ إحصائيّة، وكلّ شفرة وعمليّة خوارزميّة يختفي تقسيم للعالم والواقع، وفكرة ونظريّة، أي لغة قادرة على إنشاء الحقيقة التي ندّعي وصفها وتغليفها.

لا يوجد أيّ نشاط إنساني لا يكون حصريّا موضّبا بآلات، وتقنيات، وتكنولوجيات. وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى الأنشطة الفعليّة وكذلك المؤسّسات، والمجالات التي نقطنها. فالتكنولوجيات هي إحدى الوساطات بامتياز للكائن الحيّ. ويساوي نفس الشيء لإبداعات الفكر، وحتى الديمقراطيّة ذاتها. واليوم، انتقلت أهمّ الأنشطة البشريّة في العوالم الرّقميّة. فقد أصبحت الدائرة العموميّة ذاتها، في قسم كبير، دائرة رقميّة. فقد أصبحت من الآن فصاعدا شبكة [عنكبوتيّة].

أمّا الجماهير، فإنّ الرقمنة هي التي تقمّصتها إلى حدّ كبير، ولكن بطريقة جديدة، دون جسم ولا لحم. فالعلاقة

بالعالم، والآخرين، والأشياء، والأفكار هي من الآن فصاعدا مكيّفة بتكنولوجيات السليسيوم. تلك هي حالة القرن الحالي. لم تكن خصائص التكنولوجيات الرقميّة سوى إلغاء كلّ فكرة ماديّة، وعلى الأقلّ عدم تثبيت المادّة، حتى تكون أفضل من الشيء الوحيد المعوّل عليه، وهي السرعة(17). ليست مادّيّة الأشياء منفصلة عن مساحتها. فكلّ شيء يدور في الثنايا، وهي أماكن التّداخل المميّزة عن الواقع والافتراضي.

تتميّز الفترة إذن بجيل غير منقطع عن كلّ أنواع التدفّق. وأصبح كلّ شخص مأخوذا على حدة باثا ومستهلكا لتدفّق محتمل. فتوفّر هذه التدفّقات التي، من الآن فصاعدا، تمثّلنا، مادّة وشكلا للحياة الاجتماعيّة(18). وفي مسار معيّن، تمتزج إذن، من الآن فصاعدا، الدّائرة العموميّة مع تدفّقات متواصلة، تبرز، وتتضخّم وتنتهي مثل الأمواج. تلك هي علاوة على ذلك السّمة الدّالة للوضع التكنولوجي المعاصر. لم تجعل، بالفعل، الصناعات الالكترونيّة الجيل التوسّعي

---

(17) Edemilson Parana, *Digitalized Finance: Financial Capitalism and Informational Revolution*, Brill, Londres, 2018.

(18) تسير هذه الحياة الاجتماعيّة في سياق متميّز بإجراءات غير مسبوقة من مراقبة للجماهير وظهور تصرفات جنونيّة، حول هذا الموضوع انظر:
Dirk Helbing (dir.), *Towards Digital Enlightenment: Essays on the Dark and Light Sides of the Digital Revolution*, Springer, New York, 2018; Stephen Frosh, «Relationality in a time of surveillance: Narcissism, melancholia, paranoia», *Subjectivities*, vol. 9, nº 1, 2016, p. 1-16..

للمعطيات من جميع الأنواع حول كلّ شيء تقريبا ممكنا فحسب؛ بل حرّرت أيضا قدرات غير مسبوقة لخزن هذه الأخيرة. ولم تكن الأشياء المادّيّة هي الهدف الوحيد للرّقمنة. فتؤثر أيضا هذه الأخيرة في الصّور، وحتى في مجموع المواهب البشريّة، بما فيها المواهب الحسابيّة، ومواهب الإدراك، والقدرة على الفهم، والتصوّر، وخاصة الحواس، والمشاعر والعواطف[19].

المنطقة المظلمة

كيف يمكن بطريقة أخرى تفسير الروايات الصغرى، والرّوايات الضحلة، التي تقود جميعها إلى تاريخ عن الذّات، وتاريخ الغرور؟ إنّ هذا التقليص للتاريخ، وحصره في مجال- الأنا يساهمان في جعل الدّائرة العموميّة دائرة للتعبير الجماهيري في الخاص. ففي عصر نرجسيّة الجمهور، يعود النّاس إلى الشاشة، وجميع أنواع الشاشات[20]. فغياب العلاقة، ذلك ما يربط لاحقا البعض بالبعض، وهو ما يجعلها يتعرفون على بعضهم البعض، تلك هي المفارقة. ولكن، ماذا عن اللغة؟

لقد أصبحت الصّورة هي اللغة المتميّزة للموضوع. ذلك

---

(19) Y. Hui, *On the Existence of Digital Objects*, *op. cit.*

(20) Lucas D. Introna et Fernando M. Ilharco, «The ontological screening of contemporary life: A phenomenological analysis of screens», *Information Systems*, vol. 13, nº 3, 2004, p. 221-234.

هو الشأن خاصة لصورة الجسم، جسم المتعة، ولكن أيضا الأنا المتألّم والضحيّة، من الأفضل أن يكون على الشاشة. فقد جعل الفاعل، المُحاط بصور، من نفسه صورة. وتربّعت الصورة من الآن فصاعدا على عرش، كان فيها الفعل القرباني بمثابة عقدة الجسم والدّم الممنوح للتناول، والشرب والأكل. فالبعد القرباني والمقدّس السّرّي هو الذي لا نرى فيه أبدا الفاعل، المحتجب من الآن فصاعدا. فلم تعد أبدا سوى سلسلة من الأجسام- الصّور. وأكّد إيريك لوران بأنّ "إحدى الخصائص الأساسيّة للصّورة، هو أن نضع على نفس المستوى المسبّبات، التي قد تكون مختلفة جدّا"[21]. وأضاف بأنّه، في أيامنا، لكي نتواجد، ونُشاهد، ويقع التعرّف علينا، يجب أن يوضع كلّ شيء في صورة. ويجب أن توضع في صورة المسارات الأساسيّة والمخفيّة كثيرا، سواء تعلّقت بالجسم ذاته أو بالعقل. فالمشاهدة، والفهم والتفكير تمرّ عبر الصّورة. وكذلك الدّوائر المعرفيّة. واليقين ذاته. فلا توجد إلى هذا الحدّ إجراءات الحجّة التي لا تخضع إلى الصّورة.

وبهذا، لم تعد وظيفة الصّورة تمثّل أيّا كان. فقد جعلت التقنيات الجديدة للصّورة إخفاء المكان ممكنا. ولم يبق للصّورة، بعد أن قتلت حتى مبدأ التمثيل، سوى وظيفة

(21) èric Laurent, *L'Envers de la biopolitique*, Navarin, Paris, 2016, p.13.

واحدة، وهي أن تشهد لهذا الكائن من ذلك، أو، إن صحّ القول، من ذلك، من الحفرة التي من الآن فصاعدا أخذت ما كان موجودا، ولم بعد إطلاقا موجودا، إلّا على طريقة ذلك. ويحيل ذلك، هنا، إلى نبضات متحرّرة من كلّ رقابة. فالرقابة على الأنا العلوي تسمح بهيكلة القسمة بين الفاعل والصّورة وتنظيمها. وبما أنّ القسمة انهارت، نظرا إلى أنّ الفاعل أصبح صورة، فإنّ الرّقابة لم تعد ضروريّة. ولم تعد هنالك أبدا سوى حفرة هي من الآن فصاعدا وعاء لكلّ أشكال الرّغبات.

لم يعد هنالك في الإمكان جهل العلاقات بين السّياسي والحدسي. فقد أصبحت، اليوم، الدّائرة العموميّة المكان الذي يجتهد فيه الفاعل لوضع صورته الذّاتيّة. ولكن، لا يمكن أن توجد ذاتيّة في غياب صورة الجسم. ولم تكن الصّورة الذّاتيّة ممكنة إلّا إذا ما أُخذ الجسم في علاقة اجتماعيّة مع أجسام أخرى؛ إن قبلنا إفساح المجال لعلامات الزّمن على الجسد. ولكن، وفي نظام الوجود الجديد الذي هو نظامنا، لا تتمثّل الهويّة إطلاقا في شيء ابتدائي وقار. بل على العكس، فهي مادّة للتأليف؛ تتمّ وتتفكك باستمرار. فما يشبه الهويّة هي مثل البصمة التي تجتهد الكلمة أو المعنى أن تلتحق بها ونفعّلها دون جدوى. ولهذا السبب، فهي ممكنة التزييف. إنّ جعل مختلف أنماط المتعة الشخصيّة، انطلاقا من متعة الذّات عن طريق الصورة الذاتيّة، تلك هي إحدى الرّهانات السّياسيّة الجديدة.

وأكثر من ذلك أيضا، تحرّر العمليّة الغريزيّة للتكنولوجيات الجديدة من كلّ أشكال العوائق. فتكسر معظم الأقفال التي تسمح بمراقبة الأنا الأعلى. وكان في الإمكان التفكير بأنّ تشبّع حياتنا بالصّور قد يؤدّي إلى انصهار أكثر اتّساقا للفاعل وصورته. فالمفارقة هو أن يواصل، في الظلّ، الفرق بين الفاعل والصّورة مطاردة هذا والآخر. فالقوّة الحيّة للجسم الخاص لم تنطفئ، ولم تتوصّل الصّورة من بلوغ المرام. وبالرغم من قوّتها المُذيبة، تكون مجبرة بالعودة إلى الجسم. وهو بدوره مرتهن أكثر فأكثر كنتيجة لترتيب مكوّنات غير متجانسة[22]. وعلى العكس، يقع تصوّر الفاعل كمساحة ترتسم فيه صورة، وصور، وهذه الأخيرة ليست في حاجة إلى أن تكون متينة.

إنّ الشغف النرجسي هو مفتاح الخيال الجديد. ويكون الفاعل سلسلة من المجسّمات الجزئيّة وسط مجال مقاوم لكلّ عمليّة وحدة. ويبحث العصر، بوضوح، عن التحرّر من اللاوعي. وتشير أطرافه المثيرة للشهوة الجنسيّة ودوائره الحسيّة والمادّة المهمّة إلى عصر لا يريد أن يعرف شيئا عن الخسارة، ولا عن الديْن، ولا حتى عن السلطة. تلك هي فعلا عمليّة التراكم، وبالأخصّ الانفاق، والإجلاء والتبذير. ولكنّه أيضا عصر متميّز برفض آخر كلمة. وتعود الدّائرة

(22) Maurizio Meloni, «A postgenomic body: Histories, genealogy, politics» (2016), *Body & Society*, vol. 24, nº 3, 2018, p. 3-38.

العموميّة إلى هذا المكان المستحيل، وعاء الصّور الذّاتيّة المستحيلة. فترتسم إذن نفسيّة جماهيريّة جديدة، ومعها شكل سياسي جديد، شكل العواطف. إنّ الحكم هو، بتعاطف مع رأس المال، إنتاج هياكل الرّغبة وأنماط الاستمتاع. وإن كان إسقاط، فهو من الآن فصاعدا، مركز الذّات، وإلى تنصيب الذّات. ولكن يظهر أنّنا أمام شيء هو في نفس الوقت كثير الظلمة والمرونة، **ولقطات شكل** جديدة تصلح أن تكون قالبا لتكنولوجيات النانو.

هنالك مثال لهذه "الآلة الصغيرة" و"النانو-مواد" هو الهاتف الجوّال الذي كان اقحامه في القّارة الإفريقيّة حدثا تكنولوجيّا ذا ميزة هامّة[23]. ولم يكن الهاتف الجوّال مجرّد مادّة معتادة. فقد أصبح المخزن الحقيقي للمعارف والمجمّع الحاسم الذي غيّر الطريقة التي يتحدّث بها النّاس، ويعملون، ويكتبون، ويتواصلون ويتخيّلون من هم، وما هي علاقاتهم بذاتهم وبالآخرين وبالعالم عموما.

وفي الوقت نفسه الذي تطوّرت فيه وسائل إعلاميّة أخرى، كان أيضا إقحام الهاتف الجوّال حدثا جماليّا كبيرا. لم تكن هذه الآلة، في إفريقيا، أداة تواصل فقط. إنّها أيضا أداة للتّميّز، ولتشكيل أسلوب خاص، وبإيجاز خلق بصمة خاصة. فالنّاس يقضون الكثير من الوقت مع هذه المادّة. فقد

(23) Bregtje van der Haak, «Afrocomputation» dans *Multitudes*, nº 69, 2017, p. 198-204.

أصبحت هذه الآلة أكثر من مرافق، وامتداد للذّات، ومحتوى لأنواع الحياة التي يوفّر لها شكلا، بل ومعنى. والطريقة التي تقع بها معاملة هذه الآلة والطريقة التي تقع بها صيانتها هي في حدّ ذاتها مؤشرات فيما يتعلّق بالطريقة التي قد يريدها الكثير للعناية بأنفسهم، وفي نهاية المطاف فيما يخصّ الطريقة التي يتمنون أن تقع بها معاملتهم.

ولكن ربّما كان التأثير على المستويات الفلسفيّة، والثقافيّة والخياليّة أكثر تفجّرا. فلم ندرك ذلك بما فيه الكفاية. فقد كانت الثّقافات الإفريقيّة قبل الاستعمار مهووسة بجميع أشكال التساؤلات الأنطولوجيّة والميتافيزيقيّة. وتخصّ هذه التساؤلات حدود الأرض، وحدود الحياة، والجسم والذّات، ومضمونيّة الكائن والعلاقة، والفاعل الإنساني كعمليّة تجميع لهويّات متعدّدة، كان ترتيبها مهمّة لإعادة صياغتها باستمرار. وبما أنّ أساطيرهم، وآدابهم الشفويّة، وعلومهم لنشأة الكون توفّر الحجّة على ذلك، من بين كبرى المسائل الإنسانيّة التي تطرحها، هنالك المسائل التي تخصّ العالم إلى أبعد من الملموس، والمجسّم، والمرئي والواعي.

وقع تصوّر الكون في شكل رحلة في اتجاه المجهول وغير المرتقب. فكلّ شيء يدور في الواجهات الفاصلة، التي، حسب المعتقد، يوجد بها فائض للواقع. ولم يكن زمن الأشياء بعيدا عن زمن البشر. فلم يقع النّظر للأشياء كشخصيّات جامدة، بل كان يُنظر إليها، بدلا من ذلك،

ككائنات مرنة وحيّة، موهوبة بخصائص سحريّة، أصيلة وأحيانا خفيّة. وكانت مؤتمنة لكلّ أشكال الطاقات، والحيويّة والافتراضية، وتدعو، كما هي، باستمرار إلى التحوّل، وحتى المسخ.

تنتمي بعض الآلات والمواد التقنيّة والأدوات الصّناعيّة إلى عالم الحدود المشتركة والأبّهة. وهي بذلك، تُستعمل عتبات يمكن انطلاقا منها قياس درجة مخالفة للحدود الموجودة. إنّ تخطي مثل هذه الحدود بنجاح سمح ببلوغ الآفاق اللامتناهيّة للكون. كان "خلق-الكون" هو الاتجار باستمرار في الانعكاس، والشبكيّة، والسيولة. وأقامت الأشياء، مع الكائنات البشريّة والكائنات الحيّة الأخرى، علاقات سببيّة متبادلة. وهذا ما أسماه الأنتربولوجيون الأوائل "بالروحانيّة".

واليوم، يسير كلّ شيء وكأنّ العوالم الرّقميّة تتحدّث، تقريبا دون واسطة، إلى هذا اللاوعي العتيق أو إلى الذّاكرة التقنيّة العميقة جدّا لهذه المجتمعات. إنّ العصر الرّقمي أو عصر وسائل الإعلام الرّقميّة (والهاتف الجوّال أحد تعابيره) هو العصر الذي انفجرت فيه حدود الأرض وتحرّرت فيه تصوّرات حركة التنقّل - التي كانت حجر الزّاويّة لإنتاج المجتمع في إفريقيا ما قبل الاستعمار. فاستطاع الفاعلون من الآن فصاعدا التحرّك، حتى وإن كانوا، موضوعيّا، في حالة جمود.

وانضافت طبقة جديدة إلى الطبقات القديمة للاتصال التي كانت موجودة قبل الرّاديو، والتلفزة، والفيديو وحتى السينما. واليوم، من الممكن المرور دون انتقال من عصر الحجارة إلى العصر الرّقمي. وفجأة، فإنّ مفهوم العلاقة، وجد بذلك نفسه ثريّا. ومن الآن فصاعدا تفوّقت العلاقة على الأنطولوجيا أو، بذكرها بصفة مغايرة، انصهرت الأنطولوجيا والعلاقة.

تتأتى سلطة التكنولوجيات الرّقميّة من مرونتها، أي بقدرتها على أن تكون منفصلة عن بيئتها الأصليّة لكي يقع تطعيمها بقوالب ثقافيّة أخرى. ولا يمكن للتكنولوجيا أن تقول شيئا دون القدرة على أن تكون محطّة لشيء موجود أصلا في صلب ثقافة الاستقبال، دون أن تجعل من يستعملها يحلم. والموضوع التقني غير مرحّب به في فضاء جديد إلا إذا ما كان مُجديا، وفي الوقت نفسه حاملا لوعود، تحرّكها نواة طوباويّة.

إنّ التكنولوجيات الرّقميّة، بسبب مرونتها جزئيّا، ، وبحكم قوّة الظروف، قامت بدمقرطة القدرات على الحلم. فهي سابقا أهمّ حاوية لأعظم روايات الانعتاق التي كانت، منذ زمن بعيد جدّا، مستثمرة في جميع الأشكال الثوريّة الطوباويّة. ومن الممكن أنّه في بداية القرن الحادي والعشرين، وجدت هذه الرّوايات العظيمة للانعتاق أكثر فأكثر ملجأ في الدين، والبضاعة والتكنولوجيا. وقد فتح الانصهار المحتمل للبضاعة والتكنولوجيا والدّين طريقا لعودة عظيمة

للروحانيّة. وكانت التكنولوجيات الجديدة، على أريكة الجليد التي يميل عالمنا أن يصبح عليه، على وشك أن تصير المصادر العظيمة لاقتصاد الافتتان.

وفي الانتظار، فإنّ العالم الرّقمي عالم مدعوم بعمق بهياكل شبيهة بالحلم الديني، إحدى الأماكن التي يبرز فيها بجلاء واضح وجه التغيير في كيفيّة التجربة التي نعيشها في الواقع، عالم تشجع فيه ما ينفذ من السوائل على انتشار كلّ أشكال أنظمة المعتقد، والشعور. فأصبحت الديانة ذاتها أكثر فأكثر رقميّة. وصارت معظم الأشكال الدّينية المعاصرة وأشكال المعتقد من الآن فصاعدا إلكترونيّة أو على أيّ حال مصحوبة بدعائم إلكترونيّة. فالديني، في أيّامنا هذه، هو مكان الإنتاج بتميّز لتجارب هجينة.

وبشكل متزايد، فإنّ الدّيانة والمواد الإلكترونيّة تُشترى في شكل بضائع مصنوعة، تُباع وتُستهلك في سوق هو بدوره عالمي. وفي الأصل، لم يعد هنالك أبدا تعارض بين أنظمة المعتقد والأنظمة والمجموعات التقنيّة. ولا توجد حتى جماليّة لم تصبح، بطريقة مكثّفة أكثر من ذي قبل، مكان توافق للتناقضات القديمة بين التقنيّة والسحر والمنطق.

وعلى الرّغم من ذلك، ليس من الضّروري تنمية تصوّر مبتهج للإمكانيّة السياسيّة الرقميّة. فتعميمها سيسمح، من بين أمور أخرى، بدمقرطة نسبيّة للكلمة. يكفي، اليوم، امتلاك

حاسوب أو هاتف جوّال وأن يكون هنالك تواصل، فإنّ أيّ كان يستطيع نسبيّا أن يعبّر عن نفسه بحريّة، وأن يعلن كلمة حول كلّ شيء تقريبا، وإنتاج دون أي ترخيص مسبق رواية أو صورا ووضعها بالأخصّ للتداول. وعلاوة على ذلك، لا يوجد أيّ ميدان وحيد من الحياة الاجتماعيّة أو الخاصة يهرب من هذه القبضة وبوضوح ليس هنالك شيء نستطيع القيام به في هذا الشأن.

غير أنّ هذه الوضعيّة غير المسبوقة تماما للوضع المعاصر لها خلفيّة مضادة. فالأمر لا يتعلّق فقط بالطابع الإجتياحي لهذه التكنولوجيات، بل بقدراتها على شطب حتى فكرة الحدّ أو الحقيقة، والحال أنّها مفاهيم حاسمة سواء لتكوين موضوع الديمقراطيّة أو حتى لحيويّة دائرة عموميّة وفضاء مدني، إذ إن أردنا تقريبا القول (أو نشر) كلّ شيء، وأيّ شيء، وفي أيّ وقت، وفي ظلّ أيّ حجّة، عندها يكون الطريق مفتوحا إلى نوع من أكل للحوم البشر من نوع غير عادي.

غير أنّه، في بعض الظروف، يمكن استعمال هذه التكنولوجيات كأداة قويّة للدّعوة والتجنيد، وبتداول الرّسائل. وانطلاقا من وجهة النّظر هذه، فإنّ إنتاج المحتوى ومعرفة نشره، أو أيضا إقامة منصّات وشبكات هو المفتاح. أمّا بالنّسبة إلى البقيّة، فلا نقوم إجمالا باقتصاد لقاءات المواجهة. فالمواجهة، والأجسام الحقيقيّة التي تحتلّ الفضاءات العموميّة، والمجالس النّيابيّة الحقيقيّة ضروريّة

لتأسيس فضاءات سياسيّة وللمواجهة مع السّلطة، مثلما بيّنته جوديت بوتلر[24].

ربّما يكون نوع الفضاء العمومي الذي ساعد الأنترنات على خلقه سريع الزّوال. فهو أحيانا فضاء عمومي معاد لكلّ فكر مدنيّ. فهو لا يحكم في العقل كسيّد. فهو يعمل، في معظم الأحيان، على الإحساس والعاطفة، وعلى الإفراط والمغالاة، وكلّ شيء يسير وكأنّه يكفي لإثارة السخط للحصول على الموافقة. وقاد العالم الرّقمي الجديد، وإلى حدّ ما، إلى تصدّع عميق للغة. وتكون إمكانيّة قول كلّ شيء وضدّه حاضرة منذ ولادة اللغة. ولكن اليوم بلغ الالتباس بين ما هو حقيقي وما هو خطأ عتبات جديدة.

إنّ التباس النهاية والوسائل هو نموذجي بالنسبة إلى عصر بلغ فيه الانبهار بالسلطة، لدى القوى العظمى وكذلك التّوابع، نسبا غير محدودة. ولم نعد نهتمّ بالمسافة تجاه السّلطة. بل نبحث عن الاندماج مع القوّة. وحسب هذا المنطق، يجب على المنتصرين أن يكونوا بالضرورة على حقّ. ويجب أن يبدأ النقد السياسي للأنترنات وكلّ أشكال العقل الرّقمي بهذه الحقيقة القصريّة لعصرنا وهو انتشار فاشيّة مصغّرة في مفاصل الواقع.

ومن جهة أخرى، فإنّ العالم الرّقمي عالم مضيء وقع

---

(24) Judith Butler, *Rassemblement. Pluralité, performativité et politique*, Fayard, Paris, 2016.

تصميمه كخزّان عظيم لمعطيات تسعى العديد من الآلات على استخراجها بصفة مستمرّة. ولكن يستجيب هذا العالم أيضا لبعض التخيّلات الأكثر أهميّة للكائن البشري المعاصر، بدأ من التّصوّر الخيالي للذات التي وقع تجربتها لأوّل مرّة باختراع المرآة. فقبل اختراع المرآة، لم يكن للفاعل الفردي أيّ صورة عن ذاته. ويمكن أن تقع مشاهدته من الآخرين، ولكنه كان مستحيلا عليه أن يلقي نظرة على محيّاه. فوجهه يفرّ منه. ولا يمكن له أبدا أن يجعل من نفسه شيئا أساسيّا لتأمّله المرئي. ولا يمكن أن يشاهد إلّا ظلّه أو انعكاس شخصه من خلال سطح الماء.

أوصل العالم الرّقمي المرآة إلى أقصى درجة من الجدوى. فقد وقع تركيع تاريخ الظّل بأن جعلنا نعتقد بأنّه في الإمكان وجود عالم دون تعتيم، عالم شفاف وواضح لذاته، دون أيّ خاصيّة ليليّة. ومن الآن فصاعدا، يمكن أن نكون فرجتنا الخاصّة، ومشهدنا الخاص، ومسرحنا الخاص، وحتى جمهورنا الخاص. ففي هذا العصر للاستعراض المفرط، يمكن أن نقيّم دون حدّ صورتنا الذّاتيّة.

إنّ العصر الرّقمي، وعصر الأشكال الاتصاليّة الجديدة مهيكل بفكرة وجود ألواح بيضاء من اللّاوعي، وعدم وجود تعتيم ولا سرّ. فالأشكال الاتصاليّة الجديدة هي، إلى حدّ ما، البنى التّحتيّة الجديدة للّاوعي. ورفعت الحجاب الذي غطّت به الفترات السابقة للّاوعي. وبالأمس، كانت المؤانسة البشريّة تتمثّل في الحفاظ على اللّاوعي تحت الأغطيّة.

وتتمثّل أيضا في ممارسة يقظة إزاء أنفسنا أو منح ممارسة حقّ فرض هذه اليقظة لسلطات خاصّة. ونطلق على هذا اسم الإقصاء، أو القمع، وهما شرطان للتّسامي.

وجزئيّا بفضل الأشكال الاتصالية الجديدة، يمكن من الآن فصاعدا أن يعبّر اللاوعي عن نفسه بحريّة. ولم يكن التسامي ظاهريّا ضرورة. فقد وقع تفكيك اللغة ذاتها. ووُجد المحتوى في الشكل والشكل إلى أبعد من المحتوى، أو في إفراط. ويمكن، ظاهريّا، أن نبلغ الواقع، دون أيّ وساطة. والتجربة المباشرة، الأصيلة، هي النموذج الجديد. فيبرز الوجه الجديد للفاعل البشري في صلب هذا الحدث المتمثّل في التحرّر من عقل اللّاوعي.

وبالنسبة إلى البقيّة، أصبحت الأدوات الإلكترونيّة التي تشيع كياناتنا امتدادات لأنفسنا. ومن خلال هذا المسار نشأت علاقات أخرى بين البشر والأشياء، توقّعتها التقاليد الإفريقيّة. وفي الحقيقة، لم تكن أبدا الكائنات البشريّة في التقاليد الإفريقيّة راضية بأن تكون فقط كائنات بشريّة. بل كانت دوما تبحث عن إضافة لإنسانيّتها. وتضيف أحيانا لإنسانيّتها صفات حيوانات، ونباتات ومختلف الكائنات الحيّة الأخرى. بينما جرّدت الحداثة من الأهليّة مثل هذه الطرق للوجود وحبسها في طفولة الإنسان.

واقترب العصر من نهايته حيث أقيمت الفوارق بين ذواتنا والأشياء التي نقتسم بها وجودنا. وقبل مدّة ليست

بالبعيدة، على الأقلّ في الغرب الحديث، لم يكن فيها الإنسان شيئا ولا موضوعا. ولم يكن هو أو هي لا أكثر حيوانا أو آلة. كان الانعتاق البشري تحديدا مرتكزا على مثل هذه التفرقة. واليوم، يريد كثيرون أن يمتلكوا لأنفسهم القوى، والطاقات وحيويّة الأشياء التي تحيط بنا والتي معظمها اخترعناها.

أوّلا، تكوّنت المجتمعات، هنا، من خلال حركة المرور، وإمكانيّة التنقّل ومن خلال الحركة. وعندما ندرس الأساطير الإفريقيّة الأصيلة، لا يمكننا الاندهاش من الدّور المركزي الذي تلعبه فيها ظواهر الهجرة والاتصال. ولا توجد بإفريقيا مجموعة عرقيّة واحدة يمكنها أن تدّعي جدّيّا بأنّها لم تتنقّل أبدا. وكانت تواريخهم دوما تواريخ هجرة، أي أناس يتنقلون من مكان إلى آخر، وبذلك، يختلطون بأقوام أخرين.

وهنا، فإنّ حركة المرور وإمكانيّة التنقّل هما اللذان يخلقان المجال. وهي، ثانيا، مجتمعات ذات مرونة عظيمة. وتنطوي المرونة على استعداد لقبول كلّ ما كان جديدا، غير مرتقب وغير مسبوق. وتنطوي على اللعب مع ما لا نعرفه، ولكنّه كان من المحتمل على التفتّح على عوالم جديدة كليّا، وعلى إمكانيات قوّة جديدة، وعلى العجيب.

ونجد هذه المرونة أيضا في جميع ميادين المعرفة والحساب، والمسلّم به، هنا، ليس الحساب الآلي، ولكن متخيّل الأرقام، والتنظيم في شبكات، وطرق تقطيع الواقع،

والثقافة الحسّيّة، وأنواع الوعي الفضائي، كلّ هذه الهياكل الفينومولوجيّة كانت، خلافا لما اعتقدنا، مواتية بصراحة للتجديد. ونجدها أيضا في قلب الممارسة الفنّيّة. وهذه الليونة، وهذه المرونة، وهذا النزوع للتجديد المستمر، هي ذي عقليّة الرّقمنة أيضا. ولهذا السبب، يمكن القول بأنّ إفريقيا كانت رقميّة قبل الرّقمنة.

بؤس الوقت

لنترك جانبا العودة إلى الروحانيّة والظهور بقوّة لأشكال جديدة من الوثنيّة، سواء تعلّق الأمر بالوثنيّة الرقميّة، وبعبادة علوم الأعصاب، أو، بأكثر إجباريّة، بعبادة المادّة والأشياء المنتشرة عن طريق كنائس عيد الحصاد الجديد. فالعصر هو بوضوح عصر للتشاؤم السياسي والثقافي. وهو أيضا للحواس، في سياق هشاشة غير عاديّة للفاعل المعاصر. وبإعانة نرجسيّة الجمهور، فلم تقع من الآن فصاعدا المواجهة مع الواقع، باللغة، ولكن بالمتعة والجسم.

وبالرّغم من كلّ إنكار، فإنّ الفاعل المعاصر قلق، وموزّع بين عدّة أجسام، جسم- آلة، وجسم- جهاز، وبالخصوص جسم- الصّورة المصنوع من التكنولوجيات الجديدة. وكلّ هذه الأجسام، كلّ واحد على حدة، هي أجسام متعة، متعة نريدها مباشرة وفوريّة. وبالتجربة، تنفتح في كلّ مرّة هذه الرّغبة للمتعة عل خيبات أمل. وتكون هذه

الأخيرة أكثر صدمة من عديد الأجسام التي تصنع الفاعل بأنّها ليست بالمعنى الصحيح للكلمة أجهزة عضويّة. فهي على الأقلّ أجهزة وآلات من جميع الأشكال، مهمّتها الأولى هو تغيير كلّ شيء إلى صور.

وفجأة، لا يتماثل الكائن المتكلّم مع جهازه العضوي، بل يتماثل مع العديد من الصّور التي يولد بفضلها، ليس بجسم من لحم وعظام، ولكن بتأمّلات متواصلة. وهذا ما يفسّر على الأقلّ جزئيّا، انتشار خطب المؤامرة والانهيار، والامتعاض والهويّة، وباختصار المزاج الغاضب والمتآمر لعصرنا.

يظهر أنّه ركنت في أحشاء الهويّة، بالخصوص، كلّ مخاوف العصر، وجميع الأحاسيس الحالكة، ومخاوفنا، والآلام الحادّة جدّا، والرّغبات المبهمة كثيرا، بدأ بالرّغبة في المتعة، والاستمتاع دائما أكثر، وفورا. ولكن الرّغبة أيضا في زواج الأقارب، الذي من الواجب أن ينضاف إليه إرادة خفيّة لعنف يكون أحيانا مجانيّا وأخرى انتقاميّا. إذ تلك هي تطلعات، بل حتى أسمى حقن الرأسماليّة الخوارزميّة.

وفي الحقيقة، يظهر أكثر فأكثر في نظر العديد منهم نداء الأرض والدّم والرّكون إلى الهويّة كآخر الحواجز للتّصدّي إلى مآسي العصر، ويتمنّون، بالتلاعب بمطلب الهويّة، الحصول، في النهاية، على مكان حول المائدة، أو، خلافا لذلك، الحصول على الحقّ المتميّز للفتات الذي، في

غياب حدود مُحكمة، صار القوميون، حسب ما يعتقدون، مجبرين أكثر فأكثر على المجادلة مع مختلف الفئات الدّخيلة.

تريد الجموع إذن التحرّر من ذلك. وليس على الاطلاق من قوى أكثر فأكثر تجرّدا، وأكثر فأكثر شبكيّة وخفاء تحصد، في الشمال والجنوب أيضا، العديد من الأرواح وتحطّم الكثير من الآمال، ولكن مع منْ هم أضعف منها. ولا يرغب الكثير العيش إلّا فيما بينهم. وبذلك ينادون جهرا بالوحشيّة لا محالة، لكلّ من تخلّت عنهم الحياة سابقا ربّما، ولكن يتمسكون بكلّ الوسائل، بما فيها الوسائل الخطيرة كثيرًا وغير الشرعيّة.

وفي هذا الجوّ من الحنق والتّنازل عن الذّات، لا يُفهم المستقبل كتعهّد لتقدّم ممكن. فهو يتّضح من الآن فصاعدا في ظلّ ميزات قوّة التعريّة والإسالة، وتجربة حقيقة سلبيّة. وإنّه لصحيح أنّ في عديد من بلدان العالم، تنتفض الشعوب، معترضة بالمناسبة أشكالا شرسة من القمع. وفي نفس الوقت، عديد ممّن توقّف عن الاعتقاد بإمكانيّة القيام بعمل للتغيير الفعلي، ويشقون لتصوّر أي قطيعة كانت مع أطر الفكر والعمل الموجودة، وانتهى بهم الأمر إلى الاستسلام والتخلّي عن مشروع التحرّر البشري.

فكيف الاستغراب من ذلك؟ ألم نرغب، في نهاية الحرب الباردة، في الاعتقاد بأنّ ديمقراطيّة السّوق كانت آخر كلمة للتاريخ؟ فما القول من عديد إجراءات الاستسلام التي

وُضعت في الطريق والتي أدّت إلى خضوع واسع للعقل أمام النظام الموجود؟ وفي الأثناء، يظهر أنّ الرأسماليّة انغمست في اضطرابات من نوع جديد، جميعها حاملة أكثر فأكثر لعنف لا يُصدّق ضدّ الأشخاص، والمادّة والمحيط الحيوي. فالديمقراطيّة الليبيراليّة من ناحيتها مُفرغة من أيّ محتوى آخر سوى المحتوى الشكلي، وهي في طور التأرجح، بل في تفكّك.

هنالك حكومات، مُدّعية الليبيرالية، وهي عاجزة عن التستّر بأنّها مجرّد دعامة لليبيراليّة الجديدة، تحرّض السّذج كثيرا على التفكير بأنّ مستقبلهم لا يكون مضمونا إلّا بالانكماش على هويّة قوميّة زائلة. ونسمع هنا وهناك من ينادون بعودة كلّ شخص إلى موطنه وأن تُقام في كلّ الأماكن جدران وحدود، والحال أنّه يتمّ إقامة حرب اجتماعية على مستوى عالمي ضدّ المهاجرين.

ونتظاهر إذن وكأنّه سيقع حلّ المسألة المعقّدة لإزالة الكاربون من الاقتصاد ومن الكائن الحيّ بالتحضّر العالمي الاجباري، انطلاقا من تحضّر السّكان الذين لا طائل منهم أو الزائدين. وبالنسبة إلى تلك الجماهير المغرمة بالنزوح، لم يقع التأخّر بوعدهم، إلى هذا الحين، بالنموّ. ولكن الوقائع على الأرض، توفّر تكذيبا متواصلا لتصوّر خيالي لحداثة تسير نحو تحقيق مبادئها المعياريّة. وبما أنّ الثورة الليبيراليّة الجديدة انتهت بتفكك بطيء لتسوية اجتماعية صيغت إثر الحرب مباشرة، انتقل مجال الصّراعات إلى مسائل الهويّة.

ولكن كيف يمكن تأويل النداء الصاخب بالعودة إلى الأرض، وإلى المقاطعة، وإلى القرية، بينما كلّ شيء يدفع نحو عولمة لا لبس فيها للمشاكل التي تواجهها البشريّة؟ وهل صحيح، مثلما يراه العديد من الملاحظين، بأنّ التمسّك بالهويّة هي اللغة المعاكسة لإرادة العثور على قول من قبل من جُرّدوا منها؟ أو أنّ الأمر متعلّق بمحاولات صمّاء للتحكّم في المصير أمام سياسات تحاول الدّول الليبيراليّة الجديدة سحبها من كلّ جدل. وبعيدا من أن يكون الأفيون الجديد للجماهير، ألا يكون لا محالة التّمسّك بالهويّة عنوان رفض يحاول به السكّان معارضة سياسات هي فعلا مسؤولة عن نهب وهلاك محيطهم الحياتي؟

وعلاوة على ذلك، كيف يمكننا فهم الهويّة؟

لقد تلاشت الفلسفات الغربيّة حول الموضوع، وقد هيمنت على العالم خلال بعض القرون. فقد ارتكزت على الفكرة القائلة بأنّه قد يوجد فينا بعض الشيء الذي قد يكون جوهريّا، ثابتا وقارّا والذي بالتالي قد لا يتغيّر. وتُعلّمنا بأنّ الفرد هو مبدئيّا في كيانه. فهو خالق لنفسه، يحصل على هويّته من تلقاء نفسه، ولأنّه يتمتّع بوعي مفكّر وبعالم داخلي، فقد يكون متميّزا عن بقيّة الكائنات الحيّة.

لنفترض صحّة مثل هذا الاعتقاد، فهو أبعد ما يكون عن الكونيّة.

فمن المسلّم به، أنّنا، كمواطنين لدولة، نخضع جميعا إلى آليات تحديد الهويّة. مثلا، لكلّ واحد منّا مضمون ولادة. وعند وفاتنا، تضع الإدارة شهادة وفاة. وفي غضون ذلك، تمنحنا بطاقة تعريف، مزوّدة بعدد هو رقمنا، وبالنسبة إلى النّساء والرّجال الذين يسافرون إلى الخارج، يزوّدون بجواز سفر، يشير إلى جنسنا، وقوميّتنا، وعمرنا، ومهنتنا. وفي نظر الدّولة، تساعد جميع هذه المعطيات على ذكر منْ نحن وعلى ذكر حقيقة انتماءاتنا، وإثباتا لذلك، نتمتّع في المقابل بسلسلة من الحقوق الوطنيّة والوقائيّة. فنحن، من هذه الناحية، نتاج آليات حكوميّة وتحديد الذّات.

ومن ناحية أخرى، نلعب، باعتبارنا بشرًا، سلسلة من الأدوار. بعضها وقع تخصيصها لنا تلقائيًا. ونخلق منها أخرى بأنفسنا. ولكنّ الأدوار التي نلعبها لا تكفي لتحديد منْ نحن. وفي الواقع، تظلّ إلى الأبد **غير محدودة** سواء لأنفسنا أو للآخرين. وتتمثّل هذه الخاصيّة في عدم بلوغ مستوى الشفافيّة التّامة لذاتنا وللآخرين. وربّما تكون تلك، في نهاية الأمر، هويّتنا. فهي مشتركة لكلّ البشر.

لقد فهمت ذلك تقاليد فكريّة أخرى. إنّه مثال الأفكار

الإفريقيّة القديمة التي ترى بأنّه لا توجد هويّة إلّا منفجرة، ومشتّتة ومفتّتة.

وفي النّهاية، فقد كان المهمّ هي الطريقة التي كنّا نبني بها ونعيد بناء الذّات، دوما في علاقة مع كيانات حيّة أخرى. وبعبارة أخرى، لا توجد هويّة إلا في المصير، وفي نسيج العلاقات التي كان كلّ واحد فيها مجموعة حيّة. ولم تكن الهويّة، في هذا المعنى، مادّة لامتناهية. فكانت هذا الذي نودعه لحراسة الآخرين، في تجربة اللقاء والعلاقة التي كانت تفترض دوما تلمّس الطريق، والحركة وبالخصوص الغير مرتقب والمفاجأة الواجب تعلّم قبولها، إذ يكمن في غير المتوقّع وفي المفاجأة الحدث[25].

كان الأمر كذلك لأنّه لم يكن هنالك عالم، ومجتمع أو طائفة لم تجد أصلها في فكرة أو مديونيّة أخرى. لقد كانت الشخصيّة البشريّة تتكوّن من كيانات حيّة متعدّدة[26]. ولم تنجب ذاتها إطلاقا. فقد كان الآخرون دوما مسؤولين عن قدومهم للحياة. وهي ليست رهينة ولادتها فحسب، بل رهينة اللغة، والمؤسسات الأساسيّة، والثروات غير الماديّة التي ورثتها. ويتناقض هذا الشكل الأصلي للمديونيّة أو أيضا

---

(25) Mary Nooter roberts, «The inner eye: Vision and transcendence in African arts», *African Arts*, vol. 50, nº 1, 2017, p. 60-79.

(26) Babatunde Lawal, «Aworan: Representing the self and its metaphysical Other in Yoruba art», *The Art Bulletin*, vol. 83, nº 3, 2001, p. 498-526.

المهر الذين تدين به الأجيال الواحدة للأخرى، مع المديونيّة النازعة للملكيّة التي، في شكلها التّجاري، تثقل في أيّامنا بالدّيون ظروف تكاثر أو حتى بقاء ملايين النّساء والرّجال على قيد الحياة على سطح الأرض.

إنّ ما نطلق عليه، في هذه المنظومات الفكريّة، اسم الهويّة لا يتماشى أبدا مع الانغلاق على النّفس، والاكتفاء بالذّات، والوجه وجه مع الذّات، ورفض ملاقاة العالم أو الرّيبة، أو الأنا المؤكّد على نفسه بمفرده والذي بذلك ينغمس في ذلك النّوع من التكرار الذي ينتجه دوما الملل. ومن ناحية أخرى، كان تفرّد وأصالة الخصال الفرديّة المُثمّنة اجتماعيّا والتي تقوم فعلا بتنميّتها والعناية بها، وعند الحاجة، إبرازها بالكامل[27].

لم تكن إذن الهويّة هي المهمّة، بل الطاقة المفترض أنّها تدير الظواهر الحيويّة وتحرّك التصرّفات. وتُعرف الشخصيّة البشريّة بامتياز بثرائها في الطاقة الحيويّة وقدرتها على أن تكون رجع الصدى لعديد الكائنات الحيّة التي تعمّر الكون، بما فيها النباتات، والحيوانات والمعادن. ليست بالقارة أو الثابتة، يل تتميّز بمرونتها.

نعرف الأشخاص المتميّزين حقيقة بقدرتهم على تحقيق

(27) Jane Guyer et Samuel M. Eno Belinga, «Wealth in people as wealth in knowledge: Accumulation and composition in Equatorial Africa», *Journal of African History*, vol. 36, nº 1, 1995, p. 91-120.

كلّ أنواع ترتيبات القوى، وعلى التقاط وإعادة تشكيل تدفّقات الحياة. ويمكن، في هذا الاتجاه، الحديث عن الميتافيزيقيات الإفريقيّة القديمة بأنّها كانت ميتافيزيقيات المستقبل، وليس المادّة. وفي الوقت الذي أنهت فيه التكنولوجيات الحسابيّة امتلاك كلّ العالم، فإنها تمكّننا، بطريقة أحسن من الفلسفات الغربيّة للفاعل، من التفكير في الهويّة وكأنّها شيء في حركة دائمة، وليست أبدا نفس الشيء، دوما منفتحة على ما يحصل، والتي لم تتوقّف على أن تتألّف من جديد، عند الالتقاء بتدفّقات أخرى للطاقة.

وعند هذا العمر الجديد للأرض، تواجه الدّيمقراطيّة الليبيراليّة مأزقا حقيقيّا. فهي على وشك أن تُغمر بعدّة أشكال من الرجعيّة القوميّة. وعوضا عن سياسة عالميّة قادرة على وضع تاريخ العالم والكائن الحيّ في حراك، تدّعي القوى القوميّة الرّجعيّة العمل على إعادة إحياء الطوائف المفترضة أنّها نقيّة وعضويّة مهدّدة من كلّ أنواع الدّخلاء.

ولكن الاحتراق الجاري في العالم، يرغمنا على القطع مع التصوّر الدائري للهويّة التي ميّزت العقل الغربي خلال قرون طويلة. وأمام مضمونيّة الهويّة يجب تعويضها بهويّة الكائن الحيّ، أي مصير المحيط الحيوي، في عصر يشير الكلّ إلى وجود تكوين تكنولوجي جديد في حالة مخاض. وإن كانت الأرض، فعلا، شيئا متكاملا، فلا يمكن عندئذ أن توجد فيها هويّة في ظلّ حركة مرور عامة للحياة وللكائن الحيّ. وبالعودة إلى حركات المرور هذه وتدافع الحياة، التي

تدعوها الأزمنة بشكل عاجل. وانطلاقا من وجهة النّظر هذه، تمثّل إفريقيا حقلا شاسعا للإمكانيات. فهي، بمثابة البنت البكر للأرض، وفي نفس الوقت عضوة شابّة للبشريّة، تؤوي تحت قشرتها وفي أحشائها طاقات لا تنضب، وماض من جراح، ولكن أيضا كنوز عظيمة ضروريّة في أوقات الشحّ. وهذه الذكريات عن المحنة والشفاء، تقطن فيها وكأنّها بيتها المشعّ.

4

الفحولة

لا يمكن الاهتمام بالطريقة التي تقوم بها السلطة والاقتصاد بتشغيل الأجسام بعمق وتضع بها على المحكّ أعصاب الفاعل دون القيام، في نفس الوقت، بنقد القضيب، المُعتبر، هنا، كشعار متميّز للنّظام الأبوي. فالأمر لا يتعلّق بتقليص هذا وذاك، بل يتمثّل في الإشارة بأنّ القضيب ليس مكانا مجرّدا، ودلالة بسيطة أو رمزا مغايرا - بل شيئا قابلا للانفصال وعرضة للنسخ الرّمزي. وبالفعل، لا يقتصر القضيب على الجهاز التناسلي للرّجل كما هو، ولكنه ليس عضوا دون جسم تميل إليه كثيرا بعض تقاليد علم النفس الغربيّة.

وفي هذا الفصل، سنتحدّث عنه كما هو، حيث تكون خاصيّته البروز، بطريقة أنقى، مثل التّورّم، والاندفاع والتطفّل. ولا يمكننا الحديث عن اندفاع، وتورّم وتطفّل دون أن يُعاد للقضيب إن لم تكن جسديّته، على الأقلّ لحمه الحيّ وقدرته على أن يبيّن ميادين المحسوس، وأن يشعر بجميع أنواع الحواس، والاهتزازات والرّعشات (لون، وأريج، ولمس، ووزن ورائحة، وهكذا دواليك).

يمثّل القضيب والنظام الأبوي من ناحية أخرى وجهين

لنفس المرآة، مرآة السّلطة التي من الواجب أن نوسمها بهزّة الجماع. فالأمر يتعلّق بسلطة مسكونة بعقليّة- الكلب، وعقليّة- الخنزير، وعقليّة- الحقير. ولهذا، تبحث باستمرار على إقامة بين الجسديّة (العامل المكثّف للجسم والأعصاب) والجنس والمادّة علاقات مشبّعة بالخصوص بتوتّرات من جميع الأنواع. وكانت هيمنة العبوديّة والاستعباد الاستعماري، كلاهما تعابير تاريخيّة. فكانتا من البداية إلى النّهاية هيمنة تناسليّة. وكانتا مدفوعتين بالرّغبة في متعة مطلقة، يجب أن يكون فيها الفاعل الخاضع، مهما كان جنسه، كائنا جنسيّا. فالأمر خاص، في ممارسة مثل هذه السلطة، بالقيام بتجربة نوع من النّشوة الجنسيّة التي لا تشمل الجسم ومختلف أعضائه فحسب، ولكنها كانت ما يعادل زلزال للحواس.

زلزال الحواس

ساهمت، في الحقيقة، في ظلّ المزرعة وكذلك في المستعمرة، تصوّرات وممارسات جنسيّة متأتيّة أساسا من الغرب، في صياغة هيمنة من طبيعة شهوانيّة، فكانت الأجسام البشريّة المطبوعة بالعنصريّة الهدف المتميّز. ومرّ هذا الشكل من ممارسة سلطة دون رقيب واضح عبر جهاز، وهو الجنس العنصري، الذي كان بالمناسبة من الواجب اقتصاره على تعبيره البسيط جدّا، وهو الجماع الجنسي. وفي مبدئها، كما في الممارسة، كانت سلطة هزّة الجماع تقنيّة إدارة

الغيريّة لأجسام ثانويّة. وكانت هذه الأخيرة تُعتبر تارة كسلع وأخرى مرضيّة. وللقيام بهذا، كانت السلطة في حاجة إلى جهاز شبه تقني قادر على إنتاج تصوّرين ومعارف تخصّ أهدافها[1].

وبغرض إضفاء شرعيّة، قامت من ناحية أخرى بصناعة، على مستوى شاسع، جميع أشكال الصّور والأشباح التي قد تسمح حركتها العامّة بتطبيع الطريق التي يقع بها معالجة الأجسام، وبالتالي هؤلاء الأشخاص[2]. فماذا تقول لنا هذه الصّور حول موضوع عمليّة الاستعباد أو الاستعمار عموما وعن العلاقات بين الهيمنة الذّكوريّة والتناسليّة خصوصا؟ وأيّ مكانة يحتلّها العرق في نظام الجنس المعتبر هكذا كأداة في نفس الوقت للمتعة واغتصاب أجسام وما يمثلها من رموز؟ تلك هي بعض الأسئلة التي سيجتهد هذا الفصل في الإجابة عنها[3].

---

(1) حول هذا الموضوع، انظر:
Heather Vermeulen, «Thomas Thistlewood's libidinal Linnaean project: Slavery, ecology, and knowledge production», *Small Axe*, vol. 55, nº 1, 2018, p. 19-38.

(2) Pascal Blanchard et al. (dir.), Sexe, *race et colonies*, La Découverte, Paris, 2019.

نستعمل في الأسطر الموالية عناصر من مقدّمتنا في هذا الكتاب، كنّا نشرناها تحت عنوان:
«Sur l'autre n'est qu'un sexe..» sur *AOC*, 24 août 2018, et d'un chapitre paru dans Gilles Boëtsch et al. (dir.), *Sexualités, identités et corps colonisés*, CNRS èditions, Paris, 2019.

(3) حول هذا النوع من التساؤل، انظر:

وفي الحقيقة، أقام الغرب، خلال تاريخه الطويل وباعترافه الشخصي، مع الجنس والممارسة الجنسيّة علاقة معقّدة بصفة استثنائيّة، مطبوعة في الزاوية بقلق أصيل، كان موضوع العديد من الدّراسات والتعاليق العلميّة. فمن ناحية، ربّما كان مهووسا، أكثر من أيّ منطقة أخرى من العالم، بمسألة أصل المتعة الجنسيّة، وطبيعتها، وعلاقاتها مع الفحولة، واللذّة والوحشيّة، وحتى الهذيان والموت. ومن ناحية أخرى، يبيّن تحليل العديد من تقاليده وعباراته الجنسيّة - بما فيها المواد الإباحيّة - بأنّه منح مكانة بارزة لاحتضان الأعضاء التناسليّة التي ارتأينا بأنّها، علاوة على ذلك، كانت تظاهرة لطاقة بيولوجيّة وكونيّة عظيمة في الآن نفسه، إضافة إلى أنّها حدود أصليّة بين الطبيعة والثقافة.

وقد يكون الكائن البشري، عن طريق النّشوة الجنسيّة بالخصوص، عاجزا عن الانفصال كليّا عن الطبيعة وعالم الغرائز. وقد تؤكّد، في الحقيقة، النّشوة الجنسيّة، وهي اللحظة الكارثيّة وذروة المتعة، هزيمة الإنسان، الخاضع كليّا، في لحظة معيّنة، إلى قوّة خاصّة للإتلاف، عوضا عن صدام قوى متناقضة من الطاقة والالتفاف[4]. وفي كلمة، قد تضمّ الحياة الجنسيّة، وهي الخليط من المتعة والخوف، شيئا

Elsa Dorlin, *La Matrice de la race. Généalogie sexuelle et coloniale de la nation française*, La Découverte, Paris, 2009.

(4) Wilhelm Reich, *La Fonction de l'orgasme*, L'Arche, Paris, 1997 [1927].

قذرا ضمنيّا في أعماقها وذا صلة في الآن نفسه بمستنقع ومكان لتفريغ الفضلات. وقد تطفو الغرائز الجنسيّة، المتغافل عنها نحو السّطح بما قد يكون عليه الجنس من بؤس وقذارة. ومن هنا تكون ضرورة قمع الغرائز بتهذيبها، وبإحاطة العادات الجنسيّة بالعديد من الموانع والمبادئ الأخلاقيّة. وبإيجاز، قد يكون، من دون قمع الغرائز الجنسيّة، محكوما على الإنسانيّة العمياء بعواطفها أن تعيش تحت نير رغباتها وممنوعة من بلوغ العقل والنّضج.

فضدّ هذا السّرد المتشائم نسبيّا للحياة الجنسيّة والرّغبة في الحرّيّة البشريّة، ظهرت معظم الحركات التحرّريّة الجنسيّة منذ القرن التّاسع عشر على الأقلّ[5]. ومهما كانت الأشكال التي اتخذتها، فقد كان الهدف النهائي لا أكثر ولا أقلّ هو نفسه، بمعنى قطع العلاقة بين الحياة الجنسيّة والتصوّر للخطأ والإثم المرسومين بعمق في لاوعي المجتمعات الغربيّة. ولهذا السّبب، تمثّلت الثورة الجنسيّة، في مجملها، في الخروج من الدائرة التي جعلت الحياة الجنسيّة نوعا من المكان القذر، بينما لا تظهر المتعة الجنسيّة للوعي إلّا في شكل نشوة أو الموت ذاته، الموت المنتشي.

وسيصطدم "الرّجل الأبيض"، متسلّحا بهذه الرّواية -

---

(5) انظر:
Gaëtan Brulotte, *Œuvres de chair. Figures du discours érotique*, Presses de l'université Laval, Québec, 1998.

التي من خلالها فهم التصوّر الخيالي للقوّة دون حدّ في أرض محتلّة ومستعمرة - بأجسام غريبة. وسيكتشف وهو المتعوّد على الانتصار دون موجب وبفضل السيطرة التي سيحصل عليها على المجالات، والأراضي والأشياء، بأنّه من الممكن الاستمتاع دون ندم وإشباع نزوة الفظائع والإهانات من كلّ شكل، بما فيها الأجسام المتحوّلة إلى بضائع، دون الشعور بندم أو أيّ ذنب.

وسيلاحظ بأنّه يستطيع حرفيّا إفراغ الآخر من محتواه وتسجيل حقيقته الذّاتيّة، في هذا المكان الشاغر، في شكل صورة أو خيال. وسيتفطّن بأنّه يستطيع فعلا أن ينقل الكائنات البشريّة المحتلّة من وضعيّة الشيء المتخيّل إلى وضعيّة الشيء المنجز، وأن يصير، بذلك، الاحتلال مسألة إخضاع أعضاء وأجسام غريبة لإرادة المحتلّ. ولم تكن البلانتوقراطيّة ثمّ الاستعمار، من هذه الوجهة، مخابر متميّزة للحياة الجنسيّة فحسب، بل وأيضا طبيعة الشهوة لأيّ سلطة. وتقوم بتجربتها مختلف أشكال المتعة، والممارسة السّاديّة، ومختلف صور "التحرّر بالقفى"، أي على حساب الأضعف من الذّات نفسها. وهنا، تمثّلت الحريّة الجنسيّة قبل كلّ شيء في امتلاك الآخر وكأنّه كان بضاعة.

كان، في الواقع، من الممكن القطع، في المستعمرة، مع الفكرة القائلة بأنّ كبح الغرائز الجنسيّة في اللاوعي كانت إحدى الشّروط لبلوغ قناعات استبدال. ويسعى الدليل إلى إبراز بأنّ الموضوع لا ينشأ بالضرورة عند نقطة الالتقاء بين

الرّغبة والقانون المعيش كنمط من بين أنماط أخرى من القمع. فقد كان من الممكن العيش في غياب موانع وقيود أخرى، بل وحتى إشباع غرائز بعدم الأخذ بعين الاعتبار للمحرّمات. فعلى المستوى الفينومينولوجي البحت، أظهرت الأشكال الاستعماريّة للوحشيّة (سواء في مرحلة الاحتلال، أو التهدئة والتمكّن الحقيقي) نوعا من الرّغبة الجنسيّة المطلقة العنان، ومن نماذج من الغرائز (الجنسيّة، والسّاديّة)، كانت خاصيّتها القيام باستمرار بعمليّة الرجوع على النفس.

وهكذا، وقع استعمال المستعمرات كأرض غير متوقّعة لجميع من اندرجت لديه تجربة المتعة في حلم كبير، حلم الرضاء التّام عن الأعضاء التّناسليّة. وكان الكثير منهم في بحث عن قوّة من طبيعة الانتشاء، وهي نوع من القوّة التي لم تكن أبدا في حاجة إلى قاعدة رمزيّة، والتي بذلك لا يمكن أن تظلّ موجودة أمام اختصار الطريق لأنّها تنفي **مسبقا** كلّ إمكانيّة الاستدانة أو الذّنب. ففي هذه المناطق، يكون من المهمّ البحث عن ينابيع حاسمة للأشكال المعاصرة **لقدرة هزّة الجماع**، الأشكال التي تمثّل، وهي تتغذّى من مصادر الحيويّة الجديدة، المادّة الأوّليّة للليبيراليّة الجديدة.

ويمكن مع ذلك أن تكون مهمّة الجماع، في ظلّ المزرعة وكذلك المستعمرة، نشاطا جسديّا وخياليّا، إن كان كذلك، فلا يؤدّي في النّهاية إلّا إلى نفس الشيء - وهي استحالة المتعة المطلقة، الحارقة والمنصهرة. فهل يمكن أن نستنتج من ذلك بأنّ المشهد الجنسي غير قابل بطبعه إلى

التمثيل، وهو مجرّد اسم على حافة اللغة أو أيضا على طرف الشفاه؟ أو أنّ الرّجوع إلى المصدر والأصل، لا يوجد أبدا في الحقيقة، بما أنّه في نهاية الأمر، يكون الذّهاب للقاء ذاك المسيطر علينا بإحكام وتصوّرنا يعود بشكل صارم إلى الأسطورة؟

تطرح هذه الأسئلة لأسباب عديدة، وتعود أوّلها حتى إلى طبيعة المستعمرة. فما هي في الواقع المستعمرة إن لم تكن سوى فجوة غريبة وتناقض معقّد، كانت إحدى خصائصها توفير، لمن يرغب من النّساء والرّجال، زاويّة مباشرة تماما على الجنس، هذا المخيال العظيم لأشياء خاصيّتها إثارة الرغبة؟ وفي الواقع، نقع في الرّغبة مثلما نسقط في الشرك، من جسم إلى آخر - الظهور المفاجئ، وتولّي المراقبة المنحرفة أحيانا والسّاديّة أحيانا أخرى، والنقل بقوّة، وكلّ أنواع الكآبة المقترنة بالعدوانيّة، إلى العنصريّة والكراهيّة، بما فيها كراهيّة الذّات.

هكذا يكون الأمر لأنّ الاستعمار هو المعادلة بشراسة. والقيام بالعمل الشرس في المستعمرة، هو إقحام الاختلاف بشكل منهجي سواء في الحلية أو في مستحضرات تجميل الجسم، وفي الجسد، والأعصاب والأعضاء، وبصورة موجعة، حتى في بنية الخيال. فالكلّ يصدع بما فيه النّظر. وفي النّهاية، تكون إقامة قطيعة بين ما يُشاهد في الذّات للذّات، وما لا يجب أن يظهر في مجال الرؤية إلا في ظلّ وجه الآخر، أي جسم مدعوّ إلى مؤازرة متعة تتخطاه، وهي

ليست بالضّرورة متعته. ولأنّ المستعمرة هي الحفرة العميقة التي يظهر أنّ كلّ شيء أقيم حولها والتي يعبرها من ناحية أخرى هاجس معرفة خاصّة - معرفة في كلّ لحظة إلى من ينتمي ذلك الجنس التناسلي في تنوّع لا ينضب من الأجناس.

وبالتالي، تتميّز المستعمرات، فيما يتعلق بالجنس، عن بقيّة المشاهد على عدّة أصعدة. فمن ناحية، إنّها مكان لا يلتقي فيه الجنس إلّا في الفعل الجنسي. فهو، حسبما يُقال، في الغلاف الجوّي، مادّة قابلة للاشتعال ومصنع للاحتمالات. هل هو جهاز تناسلي للرّجل؟ هل هو جهاز تناسلي للمرأة؟ أم جهاز تناسلي يتخطى الاثنين، مثلما لدى قبائل الدوجون القديمة، تارة معلّقة في اللامحدود، وأخرى غارقة في منابع التوأمة؟ وفي الحقيقة، جنس- السلمون، وجنس- بفراء، وجنس- صائد للمحار، وانفصام بجنون العظمة، شرجي وسادي، وإن لزم الأمر، متعدّد الجوانب، فهو بالخصوص ليس على ملك أحد. وهو لا يتغيّر، في جانبه التناسلي وكذلك الرمزي، فقط، بل أنّه مبدئيّا منقسم حتى في الفعل الذي يمثّله في الرّغبة، بما في ذلك الحبّ الذي يشغله.

ومن ناحية أخرى، إن لم يظهر الجنس، في المستعمرة، إلّا في عمليّة الجماع، فلا يوجد، إذن، حسب قولة جاك لاكان، فعل جنسي بأتمّ معنى الكلمة، بل الكلّ، على العكس من ذلك، ممارسة جنسيّة. وفي الواقع، ليست المستعمرة بصحراء للمتعة.

وعلاوة على ذلك، ليس من النادر أن يختلط، في المستعمرة وكذلك في ظلّ نظام المزرعة، الإغواء بالانحراف. فالمستوطن، كقوّة صادمة، قادر على وضع أهدافه في سريره، واستنشاق أجسامهم، ورائحتهم، ثمّ، والقضيب منتفخ، يستمتع في لمح البصر، باستعمالهم وإبلالهم من تلوّثهم. وفي محاولة العودة إلى الجسم للحاجيات الأوّليّة للاستمتاع، بين ثنايا حفاظات الدلنتيل، والجوارب المزينة بشرابة، والحيوان المحشوّ، كان من الجميل أن يغرق "الزنجيّة" أو "الزنجي الغلام" بعديد المرادفات الصغيرة - برغوثتي الصغيرة، كاكالو، جمبريتي الورديّة الصغيرة، ضفدعتي، جاموستي أو علجومي - فإنّ الكثير من اللقاءات كانت فاشلة، ومتوارية، وليس ذلك بالضرورة لأنّ الآخر قد حمل قناعا أو قد اشترك، جوهريًا، في فراغ غير قابل للقياس. بل لأنّ الخطر أيضا لم يكن في المستعمرة أو في ظلّ نظام المزرعة بعيدا، وهو خطر "إنجاب الأطفال"، وخطر وجود "الطفل" في المخيال الاستعماري.

ربّما لم يكن فرانز فانون على خطأ، عندما أشار إلى أنّ المستوطن لا يستطيع الاستمتاع إلا كخنزير، وثعلب، وذئب، وكلب شرس، وكفأر عند الحاجة، والذي يريد الاعتقاد، بسبب البنية المنحرفة والعنصريّة للمستعمرة، بأنّ الزنجيّ ليس سوى فحل يصرخ مثلما يعيش، أي أنّه في مقام الإنسان المخصيّ. إذ أنّ المستعمرة هي أيضا بلد الشّبق. إنّ

عدم التحكّم في النفس، وفقدان البوصلة، وغمر الذّات، والإصابة بالجنس دون مراوغة - يمثل كلّ هذا دون شكّ جزءًا من إرادة المتعة الخالصة التي تسمح بمعاملة المُستعمر "بساديّة". ولبلوغ غاية انشطاره، وإلغاء حالة الكرب في العلاقة مع والدته ووالده، وتجاوز طفولته المسلوبة، ألم يكن المستوطن الشقيّ الصغير في شكل شخص راشد في حاجة إلى شرب الخمر، وإلى أن يتجشأ، وأن يمسح مؤخرته وأن يؤنّب، أي أن يجد جسد الطفل الذي كان عليه، والذي يريد الرّجوع إليه، فيرسم بعمق في الزنجيّ صورته الشخصيّة في المرآة؟

يجب إذن الابتعاد عن بعض الأساطير. إنّ المستعمرة، في الأمور الجنسيّة، هي بلد الفروقات المرفوضة والتحالفات المفروزة، والمزج بين اللغات واللهجات. فلا مكان هنا للإثارة الجنسيّة. فالآخر هو جنس تؤجج مشاهدته لا محالة عوامل الإثارة. فنذهب إليها بحثا عن المتعة. وفي النهاية، إنّ التمتّع هو الاستمتاع. ويمرّ الاستمتاع بالضرورة عبر الآخر. ولا يهمّ أن تظلّ الأعضاء التناسليّة ذات مظهر حيواني أم لا، إذ ليس أحيانا لجميع التوظيفات التي تجعل من جسم الآخر من هدف آخر سوى تهذيب الذّات إلى أجل غير مسمّى.

وعلى أيّ حال، لا تسبق المستعمرة شيئا. فليس ما يسبق المستعمرة جزءا من مرحلة ما قبل العلاقة الجنسيّة. فقد كان تعاطي الجنس موجودا قبل المستعمرة. إذ برزت هذه الأخيرة في صلب ما كان **موجودا بعد هناك** – سكّان من

كائنات، وتركيبة جسديّة قديمة ببطنها، وثدييها، وفمها وجواهرها، وآليات هيكلة نفسيّة وجنسيّة للاوعي الذي لا يعود إلى الخصي ولا إلى الرغبة في القضيب التناسلي أو إلى عقدة أوديب. فقد كانت هنالك رموز أخرى، ابتداء من حظر ارتكاب المحارم. إنّه عالم خياليّ أيضا مع فرجه القضيبي وقضيبه الفرجي، والتوأمة، والفضاء المنفتح ودون أطراف لوحة، وبإيجاز المحتوى في الحاوي، وجدليّة الاختلاف والتكامل.

غير أنّه بظهور المستعمرة، وقع على الأقل حدثان. أوّلا، تنتقل إلى حدّ كبير الأماكن التي يتمّ فيها الفعل الجنسي - بمحيطه ومحتواه - وتزداد قوّته عشرة أضعاف، نتيجة العُصاب النفسي البورجوازي والبدائيّة الفارة. ومن ناحية أخرى، لم يعد ممكنا الهروب من الجهاز الجنسي للآخر، ومن لغته وشفاهه وبذوره، المعتبرة كجوهرة. وفي نفس الوقت، تتغيّر المعطيات التي نعيش بها الحياة الجنسيّة مثل التصوّرات والخيالات المؤازرة للممارسات الجنسيّة. ووجب على الفاعل، أكثر من أيّ وقت مضى، أن يواجه نقيصته.

ومن هذه الوجهة، مثّل الاستعمار أعظم لحظة للتّدخّل والانقسام والسّيطرة على الكائن الحيّ. وإن كان من المحتمل أن تفتح هذه القبضة الطريق للخسارة. إذ ليس هذا لا محالة كلّ شيء، وليس هذا فقط. فهي أيضا مناسبة لزخرفة الأساطير وإثارة الحكايات، ووضع دلالات جديدة عن

الأجسام ومزج الصّور التي نتمنّى فتح نافذة على الآخر من خلال الحجاب الذي يخفيه. وفجأة، يجب، لبلوغ الجسد وجعله ركيزة ثوابت الشّهوة الجنسيّة، تعريّته. ويستوجب ذلك الذّهاب مباشرة إلى التعريّة، ومواجهة العرى، وذلك دون أن يكون هنالك أيّ حضور وأن لا تكون هنالك أيّ نقيصة.

والخلاصة، لا يوجد توظيف للحياة الجنسيّة في الوضع الاستعماري سوى المتعة للشيء، و**القضيب** ليس الكلّ في الرغبة. ولا يعود كلّ شيء للثقب وللاقتطاع الجنسي. وتظلّ القدرة على إبداء المشاعر، والحصول على مرفقات، وإبراز المحبّة، حتى وإن ظهرت، بسبب البنية العنصريّة للمستعمرة، بطريقة واضحة في شكل مبهم. ويبقى خطر العزل، **أن لا تكون سوى هذا**، حاضرا كليّا.

وللوهلة الأولى، فالمسألة هي معرفة كيف يمكن المرور عبر الخيال، ولكن دون المكوث فيه. وكيف الفرار من شفاه ونواة الآخر، منذ أن أصبحت ما يبرزه الفاعل الجنسي من الآن فصاعدا، ويلج مستقبلا، بمساعدة هذا الأخير (أو هذه الأخيرة)، في الحياة؟ إنّه بالتّراجع عن الذّات، أبعد من تلامس البشرة بالبشرة، وبالعثور عن جزء من الذّات في الكائن - أي الكائن في الآخر؛ فلا يكون الكائن دون الآخر.

ومثلما لاحظ فرانز فانون، هنالك، في الوضع الاستعماري، اتصال نادر من شخص إلى آخر. وعلى عكس ذلك، يسود الاتصال الفردي بين الفرد وحريمه من الأشياء.

وهذا مفيد على مستوى الحياة الجنسيّة. ولا يظهر العدد الوفير من النسوة، اللاتي يُجلدن باستمرار بقضيب نهم، واللاتي يسكنّ في الصّور المجموعة في كتاب **الجنس، والعرق والمستعمرة**، كمواضيع مشطوبة، في مرآة. فهنّ في كلّ مرّة مدعوّات إلى أن يصبحن في الصّورة إلا ليلحظن، بما فيه الكفاية، اختفاءهنّ الذّاتي، إذ أنّ ما تحتفي به هذه الصّور، هو القضيب الباحث ولحظته عن الغطس، ومشهد الهيمنة الاستعماريّة المصنوعة من الهيمنة التناسليّة، جامعة بذلك الذّكريّة والعنصريّة. ولم تكن، في معظم الأحيان، سوى فراغ، وكائنات من لحم في خدمة شخص آخر، وأجسام مرتّبة في تسلسل، وتوافقات تناسليّة. وتكون بالخصوص حجّة على أنّ "الرّجل الأبيض"، هو التصوّر الخيالي للقوّة في أرض غريبة، لا يوجد إلّا بإحالة ساديّة، المهدّدة بالجنون والانحراف كلّ مرّة يكون فيها معرّضا للآخرين. فكان الاحتلال الاستعماري إذن حدثا مرئيّا وكذلك عربدة للحواسّ والمشاعر.

القضيب

وأخيرا، ما زال تاريخ الحياة الجنسيّة في إفريقيا لم يكتب بعد[6]. وإن وقع كتابته، فسوف لنْ يكون تاريخا

---

(6) انظر حديث Elsa Dorlin, «Décoloniser les structures psychiques du pouvoir», *Mouvements*, nº 51, 2003, p. 142-151.

مكرّرا، ولا حتى بالضرورة مختلفا، بالرّغم من وجود هذا الاختلاف، ولكنّه تاريخ التوأمة والشّذوذ، والبهجة والعيد(7). وسيكون بالضّرورة تاريخا يتجاوز الواجبات النّاشئة لإظهار التناقض بصفة أفضل(8). وسيكون صراعًا بين الفاعل وجسده - صراع يكون رهانه، في كلّ مرّة، تدشين إمكانيّات تعبيريّة جديدة، وإبراز خصائص، عن طريق التأليف(9).

وفي الواقع، حاولنا فعلا جعل الكائن البشري مادّة. فهنالك دوما شيء ما من إنسانيّته لا يخضع إلى ذلك التقزيم الموضعي وتلك الرّغبة التجسيديّة. ويمكن إلزام الأفراد على الصّمت، ولكنهم قادرون أيضا، من خلال نظراتهم، على التعبير بحركة، ورسم كلمة صامتة، والتي مع ذلك تستوجبها. ويمكن لأجسامهم أن تُعرض كنصب تذكاري أو كديكور، ولكنّ الأنا الخاص بهم يفرّ عن الفرجة. فالجسد هنا، ولكنّ الأنا في مكان آخر. وكانت خاصيّة العنف الاستعماري في فصل الأنا عن مظاهره، وفي إرغام المُهيمن عليه على أن لا يظهر أبدا إلا في هيئة الغائب، والمجوّف والفارغ. وفي هذا الفراغ تأتي العنصريّة وعالمها من التخيّلات لكي تستقرّ.

---

(7) Edward Evan Evans-Pritchard, «L'inversion sexuelle chez les Azandé» (1970), *Politique africaine*, nº 126, 2012, p. 109-119.

(8) Mariane Ferme, *The Underneath of Things: Violence, History, and the Everyday in Sierra Leone*, University of California Press, Berkeley, 2001.

(9) James Fernandez, *Bwiti: An Ethnography of the Religious Imagination in Africa*, Princeton University Press, Princeton, 1982.

واتضح أنّ وضع القضيب في المخيال الإفريقي، أو على الأقلّ في فنّ ونحت الشعوب الإفريقيّة يوفّر العديد من الصّور الشبيهة بـالقضيب الإغريقي. وفي جميع الحالات، وكموضوع نحت، يتحدّد القضيب، هنا، وقبل كلّ شيء، بقوّة فرض الذّات العظيمة[10]. وهو، من وجهة نظر الأنثروبولوجيا والفينومينولوجيا، ما يربطه عن كثب بالسّلطة، المصمّمة بدورها كمحاكمة، مدرجة أمام القضاء.

ينتج عن ذلك أنّ السلطة، هنا، ليست فقط متمكّنة من قضيب يعمل كشعار وزينة لها. فالسّلطة هي القضيب. والقضيب هو الوكيل الرئيسي لتلك العمليّة للركوب[11]. ويزعم هذا الوكيل الرئيسي العمل كمصدر للحركة والطاقة. فهو يعمل على طريقة فاعل يبحث عن وطئ كلّ شيء. ولذلك، فهو محكوم عليه يلعب الألعاب البهلوانيّة باستمرار، في الحلبة. ومن هنا، هذا الخليط من العنف والكوميديا الذي تناوله جزء من الأدب المعاصر. فالنّزعة القضيبيّة، من هذه الوجهة، هي بعد من أبعاد الوحشيّة[12]. وهي أساسا تشكيلة للسلطة، وسلسلة من الأجهزة القانونيّة، والجسديّة

---

(10) Arthur Bourgeois, «Yaka masks and sexual imagery», *African Arts*, vol. 15, nº 2, 1982.

(11) Sony Labou Tansi, *La Vie et demie*, Seuil, Paris, 1979 et *L'état honteux*, Seuil, Paris, 1981. Voir également Samy Tchak, *Place des fêtes*, Gallimard, Paris, 2001.

(12) Parfait Akana, «Notes sur la dénudation publique du corps féminin au Cameroun», *L'Autre*, vol. 14, nº 2, 2013, p. 236-243.

والنفسيّة، التي تعمل على قاعدة المعتقد القائل بأنّه في القضيب (وإذن في الذّكوري) يحدث شيء ما؛ ففي القضيب وبه يوجد **الحدث**، وفي الحقيقة، إنّ القضيب هو الحدث.

وفي النّهاية، فإنّ الإيمان القائل بانّ السلطة هي الجهد الذي يقوم به **القضيب** حول نفسه حتى يصبح صورة، هو أساس الوحشيّة. ويواصل هذا الإيمان مثل ما هو غير منطوق، ومثل القبو، بل وكذلك أفق حداثتنا، حتى وإن كان القليل منهم لا يريدون سماعها. كذلك الأمر بالنسبة إلى العقيدة القائلة بأنّ القضيب ليس قضيبا في الحركة التي يبحث من خلالها على التنصّل من الجسد والحصول على استقلاليّة خاصّة. وبهذه المحاولة للفرار، وبالأحرى هذا الدّفع المنتج للتشنّجات، تكون النّزعة القضيبيّة قد تخلّت فعلا من ناحية أخرى عن هويّتها بهذا التدافع، هذا العنف المتشنّج.

أوضحنا في موقع آخر، كيف لا تقوم، في ظروف ما بعد الاستعمار، التشنجات والعنف الذي من خلاله نعتقد معرفة وتحديد السلطة واهتزازاتها، إلّا برسم الحجم الأجوف والمسطّح لنفس هذه السلطة[13]. إذ جميل أن يتمدّد القضيب، فإنّ هذا التمدّد متبوع دائما بتقلّص وإسراف، وبسخط. وعلاوة على ذلك، فقد قيل، في ظروف ما بعد الاستعمار، بأنّ السلطة التي تجعل التابع يصرخ والتي تنتزع من صدره صرخات مستمرّة قد لا تكون سوى سلطة متزوّجة

---

(13) A. Mbembe, *De la postcolonie, op. cit.*

بوحشها - بعقليّة-الكلب، وعقليّة-الخنزير، وعقليّة- الوغد. فلا يمكن أن يتعلّق الأمر إلّا بسلطة حاصلة على مواد جسديّة، وهيكل يكون فيه القضيب المظهر الوهّاج وكذلك المساحة القاتمة. ولا يمكن للسّلطة أن تكون **قضيبا** بالمعنى الذي كنّا حدّدناه، أن تُطرح على رعاياها إلّا مغطاة بجمجمة ميّت. وهذه الجمجمة هي التي تجعلهم يطلقون مثل تلك الصّرخات وتجعل من حياتهم حياة شبه حيوانيّة.

نعرف، مثلا، كيف أنّ الإعدام عمدا دون سابق وجه "للرجال السّود" في جنوب الولايات المتّحدة زمن العبوديّة وبُعيْد الإعلان عن التحرّر، يعود في الأصل جزئيّا إلى الرّغبة في خصيهم. ولقد استولى الرّعب على "الأبيض البسيط" والمزارع، وهما قلقان من موضوع قدرتهما الجنسيّة، عند التفكير في "السيف الأسود" الذي لا يخافون حجمه المفترض فقط، بل وأيضا جوهر الاختراق والهجوم. ففي الملحمة الفاحشة المتمثلة في الإعدام عمدا دون وجه حقّ، وقع البحث إذن عن حماية النقاوة المزعومة للمرأة البيضاء بمسك الزنجي في ذروة وفاته[14]. وأرادوا جرّه إلى تأمّل الانقراض وسواده لما اعتبروه، في المخيال العصري، مثل "شمسه السّاميّة"، أي **قضيبه**. ويجب أن يمرّ تمزّق رجولته بتغيير أعضائه التّناسليّة في ميدان خرب - وانفصالها عن قوى

(14) Hazel Carby, «On the threshold of woman's era: Lynching, empire, and sexuality in Black feminist theory», *Critical Inquiry*, vol. 12, nº 1, 1985, p. 262-277.

الحياة. ذلك لأنّ الزنجي، مثلما يقول فانون، غير موجود في هذا الترتيب. أو بالأحرى، فإنّ الزنجيّ قبل كلّ شيء **عضو**.

لم يكن إفراط الاستثمار في الفحولة، كمورد رمزي وسياسي فقط، تأثيرا تاريخيّا لتقنيات التجرّد من الإنسانيّة وفقدان الرجولة التي ميّزت نظام المزرعة في ظلّ العبوديّة أو الحكومة الاستعماريّة. وهذا الإفراط في الاستثمار جزء من الحياة لأيّ شكل من السّلطة، بما فيها الديمقراطيّات الليبيراليّة. ذلك هو بالفعل النشاط الخام للسلطة عموما، ممّا يوفّر لها سرعتها، وبالتالي عنفها. وتمثّل الفحولة الخطّ الفاصل للسلطة عموما، ومنطقتها المحمومة.

يكفي، في هذا الشأن، أن نلاحظ بعناية ما يحدث اليوم. ففي الوقت الذي يريد فيه بعضهم إقناعنا بأنّ "الإسلام-الفاشي" خطر من بين جميع المخاطر، ألم تكن الحروب التي نعيشها ضدّ البلدان الإسلاميّة بمثابة لحظات "قذف" تنتج عنها قيمتها النموذجيّة، بحكم أنّ هذه العمليّة للقذف تتمّ تجديدا على منوال انتصاب العضو التّناسلي الذّكوري، على أن تلعب، في هذا الصّدد، التكنولوجيات المتطوّرة دور مواد الاعتداء التي تجعل الجماع بطريقة ما ممكنا - هي القوميّة العنصريّة؟

أليست هذه الحروب، إلى حدّ كبير، بغرض الحقائب الماليّة - التي يجب أن نفهم منها منطق الذّهاب إلى القتال حتى الموت (الحرب تحديدا) بمنطق الرّبح؟ أوليس كلّ

قصف على ارتفاعات عاليّة، وكلّ حصّة تعذيب في السّجون السّريّة لأوروبا وفي أماكن أخرى، وكلّ قذف موجّه بالليزر، مظهرا من النشوة الجنسيّة الرّجولية، حيث يقوم الغرب بتنظيف نفسه، جاعلا من تدمير دول معتبرة عدوّة قدوة للمتعة حتى في عصر التكنولوجيات المتقدّمة؟ كيف نفهم غير ذلك هذا السكر للتدمير، والفجور الهائل المرافق له، ومواكب المجالس الخمريّة، والاغتصاب وطقوس العربدة، والهتك والبذاءات[15]؟

يكون من السّذاجة التساؤل حول وظائف الحروب المعاصرة واقتصادها السّياسي بتجاهل الإثارة الجنسيّة العنصريّة والذّكوريّة التي تزيّنها، والتي تكون المؤسس الأساسي لها، أو إخفاء جوهرها الدّيني-الإباحي. وهنالك في العنف دون هدف ولا سبب الذي يطبع عصرنا، طريقة لعكس الخيال الرجولي والرّغبة المنحرفة، التي قد يكون من الخطأ الاستخفاف بها. ويعتمد إنتاج القوميّة العنصريّة في عصر الليبيراليّة الجديدة، هو أيضا، على عدّة أطياف أنثويّة. ويوجد دوما ضمنيّا لهذه الأطياف "الأب"، أي ذلك الذي كان، لوحده، يتمتّع بوضعيّة أوّل "مزارع" (سلطة الإنجاب والتخصيب). ومع ذلك، فإنّ ثقافة الليبيراليّة الجديدة مهووسة بصورة الأب صاحب المحارم المسكون برغبة استهلاك أمته

(15) Marnia Lazreg, *Torture and the Twilight of Empire: From Algiers to Baghdad*, Princeton University Press, Princeton, 2008.

أو غلامه، أو بدمج فتياته بجسمه الشخصي، بهدف استعمالهنّ كتتمّة للمكانة الفاشلة للإنسان.

يرجع الأسلوب العنيف لمرجعيّة القضيب والاستثمار في الأنوثة والأمومة إلى تحديد المتعة الجنسيّة في سياق سياسة علمانيّة للبهجة. ولكن الطريقة التي تلتمس بها السلطة بلا هوادة الجسد (جسد الرّجال وجسد النّساء أيضا) والبشاعة، تعتني به وتخترقه، وتحدّده كمنطقة شاسعة مخصّصة لإشباع وحشو كلّ أنواع الغرائز، يكون موسوما بالوحشيّة. وواضح أنّ لا شيء له "خاصيّة إفريقيّة"، إن اعتبرنا، بهذه العبارة الجدليّة، القوّة الظلاميّة والمريضة نفسيّا، المُسوّرة في زمن ما قبل الأخلاق، وما قبل السّياسة، وما قبل الحداثة نوعا ما، وبإيجاز، عالم منفصل.

وعلاوة على ذلك، فإنّ اللافت للنظر في إفريقيا، هي الثورة الرّمزيّة العظيمة في العلاقة بالجسد والجنس. فالجسد والجنس هما مبدئيّا بصيغة الجمع. وهما، مثل البقيّة تقريبا، نتيجة عمليّة تنضيد وجمع. ويأخذ الاختلاف الجنسي بالأساس شكلا، انطلاقا من كلّ أنواع الغموض، والتقلّبات والتحوّلات، وهي لا تعني سوى القليل، خارج هذا المجال من التناقضات. وينفتح الجسد وكذلك الحياة الجنسيّة خارج السلطة دائما على مجال التّشتّت، وإذن التناقض. وفي هذا الميدان، مثلما في ميدان الفنّ وخاصة الموسيقى، كان منطق الدّلالات غير المرتقبة، هو المهيمن.

ليس الجسد لدينا بالبسيط، بل نعيش جسدنا. ومن الأفضل كرمز للتناقض المطلق - تناقض الرّمز مثلما ما هو يحرّر تحديدا الرّغبة، ويبعدها عن شباك السلطة التي تحاول استعمارها. ولهذا السّبب لم يكن الجسد والجنس المعيشان جسدا وجنسا إلّا بقدر ما ينفتحان على جميع أشكال القدرات التعبيريّة، إلى التفرّد. ويكفي أن ننظر كيف يلبس الأفارقة، وكيف يستعملون الزّينة وكيف يرقصون. وكيف التأكّد من أنّ هذه القدرات التعبيريّة لا تخضع للغة الحاجيات المستحدثة والرّغبات المتلاعب بها (قانون رأس المال)؟ أم أنّه أيضا تواصل إظهار حتميّة الحياة في مواجهة جميع أشكال المخاطر التي تهدف إلى تدميرها بعدما خفّضت من قيمة معناها؟ تلك هي القضايا الموضوعيّة.

فهي أهمّ بكثير من التلاعب، في الغرب، بموضوع احترام النساء بدافع الدّفاع عن أي تفوّق ثقافي. ومثلما هو الأمر في الفترة الاستعماريّة، ساهم التأويل المهين للطريقة التي يعامل بها الزنجي أو المسلم "نساءه" بخليط من استراق النظر، والرّعب والرّغبة - الرّغبة في الحريم. فالتلاعب بمسائل النوع لأهداف عنصريّة، عن طريق تسليط الضوء على الهيمنة الذّكوريّة لدى الآخر، ترمي دائما تقريبا إلى إخفاء واقع نزعة الرجولة في الذات.

بقي معاينة الطريقة التي أثّرت بها الأزمات المتتالية للرّبع الأخير من القرن العشرين الإفريقي بمختلف الطرق على العلاقات بين الرّجال والنّساء، ثمّ بين الكبار

الاجتماعيين والصّغار الاجتماعيين. وساهمت، في بعض الحالات، في توسيع عدم المساواة الموجودة بعد بين الجنسين. وأدّت، في حالات أخرى، إلى تغيير عميق للشروط العامّة فيما تعبّر به من الآن فصاعدا عن نفسها الهيمنة الذّكوريّة والنسائيّة.

ومن بين الفئات الأكثر فقرا من السّكان، تعرّضت وضعيّة رئيس العائلة، التي يديرها عموما الرّجال، إلى تدنّ واضح، خاصة وأنّه لا يمكن ممارسة القدرة على توفير الغذاء كليّا بسبب ضعف الإمكانيات الماديّة. وفتحت مرحلة الصّراعات الجديدة للذخيرة الناجمة عن الأزمة والتّقشف، بشكل متناقض، إمكانيات الحراك لعدد قليل الارتفاع نسبيّا، ولكنّه مؤثّر، من النّسوة، خاصّة في بعض الدّوائر غير الرّسميّة. وتزامنت هذه القدرات المتزايدة على الحركة مع الملاحظة المتجدّدة للامتيازات الذّكوريّة وتعاظم العنف بين الجنسين.

لقد أدّت هذه التّحوّلات، بدورها، إلى نتيجتين أساسيّتين. من ناحية، اهتزّت بقوّة إحدى ركائز الهيمنة الذّكوريّة، بمعنى مفهوم المديونيّة العائليّة وأمست من الآن فصاعدا محلّ نزاع. وبالفعل، أقيمت حول هذا المفهوم، إلى هذا الحين، علاقة بين الرّجال والنّساء وعلاقة الرّجال بالأطفال في صلب العائلة. وكانت، فعلا، حجر الزّاوية لمنظومات مذاهب الرّجولة الإفريقيّة هي فكرة مديونيّة الأبناء إزاء الآباء وفكرة التكامل وعدم المساواة بين الرّجال

والنّساء. وتتأتى العلاقة بين الرّجل والمرأة في صلب العائلة من منطق ركيزتين، إحداهما للتّملّك، والأخرى للاستعمال المتبادل بين من هم غير متساوين. وتتمثّل المهمّة الذّكوريّة، إزاء المرأة وكذلك إزاء الطفل، في التغذيّة، والحماية والتّوجيه، وفي مقابل ذلك، ترتكز ممارسة الهيمنة على التمييز في المواريث. ولكن، ترتكز الهيمنة السّياسيّة، إلى حدّ كبير، **وبالمعنى الدّقيق**، على نفس تلك الأطر الإيديولوجيّة التي تشمل بها الدّائرة المدنيّة والعسكريّة، حيث يلعب من هم في "أعلى المراتب" نفس المهام إزاء تابعيهم، ويتمتّعون بنفس صفات الأب في كنف الوحدة العائليّة. ويمسّ مسار التخلّص من الرّجولة جميع الخاضعين، إذ تصبح متعة هيمنة الذّكر الفعليّة الامتياز الحصري لبعضهم، على الأقلّ في المجال السّياسي.

ومهما كان الأمر، تعرّض القضيب، كدلالة مركزيّة للسّلطة وامتياز للهيمنة الذّكوريّة، في الرّبع الأخير من القرن العشرين، إلى تساؤلات عميقة. ووقع التّعبير عن هذا النّزاع في أوجه مختلفة، أخذ بعضها شكل عدم استقرار عائلي وتنقّل مزمن نسبيّا للنساء من مكان إلى آخر. ووقع التّعبير عن أخرى في شكل ذعر حضري وُجد فيه الخوف من الخصي. ومن المسلّم به، أن يواصل القضيب تمثيل رمز تفاضليّ بالأساس. غير أنّ مهامه الأوّليّة الكثيرة الضبابيّة إلى درجة أنّنا نشاهد فقدان رجولة الصّغار الاجتماعيين، تكون تحت تأثير قوى مختلفة.

مجتمعات الاستمناء باليد ورغبة القذف

تؤسّس النزعة الأبويّة والاستعماريّة نفس الشريحة واللحمة الوحيدة. فالواحدة منهما هي شرط أرجحية الأخرى. تلك هي الحالة بالفعل في صلب مجتمعات الاستمناء باليد. وتنتظم مجتمعات الاستمناء باليد حول دافع مركزي، وهو الدّفاع عن المادّة المنويّة، وهي مدفوعة برغبة القذف. أمّا بالنسبة إلى النّظام الأبوي، فيمكن تأويله كجهاز يمنح للنطفة وضعيّتها الاستثنائيّة والتي تحدّد الشروط الممكن أن تُستهلك فيها، وداخل أيّ خزّان يمكن أن تُوضع فيه بصفة شرعيّة، ممّا يجعلها لا تكون مجرّد ميدان القمامة، كذلك الهدف النّهائي للصّرف.

يحافظ النّظام الأبوي، من وجهة النّظر هذه، كجهاز سلطة وإيديولوجيّة بامتياز لمجتمع الاستمناء باليد، على علاقة أساسيّة مع ادخار القذف. وهذا الأخير هو نتاج الإثارة. والقذف يعني نشر المادّة المنويّة، الناتجة عن الإثارة، والاحتكاك والاحتراق الذي بدونها لا يتمّ الإحساس، ولا السائل المنوي المفرز والمتحرّر[16]. ومن ناحيّته، يُستعمل السائل المنوي كبضاعة ثمينة مُتحصّل عليها كما هي، والتي تكون مهمّتها جلب الحياة، ووضع هذه الأخيرة في المدى الزمني بتوفير الخلف وجعل السلالة

---

(16) Gaston Bachelard, *La Psychanalyse du feu*, Gallimard, Paris, 1949 [1938], p. 54-55.

ممكنة. وعن طريق إنتاج هذا المصدر المعتبر حيويّا، تحصل السلطة الأبويّة على حصانتها الذّاتيّة، وتبحث في الفرار من التدنيس والاحتماء ضدّ الرّجس. ولا يعود أبدا استخراج النطفة، العاملة في ظروف مناسبة، إلى استخراج المحرّمات.

وفي مجتمعات الاستمناء، يمثّل النّظام الأبوي من ناحية أخرى شكلا إن لم يكن متكاملا، يكون على الأقلّ مستفحلا بالرّغبة النّرجسيّة. فالقذف، في مجتمعات الاستمناء - والسلطة الأبويّة - هي إحدى هذه الرّغبات. وتظهر هذه الرّغبة بأوجه مختلفة. وفي جميع الحالات، تكون هذه الرّغبة مصدر نشاط خيالي مكثّف. تثير، باستهلاكها أم لا، الخيال. والمساهمة في الخيال هي أحد أسباب استمراريّة السلطة الأبويّة، وكذلك الرأسماليّة، المنتظمة هي أيضا حول نبض القذف. وفي الحالة الأخيرة، يكون القذف عامل استمناء بجلد عميرة[17]. وفتحت الأحكام الرّقميّة الجديدة الطريق ويسّرت تقاربا غير مسبوق بين القذف والرّغبة البصريّة. ولا يكفي "القيام بذلك" في السّرّ. بل يجب أن يكون ذلك مرئيّا من قبل النّفس، ومن المتفرّج، من الأفضل من خلال ثقب صغير، مهما كان. ففي حالة المتفرّج، لا تتطلّب المشاهدة أبدا حضورا مشتركا. ويمكن مشاهدة كلّ شيء دون أن نكون موجودين هنالك. فالشيء الوحيد الذي يُحتسب هو أمل

---

(17) حول الطريقة التي تناول بها الفنّ عمليّة الاستمناء بجلد عميرة، انظر:
Céline Cadaureille, «Jeux de mains.. jeux de vilains. La masturbation dans l'œuvre de P. Meste, de V. Acconci et de P. Sorin», *SEXES à bras-le-corps*, nº 112, 2012, p. 36-39.

الإثارة. وهو ما يجعل ممكنا الإثارة الذّاتيّة عن طريق التّصوّر والخيال. فالإنتاج المكثّف لأجساد ذكوريّة راغبة في الإثارة، وباحثة عن القذف، عن طريق ملامسات استثنائيّة هو دون شكّ إحدى التحوّلات الأساسيّة للنّظام الأبوي في بداية هذا القرن. فلم يعد النّظام الأبوي في حاجة، إلى حدّ كبير، للنّساء لتكاثفه على نطاق واسع. ويكفيه التّلامس، والمداعبة والإثارة الشّخصيّة، فأصبح الخيال مؤسسة في حدّ ذاته.

وصارت التغايريّة، في نفس الوقت، محلّ مراجعة جذريّة. فصرنا نتقدّم دون رجعة نحو مرحلة جنسيّة جديدة لا تصير ثنائيّة تصنيف الجنسين سوى ذكرى قصيّة. وبالفعل، لم تتوقّف المرونة والتّنوّع بين الجنسين من غزو للمجال. وكذلك الأمر بالنسبة إلى شبكة الممارسة الجنسيّة في صدى مع "القرصنة" السائرة للأجناس[18]. وكانت البيئة المنزليّة، المُهيمن عليها فيما مضى من قبل العائلة الكلاسيكيّة، محلّ إعادة تشكيل عميق. فمن جانب الأب، والأمّ، والأطفال، نجد فيهم مجموعة من الفاعلين المتكوّنين من جميع الرّغبات المختلفة، وهي أزواج في البيت، خاملين ومعزولين؛ ورجال ونساء لهم توجّهات التحوّل الجنسي والمثليّة التي سبرها البعض منهم وآخرون لم يستكشفوها. ونجد فيهم أيضا

(18) انظر على سبيل المثال:
Beatriz Preciado, Testo Junkie. *Sexe, drogue et biopolitique*, Grasset, Paris, 2008, puis *Pornotopie. Playboy et l'invention de la sexualité multimédia,* Flammarion, Paris, 2011, et, surtout, Paul B. Preciado, *Manifeste contra-sexuel,* Balland, Paris, 2000.

السحاقيات والمثليات بهويّة ذكوريّة مع أو دون شركاء، وزوجات كلاسيكيات بهويّة ذكوريّة، وفاعلون آخرون تخلوا عن كلّ نشاط جنسي خلال فترات مغايرة.

إنّ الفترة هي فترة التجارة غير المشروعة للدّلالات الجنسيّة. وتمرّ هذه التّجارة المحرّمة عبر فعاليّات: "كان على أربع، وثقب مؤخّرته مفتوح أمام عدسة الكاميرا. وترسم يد بقفاز ونظيفة وتنحت بعناية شمسا سوداء حول ثقبه بمساعدة آلة للوشم [...]. إنّه مجرّد من الثّياب. وقد شوّه قضيبه وخصيتيه جهاز للتعذيب الجيني دقيق بحقن سائل غير سام (محلول ملحي). وتشبه أجزاؤه التّناسليّة التي تفيض وتهتزّ بين قدميه أكثر إلى نوع من رحم خارجي على أن يكون عضوا ذكوريّا. فقضيبه متورّم دون أن يكون في حالة انتصاب. وهو ممتلئ ولكن دون حيوانات منويّة. وعوضا عن القذف، يحصل على قذف اصطناعي ومحتسب من الحقنة. فيكون عضوه الجنسي ضمادًا للجنس. ولديه أربطة حاملات ويسير على كعبين عاليين. ويمشي بأناة، وببطء شديد، وكأنّه سيسقط عند كلّ خطوة. وتمّ ارفاق قضيبين اصطناعيين على كعبيه مثل المهمازين للخيل. وقد ربطهما بساقيه. ويتدليان حول حذائه مثل الكعبين الرّخوين والثانويين"[19].

ويمرّ الإتجار بالدلالات الجنسيّة أيضا عبر حصص من الوشم حول الأجهزة التّناسليّة. فلا تحتلّ هنا أبدا الرّغبة في

---

(19) P. B. Preciado, *Manifeste contra-sexuel, op. cit.*

القذف والاستمناء الخاصّة بمجتمعات الاستمناء باليد مكانا مركزيّا. ولا الانتصاب أيضا. فيكون السائل المنوي متسللا، وشبه محيّد. ولا يوجد أيّ فرج في الأفق. ويقع بلوغ ذروة النّشوة باللجوء إلى شبكة من التقنيّات والمواد وبسلسلة من ممارسات مختلفة الأسماء. إنّها حالة "اللعب الذّاتي بالقضيب الاصطناعي" (أو "النّيك الذاتي" الشرجي)[20]. ويتطلّب اللعب الذّاتي بالقضيب الاصطناعي أجهزة، وهي مضخّة للغسيل الشرجي، وزوج من الأحذية بكعبين عاليين، وقضيبان اصطناعيان، واحد صغير وصلب وآخر أكبر ورخو، وحبلان، وكرسي ذو ذراعين.

وفي **البوتو** (ممارسة رقص ظهرت في اليابان في فجر سنوات 1950)، يتعلّم الرّاقص إطلاق العنان لنفسه. ومثل جميع الممارسات الشعائريّة الإفريقيّة، فإنّ الأمر يتعلّق بالقيام بتجربة التحوّل. فالـ**بوتو** ليس بطقوس التّملّك. وكان الهدف عند الفاعليّة هو ترك الذّات، والدّفع بها في وضعيّة "تصوّر ستجعل من الرّاقص الصّخرة أو الشّجرة، والجنين أو الشيخ، والقضيب أو الرّحم، والأسود أو الأبيض"[21]. وأن يُفرغ، ويتجزّأ، ويتضاعف، حسب التحوّلات، ذلك هو الهدف. وفي هذه الحالة مثلما في ممارسات اللعب الذّاتي بالقضيب

---

(20) Virginie Despentes, *Baise-moi*, J'ai lu, Paris, 1993.

(21) انظر:

Denis Sanglard, «Buto et sadomasochisme: Sade6412, un solo obscène et critique», *SEXE à bras-le-corps*, nº 112, 2012, p. 12.

الاصطناعي، هنالك تصوّر آخر للجسم في طور العمل. فتكون الذّكوريّة محرومة رمزيّا من سيادتها. ولم نعد إطلاقا أمام أجسام القذف، إذ تساهم هذه الأخيرة في مصادرة قوّة الإنجاب للنّساء. ولم يعد الأمر لا أكثر متعلّقا بالجسم الأبوي-الاستعماري، فقد قام هذا الأخير على تحويل عمل جسم الزّنجي أو جسم المُستعمر عموما إلى قوّة. إنّ الانحطاط/والتجريد عن الأهليّة للجسد الأبوي-الاستعماري، أو أيضا تضخّمه في النّظام الليبيرالي الجديد والاستمناء باليد ربّما لا يرمز إلى الفحولة، ولا إلى نهاية "الرّغبة في القضيب" كما هو. ولكنها ربّما تنذر بوضعها موضع **الأقليّة** مستقبلا. ويساهم، في المقابل، الذّعر التناسلي الذي يتبع، في روايات النهاية الخاصّة بالعصر.

لا نزال بحاجة، في نفس الحركة، إلى مراعاة اعتبارات العرق والطبقة والفحولة المتأصّلة في بعض التقاليد النسويّة للنساء البيض[22]. فكيف يكون، على سبيل المثال، احتساب الأنوثة الرجوليّة البيضاء في علاقاتها مع رجال من أعراق أخرى[23]؟ وهذا هو حال الجنديات البيض أو النّساء في موقع سلطة اللاتي عاملن بقسوة المساجين الملوّنين،

---

(22) Kelly Oliver, «Women: The secret weapon of modern warfare?», *Hypatia*, vol. 23, nº 2, 2008, p. 1-16.

(23) انظر:
Sherene Razack, «How is White supremacy embodied? Sexualized racial violence at Abu Ghraib», *Canadian Journal of Women and the Law*, vol. 17, nº 2, 2005, p. 341-363.

تخضعهم إلى أعمال تعذيب سيناريوات مهينة تحتوي على مشاهد ذات دلالة مثليّة جنسيّا، قاموا بتأديّتها ضدّ رغبتهم[24]. وفي هذه الوضعيّات من العنف العنصري يتحرّك علم الجنس للقسوة[25]. ويكون هذا العنف الجنساني عمليّة فحولة ذكوريّة أو أنثويّة في الآن نفسه، تريد أن تكون أكثر تحضّرا ممّا نجده من عنف في باقي الكوكب[26]. فهي لا تجدّد علاقات الهيمنة إلى ما هو أبعد من انشطار الرّجال والنّساء فحسب، بل وأنّها أيضا في حاجة إلى المرور عبر كراهيّة وازدراء تصوّرات الذّكر غير تلك التصوّرات التي هي في خدمة البيض[27].

الذّعر التناسلي

لا يوجد، في التّقاليد الإفريقيّة القديمة، جسد متكامل.

---

(24) Eileen L. Zurbriggen, «Sexualized torture and abuse at Abu Ghraib prison: Feminist psychological analyses», *Feminism & Psychology*, vol. 18, nº 3, 2008, p. 301-320.

(25) حول استغلال المواضيع الأنثويّة كبعد مركزي لسياسات الليبيرالية الجديدة انظر:

Sara R. Farris, *In the Name of Women's Rights: The Rise of Femonationalism*, Duke University Press, Durham, 2017; puis Françoise Vergès, *Un féminisme décolonial*, La Fabrique, Paris, 2019.

(26) Catherine Mavrikakis, «La virilité rasée?», *Les Masculinités*, nº 215, juillet-août 2007.

(27) . Trudier Harris, *Exorcising Blackness: Historical and Literary Lynching Burying Rituals*, Indiana University Press, Bloomington, 1984.

ففي غياب التجسيد، لا توجد إطلاقا جسديّة. فلا يوجد جسد كوحدة مسلّحة بتكافؤ جنسي فريد. فقد كان مجالا سيميائيّا، ومن هذه الوجهة، مدروسا باستمرار من جميع أشكال الرّوايات وعرضة إلى أن تكون محلّ اختبار بطرق متعدّدة. ومن ناحية أخرى، تساهم بعض الأعضاء في بناء هويّات محدّدة، هي بدورها قابلة للمراجعة، ومتقلّبة، ومصابة عند زاوية التّناقض. ويمتلك الموضوع جسما مثلما ينتمي إلى جسم. فكانت العلاقة بين التملّك والانتماء، مثلما كانت إحداها شرطا للآخر، **والعكس بالعكس**، ممّا يساهم في جعل الكائن البشري نموذجا للتعتيم ومن الحياة الجنسيّة لغزا. ويبرز هذا الطابع الغامض للحياة الجنسيّة والتناقض التأسيسي للأجساد عند الطقوس العظيمة والعروض الرّائعة، وخاصّ الرّقص، ولكن أيضا الحفلات وممارسات أخرى للحيازة والعلاج. فقد كانت ترتكز على قبول التّناقض العضوي للجسد والطابع المتعدّد الأشكال للكائن الحيّ.

وللمزيد، كان معترفا به بأنّ ما كان يحمل الجسد ويمنحه الحياة هي الرّوايات، إذ الحياة ذاتها تنطلق من الرّواية العجيبة. وفي تعدّدها، كانت الأعضاء مراحل متناوبة، وحتّى أدوات متخصّصة. وكانت قابلة للاقتطاع ويمكن أن تدخل في صراع مع بعضها البعض. وكان الجسد أحيانا ثقيلا على الحمل، ويبحث الحامل على التخلّص منه. وكان أحيانا أخرى معوّقا. وكان، وهو المحمّل بالعظام، والأعصاب،

والسوائل والأحشاء، شبيها بالعبء[28]. ولكنّه يمتلك دوما بعدا بلاستيكيّا يمنحه قدرة عظيمة على التحوّل. فكان الجهاز الجنسي، بالخصوص، أكثر من عقدة تشريحيّة. ومثل الوجه، كان المحور الأساسي للنّشاط الرّائع. وكان عند نقطة الالتقاء الحسّي والشعور الدّاخلي، التّعبير المجازي بامتياز للتّعدّديّة الفوضويّة.

وفي عصر التلاعب الهرموني والجراحي، يكون الجسد المعاصر قد "أعيد بناؤه" على نطاق واسع. وبالمناسبة، يبرز ضعفه الجوهري للعيان، بل وأيضا تطويعه، وقدرته على القبول بأن يكون في قالب من مواد مختلفة، من الشمع إلى البرنز، ومن البلور إلى الطين النضج[29]. وأكثر من ذلك، فقد أصبح، حسب عبارات ميخائيل لا شانس، "خوارزميّا مجرّدا، واستنساخا للتكنولوجيا الحيّة، وصورة رمزيّة في الافتراضي". ويضيف قائلا بأنّه بظهور الصّور التكنولوجيّة، "ارتبطت قدرتنا على خلق الصّور ببناء أجسام جديدة. وتصلح عمليّة معالجة الصّورة نموذجا للتّلاعب الجيني للمستقبل، يظهر فيه الجسم الاصطناعي أكثر اكتمالا، إذ لم يعد يؤثّر فيه السنّ والأمراض. فقد أصبح تمليس الصّورة

(28) انظر حول ما سبق الإبداع الروائي لـ:
Amos Tutuola, *Ma vie dans la brousse des fantômes*, Belfond, Paris, 1988 [1954], et *L'Ivrogne dans la brousse*, Gallimard, Paris, 1976 [1953].

(29) Michaël La Chance, «Vierges blanches et Vénus sanglantes: fictions sexuelles et corps fascinés», *SEXES à bras*-le-corps, nº 112, 2012, p. 31-35.

المزيّفة نظير مرهم مضاد للتجاعيد، فتضمن لنا الرّسوم المتحرّكة ذات الثلاثة أبعاد في السينما شبابا أزليّا"[30].

لا الجنس ولا النوع يتنصلان عن هذه التحوّلات. فتماما مثل الجسم، يصير الجنس إلى تشتّت أنطولوجي وعضوي في نفس الوقت. فقد كانت الحياة الجنسيّة، كرغبة أساسيّة بقدر ما هي مبدأ عتيق للتفتّح، في المدوّنة الإفريقيّة القديمة، هذا الذي لا يمكن وضعها في ظرف. فقد كانت المكان الذي يتهيّأ فيه الفرد لمواجهة خطر دائم، خطر التنكّر للذّات. ويتنصّل الجسم، المجزأ عن صورته الذّاتيّة. وهو ما يمنح للجهاز التناسبي جميع قوّته للرّيّ، والإعصاب، والحمل. وكان الأمر كذلك لأنّه في لحظة كانت إمكانيّة تجاوز الجسد، في ماديّته، منفتحة بصفة فجائية. وهذا التجاوز هو الذي كان يسمح بالانتقال إلى أجسام أخرى أبعد من الأنواع والحواس. وانفتح الباب، بتحرير الحياة الجنسيّة من قيود النظرة الأبويّة-الاستعماريّة، أمام كلّ أنواع الذّعر التناسلي. وقد يكون من الممكن أنّه، لأوّل مرّة في تاريخ الحداثة، تتصدّر هذه الانفعالات لجعل القضيب في موقع الأقليّة.

يكون هذا الموقع كأقليّة مدعوما جزئيّا بالتحوّلات التكنولوجيّة السائرة. ولم تكن هذه الأخيرة سببا لتجارب حسيّة جديدة قط. بل حوّلت أيضا الحيثيات التي طرحتها،

---

(30) نفس المرجع، ص. 31-32.

إلى اليوم، مسألة الرّغبة الجنسيّة كما هي وشروط إشباعها[31]. ومن ناحية، وقع إعادة اكتشاف الجسد البشري ككيان متكاثر، منفتح على العالم، وعلى جميع أشكال التطعيم والتّدفّق، وعلى عالم الحواسّ. ومن ناحية أخرى، فإنّ حياة الجسم البشري هي محلّ إعادة استثمار عند نقطة التقاء ثلاثة أنواع من الممارسات، وهي ممارسات التواصل، والاستبدال، و الارتجاج. فالجسم الحيّ بالتّمام والنّشيط هو الجسم المتحرّك، والمتّصل، والقادر على الاهتزاز والذي من المحتمل أن يكون متعدّدا، ومستعدّا للتحوّل. فهو حتما حقل لذّات شاسعة.

وحتى تكون مجالات اللذّة متّسعة، وحتى تتمكّن هذه الأخيرة من بلوغ أقصى كثافتها، يجب بالضّرورة على المؤهلات الجنسيّة أن تنضاف إلى هذه العقد من التّوتّر. فالجسم غير القادر لوحده على بلوغ ذلك في حاجة إلى مساعدات ومستلزمات. وهكذا، سمح تطوّر علم الإنسان الآلي، والإعلاميّة، والسيبرناتيّة [علم التحكّم في الذّات] والذّكاء الاصطناعي باكتشاف أجيال جديدة من المستلزمات الجنسيّة وغيرها من "الآلات اللئيمة". ويتعلّق الأمر، في معظم الحالات، بمواد اتصاليّة وحيويّة. وهي من المفترض أن تنضاف إلى ما هو بعد موجود، للزّيادة في طبقات اللذّة. وتلعب، في هذا الشأن، دور المحرّكات. هذا هو حال

(31) Luciana Parisi, *Abstract Sex: Philosophy, Biotechnology and the Mutations of Desire*, Continuum, Londres, 2004.

مختلف "أدوات الاهتزاز". وتكون مستعدّة، بأحجام وأشكال متباينة، إلى مختلف أشكال التلاعب. ويمكن لبعضها التّحكّم فيها بجهاز والعمل بذلك عن بعد. وتمثّل بعضها الآخر بدلة اصطناعيّة حقيقيّة.

إنّ الحدود بين ما هو إنساني والآلة في فتور، تجعل من إمكانيّة تعدّد الأجسام، والمشاعر والتصرّفات الجنسيّة تطفو. ووقع تشجيعها بمحبّة الرّجل الآلي. وظهرت، إلى جانب آلات اهتزاز من كلّ نوع، جميع أشكال البديل البشري، على غرار الأجيال الجديدة للدّمى الجنسيّة ومظاهر أخرى مجسّمة للتكنولوجيا، سواء **الدّمى الجنسيّة** من السيليكون أو أشكال أخرى ذكوريّة المظهر. ومثّل ظهور **الآلات الجنسيّة** الجديدة حدثا ذا بال في التّحوّلات السّاريّة الآن. وساهمت في تحسين ممارسات الاستمناء باليد التي نعرف دورها في إنتاج فقاعات المتعة التي تمثّل مواضيع الليبيراليّة الجديدة. وعلى مستوى آخر، تجعل هذه الآلات الجنسيّة الجديدة من الممكن تطوّر الممارسات الجنسيّة التجريبيّة التي لا تقتصر على البشر، او لا تُوظّف فقط الرّجل والمرأة، ولكن ينخرط فيها العديد من الفاعلين الآخرين.

يكون القضيب، بفضل التحوّلات التكنولوجيّة، خارج المركز تدريجيّا. وتنتقل الرغبة فعلا في اتّجاه مواد متواصلة، وآلات اهتزاز، ومواد بشريّة بديلة وصور أخرى مجسّمة، ولكنّها تتجه أيضا نحو مستويات مخفّفة ومجرّدة أكثر فأكثر. وتنفصم الرّغبة بالواقع البيولوجي، وتمتدّ الحميميّة من الآن

فصاعدا إلى كلّ منطقة أو موضوع محمّلا بضارب من الغموض. وإضافة إلى ذلك، تحوّل النشاط الجنسي إلى نشاط موصول بواجهات، مثلت منصاتها المجال المتميّز للممارسة. وهي، علاوة على ذلك، مسنودة بتصغير مكوّنات من كلّ نوع، وقد أصبح الجسد في حدّ ذاته الموازي، في هذا النظام، لمستشعر، مجمع الرّقاقات المرتبطة بجهاز عصبي عظيم، نظام استشباحي للرأسماليّة- التقنيّة.

وإذن من الممكن مستقبلا أن يقع الإطاحة بالقضيب كما هو. فالزّمن الذي كان فيه الرّجل والمرأة مركز الأساطير المؤسّسة للجنس قد ولّى. سيكون الكثير من الحياة الجنسيّة موصولا بالعديد من الأجسام البلاستيكيّة. وستستمتع عبر رموز مشفّرة. وستكون الحياة الجنسيّة بقدر عمل الفاعلين من البشر أكثر منه أجهزة تقنيّة تشتغل على شكل مزارع حقيقيّة. ففي عصر الخلايا العصبيّة، يحلّ الدّماغ، المحرّك الأوّل للرّغبة الجنسيّة، محلّ القضيب. وسيكون الهدف النّهائي الاقتراب من ذلك قدر الإمكان، وتحقيق جاهزيّته.

لم يعد من الضّروري البحث عن منبّهات عبر البظر، والشرج أو القضيب. فيكفي القصف المكثّف لموجات من كلّ شكل في المناطق الدّماغيّة الخاصّة بالمتعة للوقوع، دون واسطة، في غياهب النّشوة[32]. وسيوقّع عصر الحياة الجنسيّة

---

(32) Michaël Pécot-Kleiner, «Comment la technologie va-t-elle s'emparer de notre sexualité?», magazineantidote.com, 18 octobre 2018.

دون صلة مع كائنات بشريّة أخرى نهاية الهيمنة التي وقعت ممارستها منذ أمد بعيد بالعلاقات الجنسيّة بين الأجناس. وسينضاف إلى الحكمة-الجنسيّة مع الكائنات البشريّة التقنيّة الجنسيّة. وسوف تمزج هذه الأخيرة الحميميّة وإمكانيات التّخلّص الجنسي للغرائز مع الآلات. ويبقى محلّ نظر بأن يقع تفتّح ثان للحبّ دون رغبة جنسيّة، وإن نتج عن ذلك أكبر مساواة للأنواع البشريّة، وقد تمّ نهائيّا عزل القضيب.

5

أجساد-الحدود

لا تتميّز الأشكال المعاصرة للوحشيّة فقط بتفكيك كوابح الصّدمات الاجتماعيّة وأجهزة التّغطية عن المخاطر أو بصفة عامّة بمحاولة استبدال السّوق بالديمقراطيّة. ونعرفها أيضا بهاجس إلغاء السّياسي، وهي إحدى السّمات المميّزة لما نطلق عليه من الآن فصاعدا اسم "الليبيراليّة الاستبداديّة". ولكنّها ليست فقط ميزة التّحوّلات الأكثر حسما للرأسماليّة المعاصرة لرفع قيود المعاملات الماليّة ولإخضاع المصالح العموميّة إلى مردوديّة القطاع الخاص، وإلى التخفيف من ضرائب الأكثر ثراء، أو السعي إلى عطف متعهّدي السيولة. وكانت، علاوة على ذلك، إحدى التّحوّلات الأنثروبولوجيّة الأساسيّة لعصرنا هو تقسيم البشريّة إلى أجزاء متعدّدة من **الطبقات العنصرية نمطيّا**. وتعلّق الأمر، من ناحية، بالتمييز بين أفراد الكائنات البشريّة الموسرة والأشخاص المفلسة. كما تعلّق الأمر، من ناحية أخرى، على المستوى العالمي، بالتقسيم بين ما أسماه إتيان باليبار "القسم المتحرّك للبشريّة" و"البشريّة التائهة"[1].

---

(1) ètienne Balibar, «Sur la situation des migrants dans le capitalisme absolu», 9 février 2019, https//france.attac.org/pdf/possibles/1777/6569.

إنّ المؤسّسة الحدوديّة هي الآليّة التي يندرج فيها في الواقع هذا التقسيم الجديد. وعلى كلّ، لم توضع الحدود أبدا من خطوط لا رجعة فيها والتي لا تلتقي إلّا نادرا. فهي ليست حصريّا ماديّة. إنّها أساسا هجينة، وغير مكتملة ومجزّأة عمدا. وإن مثّلت بامتياز أماكن التظاهر للسلب المعاصر لأنّها نقطة التقاء العديد من حزم الهويّات التي توفّر، في أيّامنا، تعهّد وتنظيم الكائن الحيّ والنشر غير المتكافئ لمخاطر العصر. فهي تتمفصل تارة في حزم أمنية وطورا في حزم بشريّة، وأخرى في حزم الهويّات[2]. وليس هنالك حتى قانون للوفيات الذي لا يترافق من الآن فصاعدا مع المؤسّسة الحدوديّة[3]. وكان ما هو مشترك للحدود، وهي حدود ماديّة، وافتراضيّة ومنقّطة، بأنّها محمّلة بالتوتّر. وتعمل من الآن فصاعدا في اتجاه الخارج أكثر منه الدّاخل. فأمست فخاخا حقيقيّة، وأجهزة الأسر، والشّلل وإقصاء للسّكان غير المرغوب فيهم، واعتبروا من الفوائض، بل من

---

(2) وهو ما يطلق عليه نيكولا ريناهي اسم "الرأس المال الأصلي" والذي يقتصره خطأ على الطبقات الشعبيّة،
Niolas Renahy, «Classes populaires et capital d'autochtonie. Genèse et usage d'une notion», *Regards sociologiques*, nº 40, 2010, p. 9-26.

(3) Reece Jones et Corey Johnson, «Border militarization and the rearticulation of sovereignty», *Transactions of the Institute of British Geographers*, vol. 41, nº 2, 2016.

"الإضافيين". ولكن من أيّ نوع هو اسم "السّكان الفوائض"؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال يستوجب العودة إلى نوعين من المخاوف التي ستكيّف خطاب الغرب فيما يتعلّق "برياضيات السّكان" منذ على الأقلّ القرن السّابع عشر. فهو الخوف من اكتظاظ السّكان، وعلى عكسه انخفاض عدد السّكان. فالخوف من انخفاض السّكان، أي الشروط التي تجعل من الممكن انقراض الجنس البشري، انتعش منذ القرن السابع عشر، في مرحلة كان فيه الرّزق الفيزيولوجي للبشر في المحكّ. وكانت تلك هي الحالة في فرنسا. ففي ما بين 1565 و1788 اهتزّت فعلا بأزمات متواصلة للمؤونة. فكانت تارة نتيجة تقلّبات مناخيّة، وارتفاع الأسعار والضغط المالي، وطورا بسبب اقتران المجاعات بالأوبئة. وألغت نسبة الخصوبة والوفيات نفسها بالمثل خلال المراحل المتتالية[4]. وتناقص عدد السّكان خلال العشرين سنة الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر إثر مجاعتين كبيرتين لسنتي 1693-1694 وسنتي 1709 و1710[5].

ومن بين الأوبئة، كان الطاعون، وكذلك الكوليرا،

---

(4) Marcel Reinhard, «La population française au XVIIe siècle», *Population*, vol. 13, nº 4, 1958, p. 619-630.

(5) Paul M. Bondois, «La misère sous Louis XIV: la disette de 1662», *Revue d'histoire économique et sociale*, vol. 12, nº 1, 1924, p. 53-118.

والجدري، والتيفوس، والحصبة أكثر دمارا[6]. وكانت كلّ واحدة من هذه الأوبئة تتسبب دوما في ارتفاع حادّ للوفيات ومآس في المدن وكذلك في الأرياف[7]. وبالإضافة إلى ذلك، تنشر الأوبئة والمجاعات على الطّرقات **إنسانيّة هائمة** باحثة عن الأكل. وإن كان الجوع يقتل فعلا، فقد أدّت الأوبئة بدورها إلى التضاعف المفاجئ أحيانا للسكان وإلى انتقال القسوة. وفي هذه الظروف، يقع إحالة "السّكان" إلى حقيقة جماهيريّة، وتحديدا إلى أجسام من المحتمل أن تكون حادّة[8]. وكانت هذه الجماهير في الآن نفسه فيزيولوجيّة، وعضويّة وسياسيّة حيويّة.

إنّها كتلة أجسام ومنظمات معرّضة حتما إلى مخاطر الهون الناتج عن التقائها بالمرض والمصيبة. وتظهر الحدّة، بدورها، في مختلف الملامح. كان ذلك حال مختلف أنواع الحمّى على الخصوص. وكانت هذه الأخيرة معروفة بعديد الأسماء - حمّى عفنة، وحمّى خبيثة، وحمّى الطاعون، والأرجوانيّة أو التيفوئيد. وتشير الحمّى، في ظلّ مختلف

---

(6) Monique Lucenet, *Les Grandes Pestes en France*, Aubier, Paris, 1985.

(7) François Lebrun, «Les crises démographiques en France aux XVIIe et XVIIIe siècles, *Annales*, vol. 35, nº 2, 1980; Marcel Lachiver, *Les Années de misère. La famine au temps du Grand Roi*, Fayard, Paris, 1991.

(8) Anne-Marie Brenot, «La peste soit des Huguenots. ètude d'une logique d'exécration au XVIe siècle», *Histoire, économie et société*, vol. 11, nº 4, 1992, p. 553-570.

أشكالها، إلى الجزء الفاسد من الجسم، هذا الجزء الذي كان من المتوقّع أن يضمّ ديدانًا وكائنات منخورة باليرقات[9]. وبإيجاز، كان تأويل النقص في السّكان بمثابة تهديد بيولوجي حقيقي، عند نقطة الالتقاء بين الحوادث المناخيّة، ومنظومات المحاصيل والأسعار، ونسب الولادات والوفيات والتنقّل.

وأمام الخوف من تناقص السّكان، نجد إجابة للخوف من مضاعفتهم. هنالك العديد ممّن يعتبرون، على سبيل المثال، بأنّ "عددا كبيرا جدّا من النّاس" يعرّض الدّول إلى الخطر. وكان العدد المفرط للسّكان، وهو في طور تضاعف غير محكم، يُعتبر بمثابة الآفة. ونلاحظ أنّه كان من السّهل افتراس بعضهم البعض عندما يتناقص المجال والغذاء بالنسبة إلى المجموعة. ومن ناحية أخرى، كان الإفراط في عدد السّكان من المرجّح أن يهيّء إلى أعمال شغب مفزوعة، وحتى إلى ثورات[10]. وكان من الطبيعي بأنّ ندرة الولادات، إضافة إلى تدعيم وفيات الأطفال، أن تقلّل من أهميّة بعض الطبقات الاجتماعيّة، خاصة عندما تنضاف إليها أزمات

---

(9) حول هذه المظاهر الطبيّة والبيولوجيّة، انظر:
Jean-Noël Biraben, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, Paris-La Haye, Mouton-EHESS, 1975, 2 vol.

(10) Cynthia Bouton, «Les mouvements de subsistance et le problème de l'économie morale sous l'Ancien Régime et la Révolution française», *Annales historiques de la Révolution française*, nº 1, 2000, p. 71-100.

غذائيّة[11]. ولا يعود الموت إلى الأقدار الفرديّة فقط، ولا يقع توزيعه صدفة. فلا بنمو معدّل الوفيات مع العمر حصريًا، إذ تخضع الولادات والوفيات إلى قوانين يمكن أن تُحتسب رياضيّا[12].

وعلاوة على ذلك، كانت سياسة السكّان خاضعة لمسألة الذخائر الغذائيّة[13]. والفكرة القائلة بأنّه من واجب سكان بلد أن يكونوا في تناغم مع ما لديهم من مؤونة، كانت، على سبيل المثال، في صلب المالتوسيّة. فقد كانوا لا يرون فقط من خلال "المؤن" الموارد الاقتصاديّة فقط، ولكن رأس المال الغذائي الابتدائي الذي من دونه تكون الحياة ذاتها في خطر، انطلاقا من تحوّل الجسم إلى نفاية وأوقافها المتعدّدة. وعلى سبيل المثال، كانت الأزمات، التي من طبعها أن تمسّ المؤن، مرتبطة بالمجاعة وندرة الغذاء، وبالطاعون والأوبئة الأخرى، وبالحروب. وتزامنت أكبر أزمات الوفيات والنّقص في الولادات عموما مع هذه

---

(11) حول ما نطلق عليه اسم "الطبقات الحوقاء"، انظر:
Jean Meuvret, «Les crises de subsistances et la démographie de la France d'Ancien Régime», *Population*, nº 4, 1946.

(12) انظر:
Jacques Véron, «Les mathématiques de la population, de Lambert à Lotka», *Mathématiques et sciences humaines*, nº 159, 2002, p. 43-55.

(13) انظر بالخصوص:
Richard Cantillon, *Essai sur la nature du commerce en général, Institut national d'études démographiques*, Paris, INED, 1952 [1755].

الأوقات المفصليّة. فكان تطويق هذه الأزمات مرتبطًا بتطوير الطبّ (الوقاية).

لم يكن ازدياد عدد الرّجال معتبرا شرعيّا إلا إذا ما شاهدنا، بالتّوازي، تطوّرا للموارد الغذائيّة[14]. وإن كان السيّد الاقطاعي، مثلما كان يرى الملك المستبدّ للقرن السابع عشر "بعين الرّضا مضاعفة عدد رعاياه"، وإن رجل الصّناعة للقرن التاسع عشر متحمّسا "لنسبة الولادات القويّة لدى اليد العاملة"، فإنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى مالك القصر. وسيؤكّد ألفريد سوفي بأنّ هذا الأخير يرى بقلق "تطوّر عدد السّكان المتشرّدين، يهيمون في نواحي مقاطعته". أليسوا قادرين على اللجوء، ذات يوم، إلى إعادة توزيع الخيرات الخارجيّة في القانون المعتاد"[15]؟ لم تكن إذن المسألة عموما مسألة نسبة الولادات، ولكن نسبة ولادات الطبقات الشعبيّة. وسنرى فيما بعد، بأنّ هذا الانشغال سيرتدّ لاحقا على "الأمم البروليتاريّة"، ممّا جعل سوفي يقول بأنّ "الخوف من تضاعف الآخرين"، وخاصة الأعراق البروليتاريّة يؤدي إلى "تفاقم المالتوسيّة في السكان المنخورين بعد بالشيخوخة الدّيموغرافيّة"[16].

وتميّز النظام الديموغرافي بصفة شاملة، وسط المدّ

---

(14) Thomas Malthus, *Essai sur le principe de population*, INED, Paris, 1980 [1798].

(15) Alfred Sauvy, «Le faux problème de la population mondiale», *Population*, nº 3, 1949, p. 450.

(16) نفس المصدر، ص453.

والجزر، بالجمود. ومهما كانت كثافة التقلبات، فقد وضعت أزمات التّغذيّة وكذلك الأزمات الديموغرافيّة النظام السّياسي ذاته محلّ تساؤل. فقد طرحت دراميًا مسألة ما العمل بالفقراء عموما وبالفقر المشرّد خاصة، وهو كيف يمكن تمكين المعوزين، المتكفّل بهم، من الأكل؟ وبقدر ما كانت نتيجة المجاعات والأوبئة تلقي بأضعاف من النّاس في الطرقات دون شبكة من الحماية، فإنّ عدد السّكان المشرّدين والأجسام المتحرّكة والواهنة في كلّ مرّة في تزايد. وعلى هذا، كانت سياسة السّكان مطروحة، أكثر من أيّ وقت مضى، بمعنى الفوائض، أي من عدد الكائنات البشريّة والأجساد "الإضافيّة"، التي من الواجب أن يخضع حراكها إلى قواعد صارمة.

وتعود، من هذه الفترة، البعض من الأسئلة الحارقة التي لم تتوان أيّ مرحلة تاريخيّة وأيّ منظومة هيمنة من طرحها، انطلاقا من مسألة معرفة كيف يمكن تحديد من هو "إضافي"، وما العمل مع منْ هم "إضافيين"، ومن أرواح مُصابة، وكيف تكون معاملتهم من وجهة نظر قانون التمسّك بالحياة وقانون نسبة الوفيات[17]؟ فكيف يقع وضع حدّ لإنتاج الرّجال "الإضافيين"؟ وكيف العمل حتى لا يقع الحصول إلا

---

(17) حول هذه الإشكاليات في السّياق المعاصر، انظر:
Steve Hinchliffe, John Allen, Stéphanie Lavau, Nick Bingham et Simon Carter, «Biosecurity and the typologies of infected life: from borderlines to borderlands», *Transactions of the Institute of British Geographers*, vol. 38, nº 4, 2012.

على العدد المناسب من الرّعايا وما هي "أحسن طريقة للقتل بدافع الرّحمة لعدد مفرط من السّكان" ولفوج من "الأفواه الزّائدة"[18]؟ وكيف التحكّم، بالخصوص، في حركيّة أجسام من المحتمل أن تكون ضارّة، أي من نفايات النّاس، ومنهم من كانوا غير مستغلّين كيد عاملة، غير قابلين للاحتواء، وبالتّالي، لا طائل منهم.

كان المتسوّلون المشرّدون الفقراء، إلى حدود القرن الرّابع عشر، التعبير الحيّ لهؤلاء "الإضافيين". فكانوا يشبهون الوجوه المسيحيّة. وبهذا العنوان، يحصلون على الصّدقات وهم محلّ رعاية خيريّة. وانفتحت منذ القرن السّادس عشر مرحلة فضح الرّذيلة[19]. ألا يشكّك من كانت خاصيّتهم أن يظلّوا في كلّ مكان وأيّ مكان، دون قيد طائفي أو إقليمي في قيم التّحضّر؟ ألا يمثّلون، وهم العاطلون أبدا، بما أنّ قواهم متقلّصة بالفعل وموعودون بموت سابق لأوانه، جزءا من تلك الإنسانيّة العديمة الجدوى؟ وبالتالي، تتسارع محاولات المراقبة لهذه الإنسانيّة الإضافيّة، غير المنتسبة

---

(18) Arthur Young, *Voyages en France*, Arman Colin, Paris, 1931 [1792], cité in Jean Bourdon, «Remarques sur les doctrines de la population depuis deux siècles», *Population*, nº 3, 1947, p. 483-484.

(19) انظر:
Bronislaw Geremek, *Les Fils de Caïn. L'image des pauvres et des vagabonds dans la littérature européenne du XVe au XVIIe siècle*, Flammarion, Paris, 1991, et *La Potence ou la Pitié. L'Europe et les pauvres du Moyen ôge à nos jours*, Gallimard, Paris, 1987.

والمتحرّكة ووقع ترجمتها، من ناحية، بوضع أجهزة مساعدة، على صورة المستشفى العام (1656) ومستودعات التّسوّل التي نشأت سنة 1764، ومن ناحية أخرى، بتخطئة متزايدة للأشكال المحرّمة للصّداع المعتبر من الآن فصاعدا على أنّه تشرّد[20].

سوف ترمي الترسانة القمعيّة التي تستهدف، منذ ذلك الحين، السكّان الفقراء والمهاجرين، للحصول منهم على الفصل والحبس، ثمّ الحجز، وأكيدا الإبعاد إلى المستعمرات[21]. وستنتمي تدريجيّا معاملة أجسام المهاجرين المشتبهة بالأجسام العنيفة أو بنفايات رجال، إلى إجراءات الوقاية الاجتماعيّة. وتتمثل أحسن طريقة لإدارة هذه النفايات البشريّة في إجلائها خارج فضاءات الحياة العاديّة. ولذلك، لا يتوقفون عن التنقّل. ولكن سوف لا يتنقّلون إطلاقا إلّا في شكل تدفّق وتصريف موجّهين نحو منافذ. وإذن سيكون تنقّل تلك الأجسام محدودا. وسيخضع إلى إجراءات فرز، ليس لأنّها ستُعتبر بمثابة مصادر قادرة أن تكون محلّ ابتزازات، ولكن بقصد إمكانيّة إزالتها، إذ أنّها مصادر ازعاج محتملة.

ستُجرّ الأجسام القاسية نحو شبكات عديدة من أجهزة

---

(20) Antony Kitts, «Mendicité, vagabondage et contrôle social du Moyen ôge au XIXe siècle. ètat des recherches», *Revue d'histoire de la protection sociale*, vol. 1, nº 1, 2008, p. 37-56.

(21) André Gueslin, *D'ailleurs et de nulle part. Mendiants, vagabonds, clochards, SDF en France depuis le Moyen ôge*, Fayard, Paris, 2013.

العقوبة، وأحيانا، عند الأوبئة، يمكن أن تحصل الشرطة على أمر تتبّع المشرّدين وإرسالهم إلى الأشغال الشاقة أو العمل الإجباري في التحصينات. وبما أنّ الهجرة مجرّمة، فقد تحوّل عندئذ المتسوّلون والمشرّدون إلى مُدانين مُجبرين على قضاء عقوبتهم في سجون البحريّة أو الأشغال الشّاقة في الموانئ والترسانات. وبما أنّهم نجوا من ميتة طبيعيّة، ظلّوا مباشرة محتجزين ومحكومًا عليهم بالسخرة او بالنّفي الأبدي، والجلد، والغرامة المعتبرة أو النّفي المؤقت[22].

وأمام هذه المعالجة الوقائيّة لمسألة الأناس "الإضافيين" والسّكان الزّائدين، يكون من المستحسن إضافة ممارسات الإلغاء. وحسب عبارات الإقصاء للرّجال "الإضافيين"، يمكن ان تكون النتائج الدّيموغرافيّة للحروب الجماهيريّة وللحملات العسكريّة الأخرى هامّة. وطالما أن تكون عديدة، ومرابطة في الأراضي التي تعبرها، يمكن للفرق العسكريّة أن تفقّر السّكان المدنيين، خاصة إن مارست الانتهاكات أو النّهب. فكانت الحرب إذن جزءا من مجموعة من الأجهزة المكلّفة بتنظيم السّكان الإضافيين.

وفي مواجهة العدوّ، كان السّكان من ناحية أخرى متساوين مع الذّخيرة. ويعود في جزء كبير دفع ضريبة الدّم

---

(22) Marc Vigie, «Justice et criminalité au XVIIe siècle: le cas de la peine des galères», *Histoire, économie et société*, vol. 4, nº 3, 1985, p. 345-368.

إلى السّكان الإضافيين. فقد كانوا أحيانا ملحقين بالجيش بالقوّة في ميليشيات مؤسّسة على أساس الخدمة الإجباريّة. ويرتبط تجنيد نسب قويّة من الرّعايا في الجيوش بثروة الدّولة. وستسود بعد الثّورة الفرنسيّة خاصّة الفكرة القائلة بأنّ قوّة الدّولة العسكريّة تكون في تناسب مع عدد السّكان الممكن تجنيدهم.

لا تمثّل الهجرة إلى المستعمرات، في حدّ ذاتها، ممارسة إقصائيّة إلا عندما يقوم المستوطنون بتصفية السّكان الأهالي القاطنين في الأراضي التي يريدون الإقامة فيها[23]. كانت الهجرة أحيانا خاتمة مسار متعدّد الأشكال، وصفها بإحكام عالم الانثروبولوجيا بول بروكا أمام أكاديميّة الطبّ سنة 1867. فقد تساءل: ماذا يحدث "في الأماكن التي يتضاعف فيها النّاس على أرض غير قابلة للتوسّع"؟ وأجاب: "سيشرعون في التزاحم، واستصلاح مناطق الخلنج، وتخصيب الأراضي البور، وتجفيف السّباخ. وتكون الأمور، عند هذا الحدّ، على أحسن ما يرام، ولكن يحصل أن يقع احتلال كلّ المكان. وبعد؟ فيبقى مصدر الهجرة.. فتتمّ الهجرة إذن؛ ويقع السير إلى ما وراء البحار لمصادرة وتدمير شيئا فشيئا الأجناس الأضعف منّا، فنملأ أمريكا، وأوقيانوسيا وإفريقيا الجنوبيّة. ولكنّ الكوكب الذي نحن فيه

(23) Henry Reynolds, *The Other Side of the Frontier*, James Cook University of North Queensland, Townsville, 1981. Lire également Dirk Moses, «The birth of Ostland out of the spirit of colonial-

ليس مطاطيًا. فماذا يحدث عندئذ بالنسبة إلى الأجيال القادمة عندما يقومون باستنفاد مصدر الهجرة المؤقت؟. وسنلاحظ فيها اشتداد هذا الصّراع للوجود الذي أسماه داروين **بالكفاح من أجل الحياة**، الذي يظهر في الطبيعة عند جميع درجات سلّم الكائنات الحيّة"[24]. فوقع اللجوء إلى ممارسات إقصائيّة أخرى عند نقل السّكان[25].

رياضيّات السّكان

أبرزنا بأنّ مفهوم الفائض، أو النّاس "الإضافيين" كان في مركز الحسابات الرّياضيّة الأوروبيّة للسّكان منذ بدايات العصر الحديث. واستُعملت ركيزة لعدد من نظريّات "المجال الحيوي" وذريعة لسياسات الإبادة فيما بين الحربين[26].

---

ism: A postcolonial perspective on the Nazi policy of conquest and extermination», *Patterns of Prejudice*, vol. 39, nº 2, 2005, p. 197-219. Plus généralement, voir Hannah Arendt, *Les Origines du totalitarisme*, Gallimard, «Quarto», 2002 [1951]. propos de ces débats, lire également Benjamin Madley, «From Africa to Auschwitz: How German South West Africa incubated ideas and methods adopted and developed by the Nazis in Eastern Europe», *European History Quarterly*, vol. 35, nº 3, 2005.

(24) مذكور من قبل J. Bourdon, «Remarques sur les doctrines de la population depuis deux siècles», art. cité, p. 487.

(25) Gil S. Rubin, «Vladimir Jabotinsky and population transfers between Eastern Europe and Palestine», *The Historical Journal*, vol. 62, nº 2, 2019, p. 495-517.

(26) Robert René Kuczynski, *L'«Espace vital» et les problèmes de population*, Oxford University Press, Oxford, 1944; Imre Ferenczi, «La population blanche dans les colonies», *Annales de géographie*, nº 267, 1938, p. 225-236.

ولعبت أيضا دورا حاسما في الهجرة الأوروبيّة في بقيّة أرجاء العالم لفائدة الاستعمار[27].

واليوم، وبالنّسبة إلى بقيّة القرن الواحد والعشرين، تكون الأرض وستكون منقسمة بين "بلدان ولودة" وأخرى أصيبت "بتقلّص الحيويّة"[28]. فأصبحت مسألة ترتيب السّكان قسما جديدا من الرّزنامة الثّقافيّة والجغرافيا السّياسيّة. وكثيرا منْ هم، من الآن، في شمال العالم خاصة، يقيمون صلة مباشرة بين ضغوط الهجرة والضّغط الديموغرافي. وطفت على السّطح مسألة تعقيم طبقات وأمم المهيْمن عليها في مخيال المهيمنين. إذ وقع الخوف من تفاقم عدد السّكان المتكاثريّ النّسل. لماذا؟ لأنّ مشكل السّكان هو مشكل اقتسام الأرض، "والخوف المعلن عنه لا أكثر ولا أقلّ، باللجوء، ذات يوم، إلى بعض الاقتسام"[29]. وبينما بلغت رأسماليّة الاستخراج، في بلدان الجنوب، ذروتها القصوى، توطّدت المالتوسيّة الجديدة وأصبحت من الآن فصاعدا الجانب "الأخلاقي" الآخر لليبيراليّة الجديدة.

ترتكز المالتوسيّة الجديدة، في الممارسة، على ما

---

(27) Robert Rochefort, «L'Europe et ses populations excédentaires», *Politique étrangère*, nº 2, 1954, p. 143-156.

(28) انظر:

United Nations, World Population Prospects 2019, https://population.un.org/wpp2019/.

(29) A. Sauvy, «Le faux problème de la population mondiale», art. cité, p. 452.

أسمته الفيلسوفة إيلسا دورلين "التّصرّف الاستعماري للقطيع البشري". وذكّرت بأنّ هذا التدبير "ينصرف إلى تقنيات مختلفة من التعقيم الاجتماعي"[30]. يجب، في داخل هذه المنظومة، فهم السّياسات المضادة للهجرة وظواهر الاعتقال، والمخيمات، والقمع، وترحيل البشريات الهائمة. وفي عصر الوحشيّة والاحتقار المتفاخر لدولة القانون، يكتسي الرجال "الإضافيون" من الآن فصاعدا عدّة أوجه. فلا يعود الجميع إلى الصّورة التي وضعها عنهم ماركس في أوصافه للعلاقة الاجتماعيّة الرّأسماليّة.

ففي ذلك العصر، كانت الأجسام "الإضافيّة" جزءا ممّا كان يُطلق عليه ماركس اسم "الجيش الصناعي الاحتياطي". وكان الأمر، بصورة عامّة، يتعلّق بخزّان لقوى العضلات تارة نافعة (خاصّة عندما كان النّظام الرّأسمالي في مرحلة الانتشار وفي حاجة إلى تجديد قوّة العمل) وطورا عقيمة (عندما خلفت مرحلة الانكماش مرحلة الانتشار). وخلال مرحلة الانكماش، كانت مثل تلك الأجسام محكومًا عليها بالبطالة. وكان ماركس، من ناحية أخرى، يميّز مقاييس مختلفة "لتضخّم السكان". وهكذا، عالج "التضخّم النّسبي للسّكان"

(30) Elsa Dorlin, «Macron, les femmes et l'Afrique: un discours de sélection sexuelle et de triage colonial», Le *Monde Afrique*, 30 novembre 2017.

وانظر أيضاً:

Françoise Vergès, *Le Ventre des femmes. Capitalisme, racialisation, féminisme*, Albin Michel, Paris, 2017.

الخاص بالمراحل الأولى للرّأسماليّة، عندما كان الأمر يتعلّق بالخصوص بتدمير أنماط الحياة التقليديّة وخلق الظروف الموضوعيّة للتحوّل البروليتاري.

كنّا عندئذ أمام أجساد خُصمت منها الظروف الماديّة للتكاثر وللوجود. وكان هذا الاقتطاع مقدّمة إلى ارتمائهم في سوق الشغل أين كانوا خاضعين إلى منطق جديد للاستغلال. وكان الأمر، في هذه المرحلة، يتعلّق بأجساد محرومة ومُصادرة نسبيّا، على أنّ الانتزاع والمصادرة النّسبيّة للملكيّة تُعدّ من بين شروط الدّخول في مرحلة التراكم البدائي.

غير أنّ انتزاع ومصادرة الملكيّة يمكن أن لا تكون شاملة. وكانت هي الحالة، بالخصوص، في مستعمرات الاستيطان. ففي إفريقيا الجنوبيّة، مثلا، سمح نظام "المحميات"، ثمّ "البانتوستان"، بتمويل رأس المال. وبفضل هذه "الإعانات"، كان جزء من تكاليف تسييرها مثقلا على الأنظمة التقليديّة للإنتاج أين وُجدت في صلبه النّساء. ولم يقع طمس هذه الأنظمة كليّا. ولكنها تتمحور من ذلك الحين فصاعدا بطريقة معقّدة نسبيّا مع آليّة الاستغلال ذاتها[31]. وأضاف ماركس إلى هذه الفئات "الاكتظاظ العائم

---

(31) حول هذه النقاشات عن بداية إفريقيا الجنوبيّة، انظر:
Giovanni Arrighi, «Labour supplies in historical perspective: A study of the proletarianization of the African peasantry in Rhodesia», *Journal of Development Studies,* vol. 6, nº 3, 1970, p. 197-234; Harold Wolpe, «Capitalism and cheap labour-power in South

للسّكان"، أي كتلة الأجسام المحتمل استغلالها، و"الاكتظاظ الكامن للسّكان"، والتي جميعا أدرج ماركس فيه الصّغار الاجتماعيين، وهم النّساء والأطفال، و"الاكتظاظ القّار للسّكان"، الذي يضمّ الفلاحين والحرفيين.

وليس مؤكّدا أن يكون هذا التصنيف مرضيًا في عصر تمرّ فيه العلاقة الاجتماعيّة الرّأسماليّة، في قسمها الكبير، بالقرض والتّداين وأين سعر قوّة العمل في انهيار[32]. إنّ المنافسة لتخصيص الائتمان هي من الآن فصاعدا الكلمة الفصل للنّزاع. وإن مرّ الرّبح، فعلا، في الوجهة الجديدة للرأسماليّة، أكثر فأكثر بالائتمان، فقد تغيّرت، عندئذ، قواعد إنتاج السّكان المنتهية الصلاحيّة ذاتها. إن الناس "الإضافيين" اليوم هم منْ لا يملكون المؤهّلات القادرة على تشجيع تشغيلهم، ولا أصول، ولا ألقاب ولا ممتلكات ضروريّة لضمان قدرتهم على السّداد[33].

ينضاف إلى عصر الاستحواذ على الأراضي عصر الشّروع

Africa: From segregation to apartheid», *Economy & Society*, vol. 1, nº 4, 1972; Martin Legassick, «South Africa: Capital accumulation and violence», *Economy & Society*, vol. 3, nº 3, 1974.

(32) انظر:

Maurizzio Lazzarato, *La Fabrique de l'homme endetté*, èditions Amsterdam, Paris, 2011.

(33) نستلهم هذا من جزء من أفكار Michel Feher, «La gauche et les siens: enjeux (3/3)», *AOC*, 11 décembre 2019.

في **تحرّك** جميع أشكال التّدافع وعدم التجسيد النّسبي. فالطريقة كما هي عليه لم يقع إلغاؤها تماما. فقد تواصل اعتبار الأرض في حدّ ذاتها كمادّة امتلاك من جميع الأنواع[34]. ولكن، اكثر من أيّ وقت مضى، ليس للمادّة من جدوى إلّا بالتمفصل مع الحركة غير الماديّة. ذلك هو حال القرض والنّقود. فالكرة الأرضيّة في شمولها هي المجال للتّنقّل. ويُفترض أن يكون هذا المجال دون حدود. وفي ظلّ نظام الحركة غير الماديّة، ما من حدود لم تكن **مسبقا** صعبة الاجتياز. وفي الأساس، لا توجد أبدا حدود. فالأفق وحده وما بعده هو الموجود. وإذن لا يوجد أيّ قيد مبدئي للتّنقّل. وفي المقابل، ليس التّنقّل فقط المهماز التكنولوجي، بل هو أيضا مهماز الحركة، وقوامها.

ولكن، ماذا عن الأجسام البشريّة؟ وأيّ جسم تحديدا؟ لقد غيّرت الرّسوم البيانيّة للاستغلال التي وُجد في صلبها الجسم الماركسي، جسم العامل، والفلاح أو المرأة "الإضافيين". وربّما لم يوجد أبدا عصر كان فيه الإيمان بجسم متكامل، وعضو كامل لمجموعة سياسيّة، معيارا. وربّما كانت دوما التضحية بالأجسام من أسس تصوّرات كلّ طائفة باعتبارها ملجئا حيويّا. وربّما كان دوما اجتثاث بعض

(34) Simon Batterbury et Frankline Anum Ndi, «Land-grabbing in Africa», *in* Tony Binns et *al.*, *The Routledge Handbook of African Development*, Routledge, New York, 2018; Natacha Bruna, «Land of plenty, land of misery: Synergetic resource grabbing in Mozambique», *Land*, vol. 8, nº 8, 2019.

الأحياء من حين إلى آخر الشّرط لمواصلة الحياة في عمومها.

وفي الأنظمة الفكريّة الإفريقيّة القديمة، وقع تصوّر الجسم البشري كموجز لعلاقات طاقيّة، و أحزمتها في نفس الوقت، وكذلك نقاط تقاربها وتخثّرها. ففي سياق الإتّجار بالزّنوج، يمكن للأجسام البشريّة أن تُباع وتُشترى. كانت أجسام العبيد تُفتّش وتُجبر على العمل كمصادر متميّزة للطّاقة. وهذه الطّاقة هي التي يستخرجها، ويشغّلها، وفي النهاية، يرهقها نظام المزارع. وبالمناسبة، كانت هذه الأجسام خاضعة إلى تكنولوجيات التعذيب المختلفة (راجع قوانين الزّنوج). فكان الأمر، فعلا، متعلّقا بحكّ الحياة عن قرب.

وباستثناء الرّاتب (وإن كان متواضعا)، كان نفس الوضع تقريبا عند التحوّل إلى المعمل والمصنع. فكان خضوع الأجسام إلى الآلة وإيقاعاتها يهدف إلى إنتاج البضائع المستهلكة. ويمرّ هذا الإنتاج عبر اضمحلال الطّاقة، عن طريق الآلة، وأجسام العمّال والشغّالين. ولم يكن الجسم، في حالة العبد، وكذلك في حالة العامل، مادّة لاقتطاع الطّاقة فقط. فقد كان دون سلامة، قابلا للمحق والخلع، وغير الضّروري والضروري في الآن نفسه، والكثير وغير الكافي. وفي عصر الآلة، كان أحد الفضلات المتعددة للآلة. وبالمرور إلى ما هو غير مادّي، أطلّت وجوه أخرى من الأجسام القويّة.

تلك هي حالة الجسم- الحدودي، المنقسم، المجزئ، والمعاد التجزئة، والمتحلّل، والمندمج، يحكمه قانون المراسيم والمجال. إنّ الجسم- الحدودي هو، بشكل أساسي، جسم لعرق، جسم طبقة عرقيّة خاضعة إلى حساب مكثّف لنوع جديد. ففي صلبه، تلتقي الاستعانة بمصادر خارجيّة وعالميّة. وهو يفتقر في الأساس، ودوما على وشك الانتقال إلى الجانب الآخر من السّياج، إلى غشاء أمني. جسم ممزّق، يكون مطويّا إلى عدّة طبقات ويحمل في لحمه ذكرى الانشقاقات والتقسيمات من كلّ نوع. ونجده على الأرض، وفي البحر، وفي الفضاءات المجرّدة، وتحوّلات الفضاء إلى نور وبخار، سواء صلب أو سائل، وكامن تحت الألياف البصريّة.

تكمن المفارقة الحاسمة للتاريخ الإفريقي للرأسماليّة، إلى حدّ كبير، في التّوتّر بين الحركة والجمود، والتي لم يقع حلّها على نطاق واسع. وهي أيضا لغزها الكبير(35). ففي مناطق أخرى من الأرض، تمّ حلّ هذا التوتّر بالآلة، وما وفّرته من إمكانيّة، بمعنى السّيّارة والطريق، والقطار والسكك الحديديّة، والطائرة والسّفينة، وفي أيّامنا، مجموعة البنى

---

(35) Igor Kopytoff (dir.), *The African Frontier: The Reproduction of Traditional African Societies*, Indiana University Press, Bloomington, 1989; Fred Cooper, *Africa in the World: Capitalism, Empire, Nation-State*, Harvard University Press, Cambridge, 2014.

التّحتيّة الماديّة التي سمحت بتخطّي المسافات والسرعة. وسمحت الآلة بترويض الأوساط الطّبيعيّة، سواء الغابات، أو الفيافي، والأنهار، والمحيطات أو الجبال. وضاعفت قدرات الحراك للكائنات والأشياء والمواد. ولهذا، يمكن أن تُعتبر "حركة ماديّة" بحقّ أو أيضا مادّة تكون خاصيّتها تملّك الحركة. ولاحظ إيف ستوردزي بأنّ التملّك الأصلي والحاسم يكون موجودا لأنّه لا يفجّر فعلا النّظام الاجتماعي فحسب، بل لأنّه يمكّن من وضع سلاسل هيمنة جديدة[36].

وفي إفريقيا، يبتزّ الإنسان حيويّة الإنسان، وفي الأثناء، يخدش الأرض. ولكن لا الأرض ولا الإنسان، كانا خاضعين تماما، على الأقلّ إلى هذا الحين، إلى الحركة الميكانيكيّة. وكان هذا الخضوع، إلى هذه اللحظة، جزئيّا ونسبيّا. وبالتّالي، يأخذ الابتزاز أشكالا خاصّة. ويمثّل استخراج النّفط وحفر الآبار الوسائل المميّزة لاستخلاص الثروات. ويتكوّن المجال من عدّة نقاط ابتزاز وإجلاء التي لا تشكّل حقيقة شبكة. وتكون حركة القوى الابتدائيّة الكبرى بعيدة لبلوغ سرعتها الانفجاريّة وقوّتها الدّائريّة، تلك الخاصّة بما يمكن أن نطلق عليه اسم **دكان الحدادة** الكبير. وفي غياب تجربة الحدادة الكبرى، ظلّ جسم العرق فحما مغطّى بالشحم، على استعداد لحادث، وحتى لمصيبة مبرمجة.

---

(36) Yves Stourdze, «Espace, circulation, pouvoir», *L'Homme et la Société*, nº 29-30, 1973, p. 98.

غير أنّ الحدود ليست سوى القسم المرئي من أجهزة ومرافق شاسعة جدّا، تأسّست إجابة على تساؤل لمعرفة ما العمل أمام تدفّق النّفايات، أي **الإنسانيّة الزّائدة**، فلم يكن القسم الفار منها والمُشرّد - وهو في حالة تطوّر سريع - سوى جزء ضئيل. وتكوّن الحدود والمنشآت الأخرى العديد من منصّات الفرز المكثّف. وتكون الأجسام- الحدود جزءا من هذه العوالم للنّفايات[37]. وعلى عكس العبيد، ليست لها قيمة إضافيّة معتبرة. فقيمتها التّجاريّة محدودة. وتتخطى بعض النّفايات مسافات كبيرة. وبالرّغم من أنّها تتخطّى مسافات مختلفة، تنتهي الأجسام- الحدوديّة أحيانا في نفس المنافذ عند إلقاء القبض عليها. وتكون عمليّة الاعتقال أكثر فأكثر في كنف معالجة فرعيّة لدى مزوّدين خارجيين أو خواص. ويُكلّف معظمهم بتحقيق الإقصاء عن بعد وذلك في حالة الأجسام المدفونة والمحترقة في الصّحراء. وتميّز الوجهات البحريّة أشكالا أخرى للإزالة دون معالجة ولا تغيير.

فتح الإنتاج، بشكل جماعي، للأجسام- الحدوديّة طريق إعادة تنشيط الخيال النّموذجي للسّكان للفترة التي

---

(37) Dina Krichker, «"They carry the border in their back": Atypical commerce and border's policing in Barrio China, Melilla», *Area*, 27 juin 2019.; puis Kathryn Cassidy, «"Where can I get free?" Everyday bordering, everyday incarceration», *Transactions of the Institute of British Geographers*, vol. 44, nº 1, 2018.

تزامنت مع ظهور الرّأسماليّة، ثمّ الاستعمار[38]. وبإعادة التنشيط يمكن الحديث عن **مذهب طبيعي جديد**، أي الإيمان بسلسلة من الحقائق الأساسيّة قد تكون شرعيّة بنظام الطبيعة. وقد لا تكون إذن مثل هذه الحقائق أبدا منشآت اجتماعيّة أو تاريخيّة، ولكن وقائع أساسيّة التي قد تبرّر نفسها بنفسها. وهكذا الأمر بالنّسبة إلى تصوّرات الخاصّة بالنوع وبتطوّر الكائنات الحيّة. فالعصر يبحث عن قواعد جديدة لترتيب الكائنات الحيّة. ونتساءل، من جديد، عن حدود النّوع بما أنّ الأشكال الجديدة لا تتوقّف عن الظهور لفائدة التصعيد التكنولوجي بالخصوص. ومن بين هذه الأشكال، من جديد، ما أسميناه في الماضي "الأشكال الشّاذة"، قد يكون القسم المشرّد للإنسانيّة جزءا منها.

إنّ المخيال الآخر المقترح من قبل الليبيراليّة الجديدة، له صفة هجينة. وفي الأصل، كانت ثمرة الاقتران الجنسي لشخصين من جنسين مختلفين تُعتبر هجينة، "وهي ثمرة تكون بالضرورة وبصفة جذريّة عقيمة"[39]. ويمكن أن يتميّز الجنسان عن بعضهما البعض على مستويين. أوّلهما، مستوى

(38) R. N. Ghosh, «The colonization controversy: R. J. Wilmot-Horton and the classical economists», *Economica*, vol. 31, nº 124, 1964, p. 385-400; Olindo De Napoli, «Race and Empire: The legitimation of Italian colonialism in juridical thought», *The Journal of Modern History*, nº 85, 2013, p. 801-832.

(39) André Sanson, «De l'hybridité», *Bulletins de la Société d'anthropologie de Paris*, 2e série, t. III, 1868, p. 730.

الاختلافات الخارجيّة، وثانيهما مستوى الخصوبة أو، تحديدا، عجز التلاقح المتبادل. ويوجد دوما خطاب مهيمن حول الأجناس، وهي لغة علم الحيوانات. واليوم، يشعّ من جديد الاعتقاد بوجود أجناس مختلفة، ومعه الخوف من زيجات عقيمة. ويتمحور الخطاب عن الحياة والكائن الحيّ مرّة أخرى حول موضوع الخصوبة ومرادفه، الوراثة. وكانت الرّغبة في زواج الأقارب هي الإجابة على التهجين المتصوّر كتهديد لتمييز الأجناس. ويكون الإيمان الرّاسخ بأنّ الإنسانيّة تتكوّن من أنواع مختلفة؛ وإن كان هنالك عرق كما هو، فإنّ الأجناس، بدورها، موجودة. ولا توجد إمكانيّة تخصيب أو خصوبة إلّا إذا ما اجتمع عدد من بعض الميزات المشتركة. فقد لا تكون الخصوبة ممكنة إلّا في حدود نفس النوع الطبيعي، وهي **طائفة تشريحيّة ومن نفس اللون.** وقد تكون، من ناحية أخرى، مثل هذه الطائفة أضمن وسيلة لتحديد أفراد يكوّنونها.

أقيمت في السّياق المعاصر المتميّز بتطوّر الأنظمة الإعلاميّة وأنظمة الحواسيب، هندسة أخرى وطرق أخرى لتقسيم الكوكب إلى فضاءات سياديّة(40). فهي لا تسير كثيرا بالسّيطرة على الأراضي ومراقبة البحار والفضاء إلّا بانتشار السّيطرة على السّرعة وعلى الكائن الحيّ باعتباره جزئيّا

---

(40) انظر في هذا الخصوص:
Benjamin H. Bratton, *Le Stack. Plateformes, logiciels et souveraineté*, UGA Editions, Grenoble, 2019.

كحركة. إنّ الآلات الفضائيّة هي أكثر فأكثر آلات حاسبة، مجرّدة وواسعة الانتشار. فهي تعمل بتجزئة الفضاءات، خالقة في الأثناء أماكن مناسبة لكثير من الحركيّة لبعضها وأكثر جمودا لأخرى. ومن نتائج جدليّة السّرعة والجمود (أو الشلل) أن تكون الحياة ثقيلة بالنّسبة إلى الأناس "الإضافيين". ولم تعد الدّولة، في معاملتهم، مجبرة على كبح عنفها التأسيسي.

لا تقع أبدا معاملة الأجسام- الحدوديّة حسب خطّ يفصل الدّاخل عن الخارج. فتكون إحداها من الآن فصاعدا قابلة للذّوبان في الأخرى. وفجأة، تعمل شبكة القمع العادي وممارسات الجمود على قواعد أخرى. فتبدأ في أحيان كثيرة بتعميم ممارسات التّثبّت في الهويّة. وتستطيع هذه الأخيرة فتح الطّريق أمام الإيقاف التّحفّظي. وتقع أكثر فأكثر عمليات الانتشار الاستثنائي للشرطة خلال المظاهرات المدنيّة. ويقع خنق الاحتجاجات بالغازات المسيلة للدّموع. وتكون عمليّات المراقبة، والاعتقالات، ومنع الحراك، والإيقاف التحفّظي، وإن استلزم الأمر، التحقيق الأوّلي والإحالة، أكثر فأكثر جزءا من سلسلة الشرطة- العدالة، خاصة خلال الأحداث الاحتجاجيّة.

ومن الآن فصاعدا، يمرّ السّلم الاجتماعي عبر أشكال جزئيّة للحرب الاجتماعيّة. ويوجد في صلب هذه الحرب الجسم الذي نديره لوضع الأصفاد، وذلك ليس دون إخضاعه مسبقا للتفتيش. ويقتضي الأمر بوضع العديد من الآليات في

حراك تسمح بممارسة تأويل القانون، أي على حافته الاعتباطيّة. وتسمح فعلا اعتباطيّة الشّرطة والإكراه القضائي بخلق مناطق قضائيّة غير محدّدة، تخوّل، بدورها، عقابا وقائيّا لأشخاص تحوّلوا إلى مشتبه فيهم، ولكن دون محاكمتهم وإدانتهم شكليّا[41].

ومن ناحية أخرى، ترتبط الحرب ضدّ الأجسام-الحدوديّة باقتصاد تكون به معدومة وله مهمّة تمويلها. وهكذا، تُفسّر، مثلا، الصناعة المتواصلة، وبيع معدّات وبرمجيّات أخرى تهدف إلى مطاردة وتحييد الأجسام الخبيثة. ونجد، في هذه الأسواق وهذه الورشات للوحشيّة، كلّ أنواع الأدوات. وتكون كاشفة تلك التي تسمح بتقطيع الأجسام، ونشر سحب من الغاز فوق رجال ونساء، واضعين جزمًا على الرّقبة، وكلّ الأدوات التي تسمح بتحديب الجسم، وتكسيره، وتشويهه بصفة عنيفة، ودفعه إلى وجود عار. وتهدف هذه الأدوات، بما فيها تجهيزات التّعذيب، إلى ترويع من كانوا حتى ذلك الحين خائفين، وإلى كسر الاحتمال، وتطويق الأجسام مثل حلقات من نار.

يتعلّق الأمر بكثير من القوى المُرهقة. ذلك هو مثال "الأصفاد الكهربائيّة للسدّادات" أو أيضا "شوكات مضادة للمظاهرات المتطوّرة"، خاصيّتها إرسال "صدمات كهربائيّة

(41) Didier Fassin, *Punir. Une passion contemporaine*, Seuil, Paris, 2017.

في اتجاه الفخذين"[42]، وقاذفات الغازات المسيلة للدّموع، ولا زال من الضّروري أن ينضاف إليها أجهزة التّعرّف على الوجه، ومنظومات إدارة هويّة مزعومة بأنّها معصومة عن الخطأ ومصنوعة من مكوّنات قابلة للتشغيل البيني، ووحدات قياس البصمات المتكاملة، مهمّتها القيام بتقابل دفاتر الحالة المدنيّة، والضمان الاجتماعي، وبطاقات التّعريف وجوازات السّفر أو أيضا تقنيّات تحديد المكان واقتفاء آثار الأجسام.

نلاحظ الأهميّة الممنوحة لمسائل السّكان في الفكر الهتلري والفاشي. ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار عمليّات الترحيل، وعمليّات أخرى من التصفية بالموت المزعوم طبيعيّا أو طرق أخرى مثارة بسوء التّغذيّة، وسوء المعاملات، وغياب الحمامية ضدّ الأوبئة، وندرة الغذاء والمجاعات[43]. فالوحشيّة شكل من الحرب الاجتماعيّة الكونيّة. وهي حرب جزيئيّة موجّهة في جزء كبير ضدّ من لم يجدوا أبدا مشترين، وهم يتمنّون بيع البضاعة الوحيدة التي يمتلكونها، بمعنى قوّة عملهم. وربّما مثّل تحوّلهم إلى أجسام- حدوديّة أكبر تحدّ لسياسة السّكان المعاصرة.

---

(42) https://www.amnesty.fr/presseunion-europeenne-amnesty-découvre-que-des-equipement..

(43) Paul Vincent, «Guerre et population», *Population*, vol. 2, nº 1, 1947, p. 9-30.

6

حركات الانتشار

تزامنا مع الاختلال المناخي، ستكون إذن إدارة التنقّل البشري المشكلة الأساسيّة للقرن الواحد والعشرين. فعلى المستوى العالمي، أدّت التأثيرات المركّبة "للرّأسماليّة المطلقة" (إتيتان باليبار)، وتكثيف السّرعة، وإتخام اليومي بالتكنولوجيات الرّقميّة والإعلاميّة إلى تسريع وتكثيف التّواصل. فتضاعفت التّنقلات المحليّة والإقليميّة والعالميّة. وظهرت معها شبكات معقّدة للمبادلات من جميع الأشكال. ولم تكن الفضاءات الكبرى والصغرى في تصادم فحسب، بل تتشابك أيضا، راسمة في الأثناء خرائط كنّا تعوّدنا عليها.

الإنسانيّة في قفص

ليس كلّ شيء، لا محالة، ناعما. فالشّذوذ الجسدي متواصل. والعديد من المسالك معرقلة. وتتصلّب عمليّات المراقبة والاكراهات، ويتضاعف زمن الحجز[1]، وعمليّات

---

(1) Julie Peteet, «Camps and enclaves: Palestine in the time of closure», *Journal of Refugee Studies*, vol. 29, nº 2, 2016, p. 208-228.

التّرحيل أيضا[2]. ولم تتوقّف قوى العالم لضمان حدودها عن الاستعانة بالخارج. ولم تعد البحار والمحيطات العلامات الوحيدة لهذا التّصلّب[3]. ففي عصر التّسارع الكبير أمست الجزر، والجبال، وخاصة الفيافي والمناطق القاحلة الأخرى من الآن فصاعدا، مصانع هي الأكثر فتكا[4]. وفي عدّة مناطق من العالم، أصبحت عمليّات المحاصرة حتى الآن القاعدة. فالزّمن مسحوق باستمرار[5]، على أن يقتصر فيه كلّ قسم من البشريّة على تحقيق وجودها محاطة بأسلاك حديديّة شائكة، وكأنّها في أقفاص[6]. وانتهى المعتقل، بالخصوص، إلى اتخاذ شكل قفص كبير، أين تدور الكائنات البشريّة في حلقة، مثل الحيوانات المحاصرة، وهو مكان تصادم الفضاءات، حيث تأتي الأرواح لكي تصطدم بجدران كبيرة

---

(2) Alison Mountz, «The enforcement archipelago: Detention, haunting, and asylum on islands», *Political Geography*, nº 30, 2011, p. 118-128.

(3) . Jenna M. Lloyd et Alison Mountz, *Boats, Borders, and Bases: Race, the Cold War, and the Rise of Migration Detention in the United States*, University of California Press, Oakland, 2018.

(4) انظر في هذا الإطار:
Eyal Weizman et Fazal Sheikh, *The Conflict Shoreline: Colonization as Climate Change in the Negev Desert*, Steidl & Cabinet Books, New York, 2015.

(5) حول طبيعة المؤقتة على الدّوام لهذه الأنماط للوجود:
Sandi Hilal et Alessandro Petti, *Permanent Temporariness*, Art and Theory Publishing, Stockholm, 2019.

(6) انظر:
Helga Tawil-Souri, «Checkpoint time», *Qui Parle*, vol. 26, nº 2, 2017, p. 384-422.

وصغيرة، وحواجز **ونقاط تفتيش**، تاركة خلفها شظايا الزّمن، وأحيانا أجسام من فتات، تحت تأثير العديد من حالات الحصار، والإغلاق المفاجئ، والحصار المتكرّر، وإن استلزم الأمر، القنابل العنقوديّة، وبإيجاز الخراب[7].

إنّ **الإنسانيّة في قفص**، هي فلسطين عموما، وغزّة خصوصا، اللتان صارتا الشّعار بامتياز. إنّهما من أكبر المخابر لنظام الوحشيّة في طور الاستكمال التكنولوجي، والذي يصبو إلى أن يصير عالميّا. فالأمر يتعلّق بتعميم ونشر، على مستوى الكوكب، المناهج المنمّقة في إطار إدارة "الأراضي المحتلّة" والحروب الضاريّة الأخرى. وارتكز نظام الوحشيّة هذا على تشقّق المجالات التي صارت غير قابلة للعيش عمدا، وعلى الفرقعة المكثّفة لأجسام مهدّدة باستمرار بالبتر، مجبرين على العيش في الحفر، وأحيانا تحت الأنقاض، وفي الفجوات والشقوق المزعزعة للأوساط المعرّضة إلى جميع أشكال الخراب، والاستسلام، وبإيجاز للتشريح الكوني[8]. وإن دخلنا فعليّا في عالم شبكي، يكون هذا الأخير في نفس الوقت مقاطعات [مسيّجة]، ومناطق

---

(7) Abdourahme Nasser, «Spatial collisions and discordant temporalities: Everyday life between camp and checkpoint», *International Journal of Urban and Regional Research*, vol. 35, nº 2, 2016, p. 453-461.

(8) انظر:
Adi Ophir, Michal Givoni et Sari Hanafi, *The Power of Inclusive Exclusion: Anatomy of Israeli Rule in the Ocupied Palestinian Territories*, Zone Books, New York, 2009.

محو، بما فيه الذّاكرة، ومسالك مغلقة، وطرق مسدودة، وحدود متحرّكة ومتقلّبة ومتناثرة. وليس هنالك من حاجة للتكرار، فإنّ تقسيم المجالات المعتبرة، في حدّ ذاتها، نتيجة مباشرة، هو العنصر الأساسي للنّظام الكوني المعاصر لعمليّة القنص[9].

إنّ الاستئصال الإقليمي والقدرة على القرار الممكن أن تتكوّن، في أيّ مكان وأيّ ظرف، هي مسبقا في صلب صراعات السّيادة[10].

إنّ الاجتثاث الإقليمي والقدرة على القرار الممكن حصوله، في أيّ مكان وأيّ ظرف، هو مسبقا في صلب صراعات السّيادة. وما زال لم يقع إلغاء حقّ المواطنين الأجانب لاجتياز حدود بلد آخر والدّخول إلى إقليمه بصفة رسميّة. ولكن يصبح أكثر فأكثر، مثلما أظهرته العديد من الأحداث المميّزة لهذا العصر، جزائيّا وربّما معلّقا أو ملغى في أيّ لحظة وتحت طائلة أيّ حجّة[11]. ذلك لأنّه جزئيّا بدأ يتجسّم نظام أمني عالمي جديد.

---

(9) Ruben Andersson, «Profits and predation in the human bioeconomy», *Public Culture*, vol. 30, nº 3, 2018, p. 413-439.

(10) Pauline Maillet, Alison Mountz et Kira Williams, «Exclusion through Imperio: Entanglements of law and geography in the waiting zone, excised territory and search and rescue region», *Social & Legal Studies*, 7 février 2018, https://doi.org/10.1177/0964663917746487.

(11) Ruben Andersson, «The new frontiers of America», *Race & Class*, vol. 46, nº 3, 2005, p. 28-38.

يتميّز هذا النّظام بالاستقواء بالخارج، والعسكرة، والرّقمنة، وبتقزيم الحدود، والتّجزئة الدّائمة، والتّضييق على الحقوق وانتشار معمّم تقريبا لتقنيّات التّتبّع والمراقبة، معتبرة كطريقة مثلى للحيلولة دون جميع المخاطر، بما فيها الهجرة السّريّة[12]. وتكون مهمّتها الأولى تيسير تحرّك بعض الطبقات العرقيّة مع منع أخرى أو أن لا تُمنح لهم إلّا بمقابل شروط أكثر فأكثر قساوة[13]. وفتح هذا النّظام الأمني الطريق لأشكال ماكرة، وتكون أحيانا منفتحة على تشويه السمعة وعلى العنصريّة، مستهدفة أحيانا كثيرة أشخاصا سواء محرومين مسبقا من حقوقهم أو يعيشون الهشاشة بشكل خاص .وتقع صيانة هذا العنف ببديهيات جديدة للحجز والاعتقال، والنفي والطّرد، المستوحاة أحيانا من ممارسات العزل، والفرز، والحظر، والتطويق أو الحجب الموروثة عن الاستعمار[14]. فوصل عدد القتلى الآلاف عند حدود أوروبا،

---

(12) Ruben Andersson, *Illegality, Inc.: Clandestine Migration and the Business of Bordering Europe*, University of California Press, Oakland, 2014.

(13) Amade M'charek, Katharina Schramm et David Skinner, «Topologies of race: Doing territory, population and identity in Europe», *Science, Technology, & Human Values*, vol. 39, nº 4, 2014, p. 468-487.

(14) Nicholas De Genova, «Migrant illegality and deportability in everyday life», *Annual Review of Anthropology*, nº 31, 2002, p. 419-447; David Lloyd et Patrick Wolfe, «Settler colonial logics and the neoliberal regime», *Settler Colonial Studies*, vol. 6, nº 2, 2016, p. 109-118.

بل وأيضا في مناطق العبور[15].

ووقع اليوم إذن تعريف عمليّة التّنقّل تحديدا بعبارات جيوسياسيّة، وعسكريّة ، وأمنيّة أكثر منها بعبارات حقوق الإنسان، وحتى الاقتصاديّة. فنظريّا، يكون الأشخاص الذين يمثلون أقلّ خطورة لديهم كلّ قابليّة للتنقّل. وفي الواقع، يساعد تقييم الخطر بالخصوص على تبرير معاملة متفاوتة وعنصريّة ترتكز أحيانا على معايير غير معلنة عن لون البشرة أو عن الدّيانة. وبينما يتضح التوجّه نحو البلقنة والانكماش على الذّات، تصير إعادة التّوزيع المتفاوت لقدرات التّفاوض على الحدود على المستوى العالمي ميزة مهيمنة لعصرنا. ففي بلدان الشمال، لم تتوقّف العنصريّة ضدّ المهاجرين عن اكتساح المجال. فقد وقع إخضاع "غير الأوروبيين" و"غير البيض" إلى أشكال من العنف الأمني والتّمييز العنصري الصّارخ نسبيّا، وأحيانا إلى إعدامات بالتّمام والكمال[16].

---

(15) انظر أعمال: Amade M'charek, «"Dead-bodiesat-the-border": Distributed evidence and emerging forensic infrastructure for identification», in Mark Maguire, Ursula Rao et Nil Zurawski (dir.), *Bodies of Evidence: Anthropological Studies of Security, Knowledge and Power*, Duke University Press, Durham, 2018, p. 89-110. Lire également Tamara Last et *al.*, «Deaths at the borders database: Evidence of deceased migrants' bodies found along the southern external borders of the European Union», *Journal of Ethnic and Migration Studies*, vol. 43, nº 5, 2017, p. 693-712.

(16) انظر:
Alves Jaime Amparo, *The Anti-Black City: Police Terror and Black Urban Life in Brazil*, University of Minnesota Press, Minnesota, 2018.

وحتى البلاغة العنصريّة، فقد تغيّرت، وانضاف إلى الخطاب القديم الخاص بالبشرة مفاهيم الاختلاف والاغتراب المرفقة علنا بعبارات ثقافيّة أو دينيّة[17].

وعلى مستوى آخر، تمثّل التنقلات من الآن فصاعدا إحدى الرّهانات المركزيّة للصّراع الاجتماعي الكبير. وأصبحت عمليّة إعاقة تدفّق التّنقّل والعمل على حصر إحدى الطّرق الأكثر وضوحا لأشكال جديدة من التجنيد، هدفها النهائي عزل النظام الرأسمالي. ولم يتعلّق الأمر بمحاصرة التّدفّق، والطرقات، والمراكز التجاريّة والنّقاط الحسّاسة لتنقّل رأس المال والبضائع أو باحتلال فضاءات رمزيّة فحسب، بل وأيضا بمحاصرة الزمن ذاته، وتقليص السّرعة، بما أنّ الزّمن والسّرعة جزء من البنية التحتيّة والبرمجة الرأسماليّة المعاصرتين[18]. ويهدف توطيد الزّمن إلى تغيير المجال وكذلك طبيعة الصّراعات. وحتى ننتهي مع الحاضر أو (إعادة) احتلال المستقبل، فإنّ الثورة لم تعد كافية. بل يتعلق الأمر أيضا بإزالة السّحر عن الجماهير. ولم تعد، ظاهريّا، الأشكال الجديدة للثورة في حاجة إلى زعماء أو

---

(17) Paul Gilroy, Tony Sandset, Sindre Bangstad et Gard Ringen Hibjerg, «A diagnosis of contemporary forms of racism, race and nationalism: A conversation with professor Paul Gilroy», *Cultural Studies*, vol. 33, nº 2, 2019, p. 173-197.

(18) انظر:

Keller Easterling, Extrastatecraft: *The Power of Infrastructure Space*, Verso, Londres, 2014.

ممثّلين. فقد صارت الزّعامة والتفويض محلّ تشويه. وينضاف إلى شكل المجلس النّيابي (أو ما يحلّ محلّه) أشكال جديدة أخرى. وذلك هو حال الشكل- الشبكة. ويقع تجنيد العديد من الحوامل الرّقميّة، مثل الهواتف الجوّالة ومنصّات أخرى. وتتميّز في هذه الأجسام الجديدة فوريّة العمل بالنسبة إلى الباقي. فمُنحت الأولويّة إلى المحلّي والعرضي، بما أنّ الهدف هو مضاعفة نقاط الارتكاز في الفضاءات المقيّدة. وعلاوة على ذلك، فإنّ عدم القدرة على التكهّن هو المصدر. ويكون احتلال المجالات التي تُطرد منها الجموع مهمّة. ويكون الحصار في هذه المحاكمة سلاحا حاسما. وهو شكل لإيقاف آلات خاضعة للتنقّل - الموانئ، والمطارات، ومعامل التكرير، ومحطات السكك الحديديّة والمراكز اللوجستيّة. فيسقط النّظام عند حافة الهاوية. ويمكن فيما بعد صياغة التحكّم في الأمور انطلاقا ممّا هو محلّي أو ترابي أيضا، إذ انطلاقا من المحلي أو الترابي، يمكن، أفقيّا، إعادة تنظيم الحياة ماديّا ورمزيّا[19].

يخصّ الأمر، في سياقات أخرى، تكثيف التحرّكات والتّنقّلات، أو بتغيير العلاقات أيضا بين ديناميكيّات التحرّك

(19) Bruno Latour et Camille Riquier, «Une Terre sans peuple, des peuples sans Terre», Esprit, no 1-2, 2018, p. 145-152. Consulter également Jakob Valentin Stein Pedersen, Bruno Latour et Nikolaj Schultz, «A conversation with Bruno Latour and Nikolaj Schultz: Reassembling the geo-social», Theory, Culture & Society, 25 août 2019,. .https://doi.org/10.1177/0263276419867468.

والجمود. وهو فعلا الوضع في إفريقيا، أين تكون هذه العلاقة هيكليّا هشّة، ومتقلّبة وأحيانا وقتيّة. ليس لأنّ ممارسات الجمود قد تكون قسرا مناوئة لممارسات التّنقّل، ولكن لأنّه من الواجب إضافة فئات أخرى إلى هذه الفئات الأساسيّة، مثل "المرور" أو "العبور"، إن أردنا الأخذ بعين الاعتبار السلسلة المعقّدة للتنقّلات. فالحضور الانتقالي في منطقة ما، هو بالفعل هنا أيضا حاسم أكثر من الإقامة في مكان واحد. إذ في فترات التحرّك، يمكن أن تتوالى بالفعل أمام كثافة وتكرار التنقّلات فترات طويلة من الجمود، ولا يتلخّص الكلّ عند الانطلاق وعند الوصول. فيكون جمود البعض أحيانا مصدرا ضروريّا لحراك الآخرين[20].

وأكثر من ذلك، لم تتوقف العلاقة بين المتحرّك والثابت من التعقّد كلّما أقدمت التّحركات الدّائريّة لتطعيم التحرّكات المؤقتة، فتقوم جميعها بجلاء لعب مهام حاسمة في إعادة الإنتاج الاجتماعي والاقتصادي للعائلات، وحتى في استراتيجيات نجاتها. ولم يكن تنقّل البعض منها وسيلة ضمان لبقاء الآخرين فقط. فالتنقّل والجمود، "يقع التفاوض فيهما، واقتسامهما وتنظيمهما" بين "أعضاء مجموعة، طائفيّة أو عائليّة". وتوفّر أيضا ممارسات التّنقّل مكانا لانفجار مجالات الحياة. ولم تعد الإقامة الفرديّة والدّائمة معيارا.

---

(20) . Céline Bergeron, «Les rapports mobilité/immobilité dans le cas des situations résidentielles spécifiques: retours et perspectives de recherche», *e-Migrinter*, nº 11, 2003, p. 28-35.

ويضع تعدّد الإقامات وتشتّت العائلة في المحكّ، أكثر من أيّ وقت، مبدأ التحضّر[21]. ولكلّ هذا، من الواجب أن لا يُضاف مكان مخصّص تحتلّه النّساء في سياقات التّنقلات والتّحرّكات فحسب، بل وأيضا نتائج التحرّكات المجاليّة في ديناميكيات تغيير علاقات النّوع[22].

التوطين بملقط الجنين

يتعلق الأمر الآن، على المستوى العالمي، بحرمان عدد كاف من الأشخاص من حقّ التحرّك، أو على الأقلّ بتزويده بقواعد صارمة من الراجح في أن تحجز إقامة أكبر عدد من غير المرغوب فيهم[23]. وعندما يقع الاعتراف بهذا

---

(21) انظر العدد الخاص من مجلة *Espaces et Sociétés*, n 120-121, 2005، وانظر أيضا:
Jean-Pierre Lévy et Françoise Dureau (dir.), *L'Accès à la ville. Les mobilités spatiales en questions*, L'Harmattan, Paris, 2002; et Mathis Stock, «L'habiter comme pratique des lieux géographiques», *EspacesTemps.net*, 18 décembre 2004, https://espacestemps.net/document1138.html.

(22) انظر:
Hélène Guetat-Bernard, «Mobilités spatiales, organisation familiale et ruralités des Suds: un regard par les rapports de genre», *Geocarrefour*, vol. 88, nº 2, 2013.

(23) لا يمكن، في هذا السياق، أن تقتصر فئة "غير المرغوب فيهم" على اللاجئين الباحثين عن ملجأ، انظر:
Michel Agier, *Gérer les indésirables. Des camps de réfugiés au gouvernement humanitaire*, Flammarion, Paris, 2008; ou encore Reece Jones, *Violent Borders: Refugees and the Right to Move*, Verso, Londres, 2016.

الحقّ في التحرّك ويُمنح، تُبذل مجهودات جبّارة لجعل حقّ الإقامة مبهما وهشّا. وفي هذا النّمط العنصري للتّنقّل العالمي، وقع معاقبة إفريقيا مرّتين، من الخارج ومن الدّاخل. فالعديد من الدّول الإفريقيّة المجانبة للصحراء الكبرى في حالة ضغط لكبح المهاجرين. فبالأمس، كانت أوروبا والولايات المتّحدة في حاجة للأجسام الإفريقيّة لاستصلاح المزارع، وزراعة القطن، وجني التّبغ والقصب السّكري. فقد كانوا عبيدا. يشترونهم مقابل خردوات، أو يحصلون عليهم إثر مآثر صيد للإنسان داخل القارّة. واليوم، قليلة هي البلدان في العالم التي ترغب في الأفارقة على أراضيها، لا من اللاجئين أو المضطهدين الهاربين من أوساط لم تعد مأهولة بحثا عن ملجأ، ولا بالخصوص كضحايا حرب اقتصاديّة وبيئيّة تقودها الأمم الأوروبيّة والمصنّعة في أراضيها منذ بضعة قرون[24].

قرّرت إذن أوروبا عسكرة حدودها، وانتشارها بعيدا. فهي لم تتوقّف عند البحر الأبيض المتوسّط، بل أقيمت حاليّا على طول الطرقات الصّعبة والمسارات الملتوية التي يجتازها المرشّحون للهجرة. وإن سلك، مثلا، مرشّح إفريقي للهجرة الطريق من يولا إلى كادونا، ثمّ من كادونا إلى أغاديس

(24) انظر:

Michael Marder, «Being dumped», *Environmental Humanities*, vol. 11, nº 1, 2019; Brenda Chalfin, «"Wastelandia": Infrastructure and the commonwealth of waste in urban Ghana», *Ethnos*, vol. 87, nº 4, 2017, p. 648-671.

واتجه نحو إقليم طرابلس، عندئذ تمتدّ الحدود الأوروبيّة الجديدة إلى يولا وتتحرّك شيئا فشيئا مع الأماكن والفضاءات التي يجتازها المرشّح للهجرة. وبعبارات أخرى، فإنّ الجسم الإفريقي، وكلّ إفريقي منتقيا فرديّا، وجميع الأفارقة كطبقة عنصريّة، هو الذي يمثّل من الآن فصاعدا حدود أوروبا. فهي إذن حدود متحرّكة، متنقّلة، ومتجوّلة، محمولة لا بخطوط محدّدة، ولكن بأجسام في حالة حراك[25].

لم يكن هذا النّوع الجديد من الجسم البشري "الجسم-البشرة" لعنصريّة البشرة فحسب، بل وبالخصوص "الجسم-الحدود"، هذا الأخير الممنوع من الإيواء أو الحماية (ومن هنا انتشار قوانين ضدّ حسن الوفادة)، ومن الإنقاذ من الغرق في عرض البحر أو التّكلس وسط الصحراء. وقرّرت أوروبا بأنّها ليست مسؤولة عن حياة المرشّحين للهجرة، ولا عن أجسامهم المنهكة التي لم تتوقف من ناحية أخرى عن استغلالها صناعيّا. فبعد أن يتخطون بشجاعة الحواجز الطبيعيّة المتمثلة في الصّحراء والبحر، ارتأت أوروبا، بأن يتحمّل هؤلاء مخاطر مصيرهم، شريطة أن يحصل هذا بعيدا عنها،

---

(25) انظر حول هذا الموضوع أعمال:
William Walters, «Migration, vehicles, and politics: Three theses on viapolitics», *European Journal of Social Theory*, 10 novembre 2014, https://doi.org/10.1177/1368431014554859. Voir également Martina Tazzioli, «Spy, track and archive: The temporality of visibility in Eurosur and Jora», *Security Dialogue*, vol. 49, nº 4, 2018.

خارج أنظارها، في بلد آخر، إن اقتضى الأمر[26]. وبما أنّها ليست جزيرة، أرادت أوروبا بلوغ هذا الهدف بإعادة إحياء وإعادة انتشار تصوّر جغرا-عنصري وجغرا- أسر، في ظروف غير مسبوقة وعلى أوسع نطاق، نمّقته إفريقيا الجنوبيّة، في زمانه، عند عصر التمييز العنصري[27]، أو حاولت وضعه العديد من الدّول الاستعماريّة في ظروف سياسات التحضّر المفروضة.

لم يكن هدف هذه السّياسات الشّعوب المعتبرة من الرّحل فقط. إذ بصفة عامّة، كان الاستعمار شكلا من الحكم صُمّم لشعوب متحضّرة. فهو يتسامح بصعوبة مع أشكال وجود سائبة، وكان، من البداية إلى النهاية، مدفوعا بهاجس تركيز وتوطين السّكان. ولكن، ضمّت الأراضي التي استأثرت بها الدّول الاستعماريّة العديد من أنماط حياة تعتمد بشكل وثيق على إمكانيّة التحرّك. فقد كان التنقّل يمثّل حجر الزّاوية سواء للحياة المنزليّة أو للحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وأكثر من ذلك، يمكن للتّرحال، وشبه الترحال والرّعي الزّراعي أن يتعايش مع التّحضّر. وفي مثل هذه السّياقات، سعت الدّولة

---

(26) في اتجاه مواز، انظر:

Gilbert Caluya, «Intimate borders: Refugee im/mobility in Australia's border security régime», *Cultural Studies*, vol. 33, nº 6, 2019, p. 964-988.

(27) انظر:

Surplus People Project, *Forced Removals in South Africa*, vol. 1, Le Cap, 1983. Puis, Hilton Judin, *Blank: Architecture, Apartheid and After*, NAi, Rotterdam, 1988.

الاستعماريّة إلى استيعاب الهياكل الأهليّة في شبكتها. فأشركت النّخب القديمة التي منحتها امتيازات جبائيّة، وسياسيّة وقضائيّة، وحتى عقاريّة. وبذلك، بحثت عن السّيطرة على أشكال التقسيم الاجتماعي الطبقي[28].

يحتاج التحضّر إلى إحصاء الأشخاص وإلى تقسيم إداري جديد. ويهدف التوزيع الإداري الجديد إلى جعل المجال الإداري مناسبا للقرابة. وبالتّالي، وقع تعيين مجموعة من الأنساب أو المحاكم لأراض معيّنة وبصفة متبادلة. ولم تكن جميع الإجراءات، المتّخذة بهدف تأثير كلّ كيان أو سلطة أبويّة لمجالها، قسريّة. وتمثّل بعضها في نشأة مدن صغيرة حول بنى تحتيّة أساسيّة، وبوضع تشجيعات للدّخول في منظومة الرّواتب[29]. وكان الهدف المباشر هو التحكّم في السّكان، أو في المجال المعنيّ. وكان هذا التّمكّن قد وُضع أحيانا تحت مسؤوليّة الزعماء المحلّيين، وكانت مهمّتهم مراقبة السّكان، ويحكمون بتفويض، وكانوا، باختيارهم من بين النّخب المحليّة، مرغمين على طاعة أسيادهم الجدد.

شمل مشروع التحضّر الإجباري أشخاصا، أُخذوا على

(28) انظر على سبيل المثال:
Isabelle Ohayon, «Formes et usages du territoire à la période coloniale: la sédentarisation des Kazakhs», *Cahiers d'Asie centrale*, nº 23, 2014.

(29) انظر حول هذا الموضوع:
Frédéric Sandron, «L'immobilité forcée: la sédentarisation des nomades dans le Sud tunisien», *Autrepart*, nº 5, 1998, p. 63-77.

انفراد، ولكن بالخصوص فئات اجتماعيّة، **وفئات عرقيّة**. لم يكن الامر يتعلّق باحتلال أو ممارسة تسلّط مباشر على الأراضي. ولم يتعلّق الشأن **بالسيطرة على المناطق كما هي، ولكن بالهيمنة على أجسام الرّعايا (الأهالي) المجندين عنصريّا**، والذين كان المنع الحقيقي والفعلي بالتّنقّل دون ترخيص مُطبّقا بتفويض. وأحيانا، هيّأت السّياسات الاستعماريّة للتحضّر القسري الطريق لحجز السكان المعتبرين من القبائل في محميات. وكانت هذه الأخيرة، المصمّمة للسّكان المتخلفين، بالأساس مناطق عسكريّة. فلا يجب بالفعل تغيير علاقة الأهالي بالفضاء فحسب، بل وأيضا استعمال المقاطعة كوجهة للغنيمة، والخضوع والقبليّة[30].

التّطويق

ما من واحدة من جميع التحدّيات التي واجهتها إفريقيا في بداية هذا القرن، كانت عاجلة وثقيلة النتائج مثل حركيّة سكانها[31]. سيرتبط مستقبل القّارة المباشر، في خطوطه العريضة، بقدرتها على تحرير قوى التّنقّل، وتهيئة المناطق والفضاءات على النّحو الذي يستطيع الناس فيه التّنقل كلما

(30) Hedi Timoumi, «La colonisation française et la sédentarisation des semi-nomades des steppes tunisiennes (Cherahil, 1905-1925)», *Cahiers de la Méditerranée*, nº 6, 1973, p. 95-112.

(31) يستعيد هذا القسم جزءا من نصّ بعنوان: «Purger l'Afrique du désir d'Europe», *Le Débat*, nº 205, 2019, p. 100-107.

كان ذلك ممكنا، وإلى أبعد حدّ، وأسرع قدر الإمكان، وبصفة مثاليّة، دون أيّ إعاقة. وإن اتخذ شكل ارتداد عام أو أن يكون مخطّطا له، فإنّ وضع السّكان في حالة تنقّل يكون محتّما، حتى وإن كان بسبب تأثيرات مركّبة - وعلاوة على ذلك متوقّعة - للنموّ الديموغرافي وتكثيف الافتراس الاقتصادي وديناميكيات التغيير المناخي.

وعلاوة على ذلك، سوف لن تتناول فقط الصّراعات الاجتماعيّة الكبرى في إفريقيا، خلال هذا القرن، تغيير الأنظمة السياسيّة، وإعادة توزيع الموارد واقتسام الثروات. بل ستتناول أيضا الحقّ في إمكانيّة التّنقل. ولم يوجد حتى ذلك الحين إنشاء رقمي لا يتماشى وعمليّات التّنقل. وسيثير طلب إمكانيّة التّنقل توتّرات عميقة، ستؤثّر سواء على التوازنات القادمة للقارّة أو على توازنات مناطق أخرى من العالم، مثلما أقرّته بعد الأزمة المزعومة للهجرات.

ولا يزال من الضّروري، لفهم جيّد لآثارها، عدم الاهتمام بالخطابات المالتوسية الجديدة، الحاملة أحيانا لتصوّر عنصري وهمي، لم يتوقف عن الانتشار. وفي هذا الصّدد، فإنّ "الاندفاع نحو أوروبا" أسطورة عظيمة. فإن كان مستقبلا أحد سكّان الكوكب من بين أربعة إفريقيّا، فلا يمثّل ذلك مسبقا أيّ خطر على أيّ كان. وعلى أيّ حال، ففي السّاعة الرّاهنة، من بين 420 مليون ساكن في أوروبا الغربيّة، يكون قرابة الواحد بالمائة من أفارقة جنوب

الصّحراء. ومن بين 1,277,292,130 ساكن تعدّهم القارّة، فإنّ 29,3 فقط يعيشون في الخارج.

ومن بين 29,3 مليون، 70 بالمائة منهم لم يسلكوا طريق أوروبا ولا طريق أيّ مكان آخر من العالم. فقد أقاموا في بلدان أخرى من إفريقيا[32]. وفي الواقع، إضافة إلى أنّها نسبيّا قليلة السكّان مقارنة للثلاثين مليون كيلومتر مربّع من مساحتها، فإنّ إفريقيا قليلة الهجرة. ومقارنة بمجموعات قارّية أخرى، فإنّ تنقّل الخيرات والأشخاص تتعرّض فيها إلى كمّ من العراقيل، وإنّه لمن دواعي الأزمنة أن يتمّ تفكيك هذه العقبات. فعديد من المناطق ليست إطلاقا مستصلحة. وتمتلك العدد القليل جدّا من طرق المواصلات. ويتمّ النّقل في أحسن الحالات، عن طريق حيوانات بحمولة، وإن أمكن ببردعة، عندما لا يكون ظهر المرأة. وتكون الطّرقات، أينما وُجدت، معرّضة لجميع حوادث التّضاريس، وللغابات الكثيفة جدّا، ولفيضانات الأودية والأنهار، التي تمثل العديد من الحدود الدّاخليّة.

ولكن لا توجد غير العوائق الطبيعيّة. ففي دراسة

---

(32) United Nations, Department of Economic and Social Affairs, Population Division, «World population prospects», 2017; Marie-Laurence Flahaux et Hein De Haas, «African migration: Trends, patterns, drivers», *Comparative Migration Studies*, nº 164, 2016; Fabrizio Natale, Silvia Migali et Rainer Münz, *Many More to Come? Migration From and within Africa*, Joint Research Centre, Commission européenne, Bruxelles, 2018.

مخصّصة للاقتصاد السّياسي لحركة المرور بين شمال وجنوب كيفو (جمهوريّة كونغو الديمقراطيّة)، كشف بيير شوتان، وخانفيي مورايري وسعيد كوبويا إلى أيّ درجة كان مجال الطرقات الكونغولي مُعسكرا بقوّة. فقد حدّدوا خمسة أنواع من الحواجز. فمهمّة البعض منها فرض ضريبة حقّ العبور، سواء فيما يتعلّق بمرور مستعملي الطريق أو طرودهم. وارتبطت أخرى باستغلال الموارد الطبيعيّة. فتسمح بالبعض سواء تعلّق الأمر بعمّال المنجم أو الإنتاج. أمّا بالنسبة إلى حواجز الأسواق، فهي تُقام عند الدّخول و/أو عند الخروج من الأسواق الأسبوعيّة. ويجب أن نضيف إلى ذلك، المراكز المُقامة عند الحدود الخارجيّة لمناطق تحكّم مختلف الفاعلين المسلّحين. فهم لا يسمحون للأشخاص بعبورها إلا مقابل دفع مراسم العبور. وأخيرا، ينضاف إلى هذه المجموعة الحدود الإداريّة البسيطة بين جهتين لا مركزيتين[33].

كانت الحواجز، وهي المؤسّسات التي ظهرت مع الاستعمار، تُستعمل من قبل الدّولة الاستعماريّة كوسيلة لعرقلة وغربلة تنقّلات الخاضعين، بغاية التحضّر. وارتبط الأمر أيضا بعنصر أساسي في النّظام الجبائي، ومراقبة عُقد

(33) انظر التفاصيل في:
Peer Schouten *et al.*, *Tout ce qui bouge sera taxé: l'économie politique des barrières routières au Nord et Sud-Kivu*, IPIS/Danish Institute for International Studies, Anvers/Copenhague, décembre 2017.

حركة التّنقّل التي تأتي لمؤازرة السّلطات الرّاغبة في رفع الضّرائب بصفة مجدية. ففي ظلّ الدّولة الاستعمارية، خضعت حركة التّنقّل والمرور لا محالة إلى منطق الممرّات والأنفاق. فحيث ما وُجدت تربط البنى التّحتيّة (سكك الحديد، وطرق نادرا ما تكون بالإسفلت) بسرعة مراكز استخراج [المواد الأوّليّة] بموانئ التّصدير[34]. وكان تأثيرها على المحيط المباشر الذي تعبره قريبا من الصّفر. فقد كانت الأولويّة ممنوحة إلى العبور الأكثر جدوى، بما أنّ معظم المجالات الاستعماريّة تتميّز، في جوهرها، بتطويقها. وسيميّز هذا التّوتّر بين القار والمتحرّك بناء السّيادة الإقليميّة خلال فترة الاستعمار. وستُترجم تارة بكثير من المضايقات الكبيرة لحركة التّنقّل، وبالخصوص، عند عبور الحدود، وأخرى بعلاقات سهلة ومنحلّة بين الدّولة المركزيّة والهوامش الخاصّة بها[35].

ظلّ تطويق القارّة واقعا عظيما، وبقيت مؤسسة الحواجز قائمة بعد الاستعمار[36]. وتحيل أماكنها، بصفة أو بأخرى،

---

(34) انظر:

H. Laurens Van der Laan, «Modern inland transport and the European trading firms in colonial West Africa», *Cahiers d'études africaines*, nº 84, 1981, p. 547-575.

(35) انظر:

Roland Poutier, «Le panier et la locomotive. propos des transports terrestres en Afrique centrale», *Travaux de l'Institut de géographie de Reims*, nº 83-84, 1993, p. 41-61.

(36) Peer Schouten et Soleil-Perfect Kalessopo, The Politics of Pillage:

إلى أشكال متميّزة عن تنقّل القيمة. فهي مناطق إلزاميّة تتّبع حركة الأشخاص والثّروات المفوّض عليهم ضرائب، في صلب الدّوائر الاقتصاديّة ذاتها، المتحرّكة على الدّوام، والتي تحدث فيها المسافة وتعديل السّرعة كقيمة مُضافة. وإذن، لم يكن الأمر، هنا، خاصا بتحرير المكوّنات المتحرّكة للمجتمع، أو بالاستثمار في البنى التّحتيّة المتولّدة عن التدفّق والتنقّل، ولكن بخلق نقاط رسوخ واختناقات أخرى يُمارس في ثناياها الابتزاز والافتراس.

فلا تكثيف منطق استخراج المعادن، ولا، بدرجة أقلّ، مخطّطات الليبيراليّة الجديدة التي تحدّد من الآن فصاعدا عمل الدّول الإفريقيّة، أدّت إلى تخفيف التطويق الهامّ جدّا لإفريقيا. فمن ناحية، ومثلما فسّرته هيلين بلاسيزكينسز، فإنّ الأنماط المكتسبة للنّقل الموضوعة في الفترة الاستعماريّة، أمست محلّ استحسان. ولكن لم تحدث إقامة بنى تحتيّة جديدة حسب منطق رفع الحصار عن المناطق البعيدة والمهمّشة. فقد تمّت حسب "منطق السرعة ومردوديّة التّنقّلات". وبوضوح، يميّز هذا المنطق "تدفّق المعادن المربحة كثيرا، والأكثر عالميّة من الإمدادات التجاريّة والبنى التّحتيّة التي تسمح بذلك"، وبمقتضى التسريع المستمرّ لهذه

The Political Economy of Roadblocks in the Central African Republic, Danish Institute for International Studies, Anvers/Bangui, novembre 2017.

الإمدادات يمكن منح الأولويّة[37]. ومثلما هو الأمر في الفترة الاستعماريّة، ظلّ نظام التنقّل متميّزا بتجزئته وبتأثيرات النفق. فقد أقيمت البنى التّحتيّة لربط مواقع استخراج [المواد الأوّليّة] بالموانئ البحريّة المصدّرة. وارتفع قسم من الطّرقات المعبّدة بصورة ضعيفة وتطوّرت السّكك الحديديّة قليلا. فبقيت تكاليف النقل باهظة، ومعها تكاليف الهجرة.

ومن ناحية أخرى، تمحور اقتصاد استخراج [المواد الأوّليّة] حول جيوب تقع أحيانا في مناطق بحريّة. وتتميّز هذه الأخيرة بإعفاء جبائي تام قدر الإمكان من الشروط الملازمة[38]. ومثلما شرحه نيكولا دوتير، فإنّ الأمر يتعلّق بالتّحصّن من الأخطار المحتملة من قبل الوسط المضيّف، وهو شرط لوضع المورد في حالة تنقّل. فكلّ شيء يسير وكأنّ الجيوب موجودة في وسط خال ومعاد. فهي أوساط مصطنعة بالكامل تقريبا وكبسولات فضائيّة، تعمل كمناطق عازلة، ومعزولة عن محيطها المباشر، تحميها جميع أنواع العصابات، وجدران ومناطق دخول انتقائيّة. ولكنها تظلّ على اتصال ببقيّة العالم البعيد. ومثل كلّ منطق لليبيراليّة الجديدة، لا تمثل منظومات استخراج [المواد الأوليّة]، بالمعنى الدّقيق

---

(37) Hélène Blaszkiewicz, «La mise en politique des circulations commerciales transfrontalières en Zambie: infrastructures et moment néolibéral», *Géocarrefour*, vol. 91, nº 3, 2017.

(38) Hannah Appel, «Offshore work: Oil, modularity, and the how of capitalism in Equatorial Guinea», *American Ethnologist*, vol. 39, nº 4, 2012.

للكلمة، ممرّات ضيّقة. غير أنّها لا تساهم في مركزيّة أكثر قوّة دائما لأنشطة بعض النّقاط الحسّاسة للمنطقة. وإن ساهمت، دون شكّ، في إعادة تنظيم الفضاء لدى إفريقيا المعاصرة، فلم يكن ذلك لدعم حركة تنقّل الأشخاص. بل على العكس، ازدادت خطورة وضعيّة الجيوب الدّاخليّة للبلدان الإفريقيّة. وفي هذا السّياق، فإنّ تصوّر حياة أخرى في مكان آخر أمر، وتنظيم الذّهاب والتأهّب لطريق آخر أمر ثان. فلم يعد الذّهاب في متناول الجميع.

لقد قلنا بأنّ العديد من القيود الماديّة والبيئيّة ما زالت تحدّ بصفة جذريّة من إمكانيات التنقّل. كان ذلك بالخصوص هو الحال في بلدان الغابات. وبالرّغم من هذه القيود، كانت الشركات الإفريقيّة، طيلة تاريخها، أبعد ما تكون أشياء عازلة. بل على الأصحّ، لم تُعرف إلا بالحقيقة التي ستمثلها ما أمكن حقّا أن نسمّيه التنقّلات. فلم تتماسك مجموعات بشريّة ووحدات اجتماعيّة إلّا بفضلها. ولا تشير التّنقّلات إلى الحركة فقط، وإلى التحوّل من مكان إلى آخر، وإلى حركة التّنقّل، بل تحيل أيضا إلى ممارسات التوسّع وكذلك ممارسات التّكامل. وستكون علاقة الفضاء، في المجالات القاحلة الكبرى، ممثّلة في المجيء والذّهاب، وفي المقاطعات، والممرّات، المهيكلة إلى درجة أنّها كانت دوما أقطابًا معقّدة. وعلاوة على ذلك، لم تكن إطلاقا الصحراء الإفريقيّة الكبرى فضاء خاليا. لا من حيث السّكن البشري، ولا من حيث الموارد.

وخلافا لأسطورة عنيدة، لم تكن حصريّا خاضعة للهجرة. فنجد فيها دائما رحّلا وحضرًا. وهو ما ذكره فعلا دونيس ريتايي، وهو أنّ الصّحراء الكبرى كانت دوما مأهولة "بمحاور متميّزة" مرتكزة على "منشآت من الواحات والمدن". "إنّ مجموعة السّكن الصحراوي مرتبطة بمحاور تسير من شمال إلى جنوب الصحراء الكبرى (وجزئيّا من الشّرق إلى الغرب)، باعتبار أنّ الطّرق العابرة للصّحراء تتجمّع في مغزل عرقي محدّد: بربر في الغرب، طوارق في الوسط، وتورو في الشّرق"[39].

ليس مهمّا إذن إن حافظنا في أذهاننا على هذا الفرق بين الهجرات (الشرعيّة وغير الشرعيّة) وحركات التّنقّل. ويجب أن نفهم "بحركات التنقّل" سلسلة من العمليّات المعقّدة، يخترع بفضلها مجتمع، **عن طريق** الحركة والتّبادل، توازنا حيويّا مع مجالاتها، أو أنّها قادرة على وضع شكل لهذه المجالات وربطها ببعضها بعض. ومن الواجب عندئذ تصوّر حركات التّنقّل نحو المرونة الاجتماعيّة وفي اتجاه التّناغم أيضا. واقتضى الأمر، في جلّ الأزمنة، نسج شبكات من التحالفات. ولم تكن هذه التحالفات ضروريّة إقليميّا، لا لأنّ التفاوت مفقود على الإطلاق أو أنّها لم تكن أبدا مؤسّساتيّة. وفي الحقيقة، فهي راسخة البنية، مثلما برهن عليه

---

(39) Denis Retaillé, «L'espace nomade», *Géocarrefour*, vol. 73, nº 1, 1998, p. 72.

الحضور شبه الدّائم في المجتمعات الصّحراويّة لسكان خاضعين، أو لتفوّق فصائل مسلّحة، طيلة التاريخ. وعلاوة على ذلك، تهتمّ معظم الحروب بمراقبة الطّرق، ومعها، مسالك المبادلات. وانتهت بتراكم الأسرى، ونشأة سكّان خنوعين أو محميين، خاضعين لنظام الجزية. ولكن، حتى بالنّسبة إلى العبيد، من المستحيل ادعاء أيّ نقاوة من وجهة نظر الخلف. فالاندماج الثقافي حقيقة. ومثلما ذكّر به ريتايي، هنالك مكان لا للأسرى فقط، بل وكذلك للزّبانيّة، وحتى لأشكال من القرابة المزعومة بعقد.

وأكثر من ذلك، من المفترض اعتبار حركات المرور في علاقاتها البنيويّة منطق نمط الحياة المستقرّة. وفي الحقيقة، ما من واحدة هي دون الأخرى. فلا توجد أبدا سيطرة على الأراضي تتجنّب مراقبة نواة التّوطين. ويعتمد القنص ذاته على قدرة مراقبة الآثار، والرّواح والذّهاب، والمعابر والتّقاطعات، وبإيجاز تنظيم المبادلات. أضف إلى ذلك، فإنّ التنقّل والترحال، مثلما بيّنه العديد من الجغرافيين، لا يلغيان أبدا ضرورة الإقامة أو الارتباط. ويمكن أن يتخذا شكل بيوت "حيث يمكث الشّيوخ، وجزء من النّساء والأطفال". وهنا، يعيش أيضا "السكّان المنحدرون من العبيد الذين أصبحوا مزارعين في الواحات، موفّرين القمح والتّمور"[40].

(40) نفس المصدر، ص. 74..

انكماش العالم

لم تتوقّف اليوم الكلفة البشريّة للسّياسات الأوروبيّة لمراقبة الحدود عن التّفاقم، معزّزة في الطريق المخاطر التي تتكبّدها من الآن فصاعدا من قبل المهاجرين المحتملين. فلا نحتسب عدد من ماتوا خلال العبور[41]. ويجلب كلّ أسبوع نصيبه من الرّوايات المخيفة مثل بعضها البعض. فهي أحيانا حكايات رجال ونساء وأطفال غرقى، وعطشى، مسمّمين أو مختنقين على سواحل البحر الأبيض المتوسّط، وبحر ايجه، والمحيط الأطلسي، أو، أكثر فأكثر، في فيافي الصحراء الكبرى[42].

أصبح العنف في الحدود وبالحدود إحدى الميزات الواضحة للوضع المعاصر. وشيئا فشيئا، أخذت المقاومة ضدّ الهجرات المعتبرة غير شرعيّة شكل حرب اجتماعيّة مسوّقة من الآن فصاعدا على المستوى العالمي. فهي، الموجّهة ضدّ طبقات من السّكان أكثر منها ضدّ أشخاص، تمازج من الآن فصاعدا بين التقنيات العسكريّة والأمنيّة والتّقنيات البيروقراطيّة

---

(41) Carolina Kobelinsky, «Exister au risque de disparaître. Récits sur la mort pendant la traversée vers l'Europe», *Revue européenne des migrations internationales,* vol. 33, nº 2-3, 2017, p. 115-131.

(42) Charles Heller et Antoine Pécoud, «Compter les morts aux frontières: des contre-statistiques de la société civile à la récupération (inter)gouvernementale», *Revue européenne des migrations internationales*, vol. 33, nº 2-3, 2017, p. 63-90.

والإداريّة، محرّرة في الأثناء مداخل العنف البارد ومن حين إلى آخر الدمويّة.

يكفي، في هذا الصّدد، ملاحظة الآلة الإدارية الشاسعة التي تسمح كلّ سنة بدفع آلاف الأشخاص نحو اللاشرعيّة، والحال أنّهم مقيمون بشكل قانوني، وتواتر عمليّات الطّرد والنّفي في ظروف مذهلة حقّا، والإلغاء التّدريجي لحقّ اللجوء وتجريم حسن الوفادة[43]. ومن ناحية أخرى، ما القول في انتشار التّقنيّات الاستعماريّة لتعديل حركات الهجرة في العصر الإلكتروني، رفقة موكبها للعنف اليومي، مثل التفرّس المستمر في الوجوه، والمطاردة المتواصلة لمن ليست لهم أوراق، والإذلال المتكرّر في مراكز الحجز، والعيون الهائمة والأجساد المقيّدة للشّبان السّود الذين يقع جرّهم في أروقة مراكز الشّرطة التي يخرجون منها سواء بعين مكدومة أو بسنّ مكسور، وبفكّ محطّم، ووجه مشوّه، فيقع تجريد جمهرة المهاجرين من ثيابهم الداخليّة، وحتى أغطيتهم في عزّ الشتاء، ويُحرمون من الجلوس على المقاعد العموميّة، وتُغلق أمامهم حنفيات ماء الشرب عند اقترابهم منها؟

سوف لا يكون القرن لا محالة قرن عوائق التّنقّل، على خلفيّة أزمة بيئيّة وتطوّر السرعة. وسيتميّز أيضا بإعادة تشكيل

---

(43) Frédérique Fogel, *Parenté sans papiers*, Dépaysage, La Rochesur-Yon, 2019.

الفضاء عالميّا، والتّسريع المستمرّ للزّمن، وانقسام ديموغرافي عميق. وفي الواقع، ستضمّ، في آفاق 2050، قارتان قرابة ثلثي البشريّة. وستحتسب إفريقيا جنوب الصّحراء 2،2 مليار من السّكان، أي 22 بالمائة من سكّان العالم. وبداية من سنة 2060، ستكون من بين المناطق المأهولة جدّا في العالم. وستكون الإمالة الديموغرافيّة للبشريّة لفائدة العالم الإفريقي-الآسيوي واقعا ملموسا. وسيكون الكوكب منقسما إلى عالم الشيوخ (أوروبا، والولايات المتّحدة، واليابان وأجزاء من أمريكا اللاتينية)، وعالم مستجدّ سيضمّ السّكان الأكثر شبابا للكوكب. وسيتواصل الانهيار الديموغرافي لأوروبا وأمريكا الشماليّة بلا هوادة. وعلى العكس، فإنّ الأرض على مشارف هجرات جماعيّة جديدة.

تمثّل الشيخوخة السريعة لأغنى أمم العالم حدثا ذا نتائج عظيمة. فهي عكس الاهتزازات الكبرى التي أثارتها الفوائض الديموغرافيّة للقرن التّاسع عشر التي أدّت إلى الاستعمار الأوروبي لأجزاء كاملة من الأرض. وأكثر ممّا مضى، ستكون إدارة التحرّكات البشريّة الوسيلة التي سيقع من خلالها وضع تقسيم جديد للعالم. وستقسم عمليّة كسر جديدة ومن مستوى عالمي البشريّة. وستضع في المواجهة من يتمتّعون بحقّ تام في التنقّل ونتائجه المباشرة، والحقّ في السّرعة، وأولئك الذين، على أسس عنصريّة بشكل عام، سيتمّ إقصاؤهم من التمتّع بهذه الامتيازات. إن الذين وضعوا أياديهم على وسائل إنتاج السّرعة وعلى تقنيات التنقّل

سيصيرون الأسياد الجدد للعالم. وسيحدّد هؤلاء بمفردهم من يستطيع التّنقل، ومن لا يرغم على الجمود، ولا يستطيع التّنقل إلا بشروط أكثر فأكثر قساوة.

وستمثّل إدارة التنقّلات إذن على المستوى العالمي، بنفس مستوى الأزمة البيئيّة، إحدى التّحدّيات الأساسيّة للقرن الحادي والعشرين. فإعادة تنشيط الحدود، هي إحدى الإجابات على المدى القصير لعمليّة طويلة المدى لإعادة توطين العالم. غير أنّ الحدود لا تحلّ أيّ شيء على الإطلاق. فهي لا تقوم إلا بمفاقمة التّناقضات الناتجة عن انكماش الكوكب. وفي الواقع، فقد أصبح عالمنا صغيرا جدّا. ولهذا، يتميّز عن عالم 'الاكتشافات الكبرى"، والعالم الاستعماري للاستكشافات، والاحتلال والمستوطنات. فهو لم يعد قابلا للتّوسّع إلى ما لا نهاية له. وهو من الآن فصاعدا عالم منته، مخرق من جانب إلى آخر من جميع أشكال التدافع غير المراقب، والذي لا يمكن مراقبته، لحركات الهجرة، وحركات رؤوس الأموال المرتبطة بأقصى تمويل للرأسماليّة ولقوى استخراج [المواد الأوّليّة] المهيمنة على معظم الاقتصاديّات، خاصّة في الجنوب. كما يجب لكلّ هذا إضافة التدفّقات غير الماديّة المحمولة بظهور الفكر الإلكتروني والرّقمي، وتطوّر السّرعة، واضطرابات أنظمة الزّمن.

عشنا، لمدّة طويلة، في عالم، افترضنا بأنّ السّكان يتناسبون فيه مع كلّ دولة، وأنّه من واجب كلّ السّكان

الإقامة في دولتهم. فقد كانت مسلّمة هذه الإقامة في أرض معيّنة (مبدأ التّحضّر) إحدى الشّروط لخلق عالم مأهول.

ولكن الأزمات الكبرى التي نتكبّد محنتها في بداية هذا القرن لا تقوّض هذا المبدأ للتّحضّر فقط، بل يتر ك هذ الأخير مكانه لمبدأ التّشابك. فالعديد من الأماكن هي في الواقع خربة أكثر فأكثر، وتُفرغ مناطق بأكملها من سكّانها، ويقع من الآن فصاعدا تهجير العديد من المناطق غير القابلة للعيش. واليوم، قليل من هم المتأكدون من مسكنهم. ومثلما أشارت إليه باستحقاق إيزابيل ديلبلا بأنّه "أمام أجزاء من بلدان شبه مهجورة من سكانها، أو أمام هذه البلدان التي تصير قفرا"، فإنّ عددا من الأفراد "لا يعرفون إن وُجدوا داخل أو خارج حدودهم[44]. وفي نفس الوقت، ستسير من الآن فصاعدا، بين ما هو إنساني وغير إنساني، بالتساوي عمليات القسمة، والتجزئة والتّشابك. ومن الآن فصاعدا، تنطوي أشكال الحياة والمستقبل على جميع أنواع العلاقات والتواصل.

وإن لم توجد، فعلا، في العالم أيّ دولة دون سكّان في الخارج، يكون السؤال الحقيقي هو معرفة أي شروط تستطيع فيها الأرض، في مستوياتها العالميّة، أن تتحوّل فعلا إلى مأوى حقيقي لجميع البشر وإلى أفق مشترك لجميع

(44) Isabelle Delpla, «Vivre au pays vide?», *Critique*, nº 860-861, 2019, p. 133.

الكائنات الحيّة[45]. فالمسألة تتعلّق باختراع طرق أخرى لتوطين الكوكب. فلا يمكن الوصول إلى ذلك إلّا بتصوّر أشكال سياسيّة، وحكوميّة وسبل انتماء تكون دوما أكثر مرونة، وطواعيّة وحراك.

---

(45) انظر:

Emanuele Coccia, «Gaïa ou l'anti-Léviathan», *Critique*, nº 860-861, 2019, p. 32-43.

7

طائفة الأسرى

إنّه من الأجدى، بالوصول إلى هذه النقطة من بحثنا، تسجيل وقفة والتّذكير بشيء أوضحته فعلا الفصول السّابقة. وفي الواقع، ظلّت الأجسام وخلاياها الحيّة الأهداف المميّزة لمحاكمة الكسر والتشقّق المزدوجة المُشار إليها في الفصول السابقة. ولا يمكن من ناحية أخرى أن لا تخطئ فيها الأشكال المعاصرة للوحشيّة، إن ارتأينا، على الأقلّ، بهذه العبارة حركة الهدم والتّنكّر المزدوج التي من الضروري أن تسمح بإعادة صياغة ما هو موجود، وتمكينه من وجه آخر، وتهيئته لقبول أشكال أخرى. ولم تعد المحاكمة الجارية لإزالة الطابع المادّي وانتصار الصّورة وظهور عالم النانو المرتكز على كلّ انواع الممارسات المستعملة كافية لمحو المادّة. بل العكس، لم تقم هذه العمليّات إلا بإبراز طابعها الجدلي. وسنتناول هنا شكلين من "الطوائف السّلبيّة"، طائفة الأسرى وطائفة الفارّين. فهما نتيجة محاكمة التشقّق السّاريّة التي تؤدّي لا محالة إلى المآزق. وسينظر هذا الفصل في الاستحالة التي توليها أيّ سلطة لتجاوز الحدود الجسديّة.

لا نشير إلا بصفة غير مباشرة إلى **الرّوح الطوباويّة**[1]. إنّ أعمال أرنست بلوك، الوفيرة والهشّة الجمال، شبيهة بقطعة قماش أو بمفاهيم، وأفكار وبصمات متشابكة. وهي متعدّدة الحبال المعقودة بطريقة لا أكثر ولا أقلّ متداخلة - وهي في الحقيقة عظة عظيمة موجّهة للعالم وللبشريّة. ولكن أيّ نوع إذن من اللوحات سيجتهد بلوك في وضعها سوى لوحة الأمل، وفي نهاية الأمر، لوحة العقيدة - العقيدة في محنة الأمل والأمل في محنة العقيدة؟

لماذا هذه الرّغبة في إغواء الذّات ولماذا هذا الافتتان بالجراحة لأعصاب المخّ؟ ويؤكّد بلوك بأنّ ذلك ليس "بالغباوة". ذلك لأنّنا، مثلما أوضح "وُلدنا للبهجة"، الفتاة البكر للأمل دون شكّ. ويجزم أيضا بأنّ الأمل "راس في غريزة السعادة البشريّة". وقد كان وما يزال، كترقّب وملاحقة "لهدف مرئيّ موضوعيّا"، من "أقوى محرّكات التاريخ". كما أنّه "يطبع على العمليّة المعقّمة للزّمن دفعه إلى الأمام"[2]. ويرى من ناحية أخرى أنّه من المفيد اعتبار الأمل كعاطفة ترعاه أيضا، وتتطلب عملا، تكون مهمّته وضع

(1) نعتمد هنا على عناصر من خطابنا الذي ألقيناه بمناسبة الحصول على جائزة أرنست بلوك، والذي نُشر تحت عنوان "لأجل الحق العالمي في حسن الضيافة" *AOC*, 16 novembre 2018 وكذلك مقال بعنوان "عصر غريب". *AOC*, 4 septembre 2019.

(2) Ernst Bloch, *Le Principe espérance*, Gallimard, Paris, 1976, p. 525.

الكائنات البشريّة بهمّة في طريق "مستقبل تكون فيه جزءا منه"[3].

فهو لا يتطلّب الإيمان الآلي للتفاؤل المسطّح (مؤكّدا بأنّه "جزئيّا سمّ أقلّ خطورة من التشاؤم المطلق"[4]. ولكن هذا الإيمان الآخر في الفكرة التي ترى بأنّ "الكلّ لم يكن بعد من ميدان الخسران". وأنّ المستقبل يظلّ مفتوحا. ويناهض الأمل الهلع والخوف، والتّشاؤم المطلق أيضا. وكان هذا الأخير يتميّز ليس كثيرا بغياب الإيمان أكثر من التأكيد على إيمان سلبي. فقد كان التشاؤم المطلق خاصيّة من يعتقدون بأنّ "لا شيء يستحقّ مشقّة القيام به"، فهل أنّ "الحياة تجرّ تقاعسها من قرن إلى آخر، وأنّ البشريّة لا تتخلص أبدا من خمولها وأنّ العالم سيشبه دوما قبرها؟ ولأنّه يرتكز على رؤية عالم مقبور، فقد كان التشاؤم المطلق عنصر فساد، ومحرّكا للسّخريّة والعدميّة.

ولكن تُفسّر كتلة اللامبالاة وكذلك فقدان الأمل في العالم، في آخر المطاف، "بغياب الإيمان بهدف". وإذن، يتعارض التشاؤم غير المشروط والمشلّ، المرادف لقبول منقاد، لا مع "تفاؤل مشروط بشكل اصطناعي" - قصر نظر وبالتّالي ذهول - ولكن مع "تفاؤل نقدي ونشط"، مناصر من قبل وعي مستبق وموجّه نحو ما- لم- يحدث بعد، نحو

---

(3) نفس المصدر، المقدّمة.

(4) نفس المصدر، ص. 240.

الإمكانيات القابلة لتنمية النّور". ولقد كان مثل هذا التفاؤل مستحيلا دون إيمان، أي الاستعداد المستمرّ للمخاطرة في هوّة، بل "فيما لم ينجح بعد"[5].

الرّغبة في إغواء الذّات

تمّت الهيمنة على سنوات 1920-1930 بلغة الدّم والأرض وبموضوع "أزمة الإنسانيّة الأوروبيّة"[6]. ولمدّة طويلة، كانت أوروبا في الواقع تعيش، دون قيد تقريبا، في الأوهام. ألم تُقرّ بأنّها كانت المقرّ الوحيد لكشف النّقاب عن حقيقة الإنسان؟ فقد كان العالم، في مجمله على ذمّتها. وبظهور العصور الحديثة، اقتنعت بأنّ حياتها وثقافتها، خلافا لحضارات أخرى، كانتا مفعمتين بمثاليّة عقل حرّ ومستقلّ. وهذا، حسب ما نرى، هو الذي سمح لها بأن تكون القارة المركزيّة في تاريخ البشريّة، كيان هو في نفس الوقت **على حدة** وفي كلّ مكان، **والكائن الحيّ العالمي**، وفي نهاية المطاف، تظاهرة العقل. وبالاستعانة بعبارات ناقد شهير، كانت تعرف كلّ شيء، ولديها كلّ شيء، وتستطيع كلّ شيء، وكانت كلّ شيء.

---

(5) نفس المصدر، ص. 527-528.

(6) إنّ النصوص التي تخصّ **أزمة العلوم الأوروبيّة وفينومولوجيا المجاوزة**، نُشرت سنة 1954، تمّ تحريرها فيما بين 1935 و1936، ومنها الحاضرة التي تحمل عنوان "أزمة الإنسانيّة الأوروبيّة والفلسفة".

كان "عصر الأنوار" تلك الأسطورة، وهي في الحقيقة ديانة لكيان مزدوج، احدهما مضيء مثل الشّمس (سلطة العقل) والآخر مظلم (الإنتاج المبهم، والتقاط وإطلاق عنان "القوّة"). وكيف يمكن إقرار غير هذا التدفّق للطاقات الهدّامة والإصرار، طيلة عدّة قرون، على هذه المساوئ للتاريخ المتمثّلة في تجارة العبيد، والإمبرياليّة، والتّوسّع الاستعماري وآليات أخرى للغنيمة؟ فلم تتأخّر هذه الأسطورة، المرتكزة على فكرة عدم التكافؤ والهيمنة، عن الانفجار. فقد افتتح القرن العشرين في الواقع بمجزرة عظيمة (حرب 1914-1918)، تلاها مباشرة استحواذ النازيين على السّلطة سنة 1933، والعديد من الفظائع، ومحاولة محو يهود أوروبا، وقنبلتان ذرّيّتان. عندها فقط، وبالوقوع في الخطأ، بدأ التفكير بأنّ التّاريخ والتجزئة غير المتناسقة للحقائق الخام، ربّما لم يعد لهما معنى. وربّما ترك العقل الفاشل بذاته، بالنسبة إلى أعظم تعاسة للبشريّة، المكان لقوّة دافعة للفراغ، وحتى للعبثيّة.

وفي الواقع، تحوّل الحلم إلى كابوس. وانكشفت أوروبا، المنكبّة على قناعتها الخاطئة، وهي من الآن فصاعدا عارية تماما لعالم لم يكن في ظلّ رمز الحريّة، والحقيقة والكوني، بل كمجال قديم يقع فيه، وكأنّما في حالة نذير، أبشع مشهد، وهو التّصفيّة المبرمجة للعنصر البشري. وكانت أوروبا من الآن فصاعدا، وهي المرهقة بأن توجد وأن تعيش، ممزّقة بين إرادتين متناقضتين - من جهة، إرادة

معالجة النّفس من القلق النّاجم عن الإنتاج السّرمدي للعالم وللذات بمثابة لا شيء (**الفعل العلاجي**)، ومن ناحية أخرى، الإغراء بالاستسلام لقهر التّدمير الذّاتي والرّغبة التي لا تُقاوم تقريبا للانتحار[7].

وفي الواقع، هرمت الشمس، مثلما ذكّر به إيمي سيزير في كتابه **خطاب عن الاستعمار** (1950). فقد وقع الشّروع، بهدف تجنّب خطر الرّغبة في الانتحار وإرادة التّصفيّة، تخطّي الأصقاع البعيدة. ومن هنا الظهور في مجال الكتابة والسّرد لمواضيع "الرّحيل" (الذّهاب نحو) وإشكاليات "العودة"، سواء "للأصول" و"للتقاليد أو "للبلد الأمّ". وكانت الرّحلة إلى الأبعاد، خلال القرن الثامن عشر بالخصوص، من نصيب التّجار، والغزاة، والمبشّرين، والمستكشفين، وبعض الكتّاب. وكانت الأسباب التي جعلت موضوع الذّهاب والالتفاف مزدهرا بقدر كبير خلال العقود الأولى من القرن العشرين عديدة.

اجتيزت مسافات عظيمة. وتمّ اختراق أقسام كاملة من الأراضي كانت في الماضي مجهولة. وأخذت الأرض وجها جديدا. وكان من الواجب، لإعادة تهيئة مجال المفهوم عموما، وتجديد نقد الوجهة الإنسانيّة الهانئة، "مغادرة" أوروبا على الإطلاق، والتخلّي عن ميتافيزيقيّتها (حلم القوّة)

(7) S. Freud, *Malaise dans la civilisation, op. cit.*

والانتساب إلى العالم الجديد في كماله، وإعادة الاتصال بالحاجة مع اتساع الكون وتدفّقات طاقاته. وكان من الواجب "مغادرة" أوروبا، لوضع نصب العين ما أظهرته من عجز للمعاينة بذاتها، وهي التي كانت عالقة في عقمها.

ربّما لسنا في منعرج متجانس، وربّما لم تكن المسألة مغادرة أيّ مكان كان، بما أنّ كلّ مكان، وكلّ ركن من الأرض متشابك من الآن فصاعدا في عدّة أماكن ونقاط أخرى. غير أنّ المسألة ما زالت مطروحة. وفي البدء، أين نحن وأين نكون من حقّ التّمنّي؟ وماذا عن العالم، والإنسانيّة ومجمع الكائنات الحيّة؟ ففي هذا العصر العالمي، هل هنالك شيء على ملكنا، نحن جميع النّساء والرّجال، يكون مشتركا بيننا، ونكون ملزمين على اقتنائه بالتساوي نسبيّا، والذي تعود إلينا مراجعته جماعيّا؟ وهل هنالك شيء يجبرنا على أن **نكون** مشتركين على الأقلّ لأنّ ذلك مرتبط ببقائنا على قيد الحياة، وبامتداد متانة هذا العالم إلى أبعد الحدود المفرّقة للأجناس (بما أنّ هذه العبارة المشينة ما زالت تمثّل مستقبلنا)، والفصائل، والدّول، والشّعوب، والأمم، وأراضيها، ولغاتها ودياناتها؟ وهل حقيقي أنّ الاختلاف، وإذن هذا الخطّ المتين للحدود، قد يكون آخر كلمة للإنسانيّة؟ وهل حقيقي من ناحية أخرى بأنّنا، مثلما يدّعيه البعض، قد خدعنا، وأنّنا أردنا دوما أن نكون منخدعين، وأنّ الإنسانيّة في الحقيقة لم تنذر لشيء، بسبب الفراغ الذي تحمله في ذاتها". وبعبارات أخرى، **هل أنّ**

المشروع التّاريخي للعنصر البشري، بمعنى الحركة نحو الحرّيّة، بلغ منتهاه؟ وبالنّسبة إلى البقيّة، ماذا يعني في أيّامنا هذه، الأمر القاضي "بالتوجّه في العالم وفي الفكر؟ ومن ناحية أخرى، أيّ فكرة، وفي أيّ لغة، وانطلاقا من أيّ أرشيف ولأيّ غاية تحديدا؟

ولكن، إن أردنا تسليط الحدّ الأدنى من الأضواء على الفضاء الخشن والمتباين الذي يمثّله اليوم عالمنا، إن أردنا الحصول على النبض، والتنفّس والشهقات، فيكون مجديا العمل انطلاقا من آثار التّضاريس، أي من تلك الأماكن البعيدة والمتباعدة ظاهريّا. والحال أنّها بطرق عدّة قريبة وحميميّة جدّا، أين يقع التلاعب بطريقة **لا يمكن لنا أن لا نرى فيها**، وأن لا يمكن التّظاهر بتجاهل مصيرنا جميعا، نساء ورجالا. وعندما أقول "مصيرنا جميعا، نساء ورجالا"، لا أعني بذلك طائفة قد توجد مُسبقا، إلى أبعد من عدم التجانس الذي يؤسّسنا، ولكن مثلما يمنح **ذلك** إلينا كإمكانيّة "في كلّ العالم المرهق بذاته"[8].

إنّ ما يتوفّر لنا، في الواقع، هي فرصة دعوة أسماء أخرى، ومساءلة فارغ الكلام للهويّة والاختلاف في هذه الأزمنة المتناقضة للتّواصل، والتشابك وفكّ الارتباط. فحظّنا، هو القدرة على المشاهدة بأعين جديدة **ما هو موجود أمامنا**، والذي **لا نستطيع مشاهدته**، ولكننا نشعر لا محالة

(8) E. Bloch, *Le Principe espérance*, *op. cit.*, p. 284.

بصعوبة مشاهدته، واختراقه ورؤيته. غير أنّ حاضرنا مأهول بأحداث لا نستطيع أن لا نشاهدها بالرّغم من رغبتنا المتوقّدة في العمى. إنّها أحداث من جميع الأنواع، وأشياء اعتقدنا بأنّها قد لا تحدث أبدا؛ وأخرى نعتقد أنّها لا تحدث إلّا للغير، البعيدين، والذين يتقرّبون الآن منّا، فتحدث لنا أيضا، أشياء غريبة، وأخرى مروّعة، ولا تصدّق أيضا، والتي تحفّز الشكوك، وتمزّق حدود خيالنا وتثير تارة المفاجأة، وطورا الغضب والإثارة والفزع، وأخرى الذّهول والدّهشة.

فالأحداث من هذا النّوع، التي تأتي دون أن نترقّبها، ودون أن نتوقّعها، ودون أن نستعدّ إليها، الكثير منها موجود. وهنالك أشخاص لم يرغبوا أبدا في العيش بعيدا عن أماكنهم، ولم يتصوّروا أبدا مغادرتها عندما يستيقظون ذات صباح. فالعالم الذي كان، بالأمس، بالنّسبة إليهم عاديّا، اختفى تماما تقريبا، أو على أيّ حال، لم يعد يمثّل ما كان عليه بالأمس. ذلك لأنّه في عزّ الليل حدث أمر جلل، دون أن يتبيّنوا وزنه الحقيقي، ودون أن يتفطنوا إليه، أمر جعلهم فجأة غرباء في نفس الأماكن التي ولدوا فيها وعاشوا فيها إلى ذلك الحين.

نشاهد هؤلاء الأشخاص أكثر فأكثر كلّ يوم تقريبا، أو على الأقلّ نسمع عنهم. أشخاص فارّون، أجبروا على ترك كلّ شيء خلفهم، وخسر آخرون كلّ شيء، ولا يعرفون أين يدبرون، أو، خلافا لأيّ منطق، يريدون بأيّ ثمن الذّهاب

إلى أماكن لا ينتظرونهم فيها على الإطلاق، أين يكونون مجهولين، وأين، على أيّ حال، لا يرغبون فيهم ولا يخفون عنهم ذلك بأيّ ثمن. ويعرف هؤلاء الأشخاص أنّه سوف لا يقع قبولهم، وسوف لا يتركون لهم مكانا، وأنّهم معرّضون لخطر التخلي عنهم في الشّوارع، وأن ينتزعوا منهم ما تبقّى لهم، ولكنّهم يعاندون ويذهبون، لا محالة، دون أيّ ضمان، للفوز بحياتهم الخاصة.

ونشاهد من بينهم آخرين، يجرّون طفلا أو أطفالا في اليد، وكذلك حمولة تحت اليد من القليل ممّا نجحوا في انتشاله من تحت الأنقاض. وساروا لمدّة طويلة، وبان على أجسامهم الإرهاق. وينبشون بعيون هائمة في حطام حياتهم، بحثا عمّا يمكن أن يساعدهم. وما زال آخرون تحت الأغطية أو الأقفاص، مخيّمين تحت المطر أو شمس قاسية، في انتظار أمر ما، وبعض الكمّيات من المياه، وحبوب من الأرز، وقطعة قماش، ونظرة، وربّما، في نهاية الأمر، وثيقة رسميّة، وورقة.

وفي أيّامنا، يمكن، طالما نحن حريصون، أن نشاهد أيضا في آثار الجثث، ما يكون غالبا مؤلما ـ من وقت إلى آخر، جثث أطفال، ونساء أو شبّان غرقوا خلال عمليّات عبور لا متناهية، أو مجرّد هياكل بشريّة وارتها رمال الصّحراء. هكذا ظهرت صورة زماننا. وهنالك، من بين مئات الآلاف من الأشخاص، المغادرين، والذين يذهبون، ويستسلمون لأعراض الفرار الخاصة بعصرنا، قليل ممّن

يصلون إلى مستقرّ. فلم تعد المغادرة الرّهان الحقيقي. وأصبح الوصول من الآن فصاعدا قضيّة، وإمكانيّة عدم الوصول إلى الوجهة المقصودة.

وتقطّعت السبل بالآخرين المشتّتين. إنّهم، المقبوض عليهم مثل الغنائم، محتجزون في معسكر أو آخر، وتحمل جميع هذه المعسكرات أسماء زاهية الألوان، مثل معسكر اللاجئين، ومعسكر المنقولين، ومخيّمات المهاجرين، ومناطق ترقّب لأشخاص قيد الانتظار، ومناطق عبور، ومراكز احتفاظ، وأماكن إقامة في حالة طوارئ، وأدغال. إنّه، بالتّأكيد، مشهد مركّب ومتناقض، نستطيع على الأقلّ تلخيصه في كلمة واحدة، وهي معسكرات الأجانب، وليس في النهاية بشيء آخر. فالأمر يتعلّق بمعسكرات أجانب سواء في وسط أوروبا أو عند هوامشها. وهو الاسم الوحيد الذي يناسب هذه الأجهزة وهذا النّوع من الجغرافيا السّجنيّة التي ترسمها.

إنّها، أساسا، أماكن اعتقال، وفضاءات نفي، وأجهزة اقصاء لأشخاص يُعتبرون بمثابة الدّخلاء، دون عنوان، وبالتّالي دون حقوق، وعلى ما نعتقد، دون كرامة. وبهروبهم من مناطق وأماكن أصبحت مُقفرة بعمليّة قنص مزدوجة داخليّا وخارجيّا، دخلوا حيث لا يجب الدّخول، دون أن تقع دعوتهم، ودون أن يكونوا مرغوبا فيهم. وبتجميعهم ووضعهم جانبا، لا يرتبط الأمر أبدا بنجدتهم. وبتوزيعهم في معسكرات ووضعهم في حالة ترقّب بعد تجريدهم مسبقا من

تشريع الحقّ العام، نريد قبل أي شيء جعلهم أشخاصًا يُحتمل ترحيلهم. فوقع صراحة إيقاف حركتهم.

المغادرة

إنّ الكثير سوف لا يظلّون في أماكن ولادتهم، منغرسين هنالك مثل العديد من الأصول الجامدة. وسيحاولون، كنتاج "للتفرقة العظمى" (تجارة العبيد الأطلسيّة)، كلّ بطريقته، ربْط مصيرهم بمصير هويّة، الهويّة الإفريقيّة، وسيحاولون تغييرها إلى اسم خاص، ولكن دوما إلى ذكرى لعالم ولإنسانيّة برمّتها. وسيختلط، بالنّسبة إليهم، الأصل مع المكان الذي نغادره والجذر المستخرج منها والمراسي التي نتخلى عنها عند الذّهاب في الأفق العريض. وبما أنّ إفريقيا، بالنّسبة إلى معظمهم، شبيهة بشجرة مقطوعة، فيعودون إلى قدم الشجرة ويقتربون من الجذع، أو بالأحرى من جذورها، على أمل أن يقتاتوا من عصارتها ويعجّلوا بإسقاط أوراقها.

إنّ أسباب مغادرة بلد الولادة، ذات يوم، عديدة. فهي قلّما تعود إلى الصّدفة. ومن الصّعب سبر أغوار بعضها، بقدر ما يكون لغز الأصول ذاتها. لغز لا بالمعنى الدّيني للعبارة (علامة شيء آخر نستذكره باستمرار ولم يتحقق أبدا فكّ شفرته بالتّمام)، ولا بمعنى أنّ ما كان سرّا أصبح فجأة موضوع كشف، يثير، في النهاية، فضيحة، ولكن بمعنى ما سيكون دوما بصفة فريدة عاديّا وغامضا في الآن نفسه. ولم

تكن، ذات يوم، مغادرة البلاد أو مكان الولادة في متناول الجميع. ولم تكن دوما مغادرة موطن الولادة مظهر إرادة حرّة. فالكثير، خاصّة في أيّامنا، مدفوعون نحو الخروج بقوى مجهولة. فأصحاب القلوب الطيّبة يسيرون رغم أنفهم، وأحيانا دون شيء، في مسالك الهجرة، بالرّغم من الرّغبة الوقّادة للبقاء في مسكنهم. وفي الواقع، هنالك من، وإن فضّلوا البقاء، قد لا يستطيعون القيام بذلك، إلا بتعريض حياتهم للخطر. وعندئذ يغادرون، على أمل ربّما العودة ذات يوم.

ولكن، ماذا تعني المغادرة؟ فالمغادرة هي، بالتأكيد، القيام بالحركة، ومغادرة المكان، والابتعاد عنه، وتجربة المسافة، والغياب. وهنالك أيضا، في عمليّة المغادرة، شيء يعود إلى توقّف الحضور المادّي، المرئي، والمباشر، والجسدي. فالمغادرة، هي تحمّل خطر الزّوال والاندثار. أكيد أنّ آثار الغائب تظلّ خلفه. ففي أيّامنا، عديد هم الرّجال والنّساء الذين يغادرون ولا يصلون أبدا، بعد أن أبيدوا في مكان ما من قبل قوى صلبة، وسائلة أو شائكة، أو وُضعوا مهجورين، في معسكر في صحراء. وإن ما زلنا موجودين عندما نكون قد اختفينا جسديّا، فإنّنا نقوم بذلك من خلال الذّاكرة والذّكرى للأعمال التي قمنا بها مع الآخرين، بما أنّ الآخرين، بتذكّرنا، يحيون صورتنا. فلا توجد إذن ذكرى أصيلة إلّا في التبادل. ونستطيع، في الواقع، تذكّر أنفسنا، ولكن ينفتح الباب، خارج هذا التبادل (يتذكّرني الآخر وأتذكّر الآخر)، على النّسيان.

ولكن، مثلما اقترحنا، لا يعود الكثير إلّا بصفة عرضيّة، وحتى أبدا. فقد غادروا بصدق. وبما أنّهم اقتلعوا من الجذور، فقد أقاموا في مناطق أخرى. فهل يحلّ هذا بالرّغم من ذلك قضيّة الأصول؟ وفي الواقع، نسعى إلى الخلط بين الأصول ومكان الولادة. وحسب ما نعتقد، نكون أصيليّ المكان الذي نولد فيه. ونعتبر أنّ مكان ولادتنا يحدّد هويّتنا. ومن هنا تأتي صورة الإنسان المحلّي. فمكان ولادتنا لا يرمز لا محالة للجميع عن أصولنا وانتماءاتنا. ليس الانتماء حصريّا مسألة إقليميّة. فهي، في كثير من النواحي، مسألة قبول واعتراف. ويُفترض أن يقبلنا آخرون من بينهم. إنّه دوما شخص آخر هو الذي يوقّع شهادة الانتماء. ولا يكون للانتماء معنى إلّا بقدر ما تكون إمكانيّة الرّفض حقيقيّة. ولكن لا يكفي أن تكون مرفوضا لكي لا تكون منتميا على الإطلاق. فالدّخيل هنا، ولكنه لا ينتمي. فهو مثل العابر، الذي يقيم، ولكنّه لا ينوي الاستقرار. فلا ننتمي إلّا انطلاقا من قبول الإقامة بين الآخرين، الذين، في المقابل، يقبلوننا من الآن فصاعدا كأفراد من بينهم، وجزءًا منهم.

لا تقتصر إذن أصولنا على الأماكن التي نولد فيها. ولكن بالرّغم من ذلك، نحن دوما أصيلو مكان ما والمغادرة لا تغيّر في ذلك من شيء. وأن أكون أصيل منطقة ما، لا يرتبط ذلك أبدا بحضوري المرئي والمستدام في المكان المحدّد الذي وُلدت فيه. فهنالك، بحكم أنّي وُلدت في الكاميرون، شيء لا يمكن أبدا فسخه، بمعنى أنّه من

المستحيل أن أولد في مكان آخر غير الكاميرون. أو أن أولد من والديّ، وأن أكون رغم أنفي، مسجّلا في سلالة. فنحن دوما أحفاد آخرين، مثلما لم نولد على الإطلاق إلّا مرّة واحدة في مكان وحيد وفريد، وهذا الحدث غير متجدّد. وذلك مثل الموت، سواء داهمنا أو اقترفناه.

وبالتّالي، هنالك شيء في الأصول فريد، لا يمّحي ولا يُفسخ - وهو أمر لم نستطع أبدا التّخلّص منه والذي لا محالة لا يجعل من الأصول قدرًا أو مصيرًا. وإن استطعنا اختيار الموت (في أيّ تاريخ، وأيّ ساعة وأيّ مكان)، فلا يمكن، خلافا لذلك، اختيار مكان الولادة، ولا الوالدين، والإخوة، والأخوات، والأقارب. وإن تكن مولودا في مكان ما، من هذا أو ذاك، فإنّ ذلك أساسا مجرّد حادث، ولا يوجد أي شيء يمكن تغييره.

ليست الحوادث، السّعيدة أو التّعيسة، دون نتائج، بل هي، في نهاية الأمر، وقائع زينة مرادفة، إن اعتبرنا بأنّ كلّ ما هو موجود أو ما يجب أن يوجد لا يمكن إطلاقا تحديده وترتيبه مسبقا. وربّما تكون الأصول تافهة. ولكن باعتبارها أحداثًا طارئة، فهي لا تمثّل الأساس. فالجوهر في المسافة، أي في الطريق والمسافة المقطوعة من مكان إلى آخر، وفي طريقة شقّ الطريق من نقطة إلى أخرى من الوجود، ومن جزء إلى آخر من الحياة. ويتمّ شقّ هذا الطريق في الحركة ذاتها وكذلك في ثنايا اللقاءات.

وهنالك لقاءات متّفق عليها. وأخرى طارئة، وغير متوقّعة وغير مرتقبة، وثالثة فظّة شبيهة بالمبارزات، وحتى بصدامات، نخرج منها مشوّهين، وكأنّنا وجدنا في النهاية في حضرة مجرم، فوقع تغطية الوجه بـطلاء. فلا ينتج عن هذه اللقاءات سوى فجوات التّنافر، بل وحتى المصائب.

بديهيات

لم تكن بداية القرن الواحد والعشرين شبيهة تحديدا للعقود الأولى من القرن العشرين. غير أنّ بعض الدّلالات لا تخدع أبدا. ففي كلّ مكان تقريبا، تمّ من الآن فصاعدا رفع جميع العوائق. نعرف ذلك جيّدا، مثلما أكّده أرنست بلوك في زمانهم، بأنّ "النّاس يريدون مغالطتهم"[9]. كان ذلك هو الحال في تلك السّنوات، سنوات الغباء الوظيفي والجهازي، وأفواجها من الأجسام المجهولة، بأعين من الآن فصاعدا مغلقة، مجمّدة، ومنهزمة أو تتنفّس بصعوبة، إنسانيّة مهزومة[10]. ولا تزال اليوم نفس الحالة، بينما يمكن اجتياز جميع المحطّات، الواحدة تلو الأخرى، وأن ينفتح الطريق لا على أيّ معجزة، بل على ما يمثّل كلّ ميزات الفراغ.

فمن لا يشاهد ذلك أبدا؟ لم تتوقّف طوباويات النّهاية

---

(9) E. Bloch, *Le Principe espérance*, *op. cit.*, p. 522.

(10) Ernst Bloch, *Héritage de ce temps*, Payot, Paris, 1978.

عن الازدهار. وتراكم الشّكوك والمخاوف دون صمّامات أخرى سوى غريزة الأرض والدّم؟ فهي عديد من الإشارات التّحذيريّة ونذير شؤم، للحقيقة. ولم يكن التّاريخ، لدى بعضهم، سوى مصيدة عظيمة. وقد يكون العدّ التنازلي قد انطلق. وقد تشهد على ذلك الأقاليم المهجورة بسبب التفحّم والتشويه، والمحيطات الكثيفة التي أمست مسمومة والتي أُفرغت من "سكّانها" خلال جيل، والعديد من الاضطرابات المناخيّة، والمدن المتراميّة الأطراف أين يزدحم الملايين من البشر. فقد تكون الأرض دخلت مرحلة الإشعاع الفعّال، وحسب ما عليه الأمر، فقد أمسى بقاء جميع الفصائل (البشريّة وغير البشريّة) في المحكّ[11].

وهذا صحيح، فإنّ مختلف نجوم المصيبة لم تتوقّف من أن تحوم حولنا. وما من أحد من الآن فصاعدا في مأمن من النّصب، والعماء والسّذاجة. فلا يهمّ وضعهم الاجتماعي، وجنسهم، ونوعهم، والطبقة الاجتماعيّة التي ينتمون إليها، فحتى العقلاء منهم يقعون بمحض أنفسهم "في فخّ ما يتلألأ؛ وليس من الضّروري أن يكون ما يلمع من ذهب، بشرط أن يكون وهّاجا". ولاحظ أرنست بلوك بأنّ الرّأسماليّة "أمست سيّدة نفسها في فنّ التلاعب بهذه الشهب الناريّة التي لا تبهر سوى الأنظار"[12]. ولكنّها تتمكّن أيضا من الأجسام

(11) Hicham-Stéphane Afeissa, *La Fin du monde et de l'humanité. Essai de généalogie du discours écologique*, PUF, Paris, 2014.

(12) E. Bloch, *Le Principe espérance*, *op. cit.*, p. 522.

وتحتلّ الرّغبات والأحلام، من خلال متعة الاستهلاك. ويجب إضافة إلى ذلك من الآن فصاعدا تقنيات الحساب، والتجرّد والإنارة التي تكون إحدى وظائفها صناعة العديد من الرّوايات الخياليّة والعديد من الوضعيّات الثانويّة في نفس الوقت.

يظلّ الوعد بعالم خيالي إحدى الينابيع الحاسمة لعولمة رأس المال واختلاله لا فحسب للمحيط الحيوي، بل وأيضا لرغبتنا ووعينا الباطني[13]. ويجب على الرّأسماليّة، كي تفرض نفسها كديانة، مواصلة تهدئة هموم، وقلق، ومخاوف، وآلام من تمسك بهم في شباكها. وعليها من ناحية أخرى مواصلة ضمان الوظائف الأساسيّة لأيّ ديانة صاغها فيما مضى فالتير بنيامين، وهي العبادة المستمرّة، والتقديس دون هوادة للبضاعة؛ والحفل "بالمعنى المفزع" لنشر الجنازة؛ وتشبّع الوعي نتيجة تأثير الشّعور بالذّنب، حتى من الإله ذاته؛ والاحتفاء بالإله الخفيّ والفجّ[14].

وأكثر من ذلك، فالرّأسماليّة في حاجة إلى عنف منظّم - سواء كان عنف الدّولة أو أشكالا أخرى من العنف

---

(13) Shohana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Capitalism*, Harvard University Press, Cambridge, 2019; Jean Comaroff et John L. Comaroff (dir.), *Millennial Capitalism and the Culture of Neoliberalism*, Duke University Press, Durham, 2001.

(14) Walter Benjamin, *Le Capitalisme comme religion*, Payot, Paris, 2019, p. 57-59.

الخاصّة نسبيّا - الذي من دونه قد لا تستطيع أن تتحوّل إلى تنظيم أسطوري ورمزي يصبو إليه باستمرار[15]. ولكنّها في حاجة إلى النّسيان، أو بالأحرى إلى ذكرى منتقاة من جرائمها[16]. أمّا بالنّسبة إلى الحرب، فتظلّ إحدى أشكال تحيين القوّة المدمّرة الضّروريّة لترسيخ الأسواق ومسالك الأموال[17]. إنّ الاقتصاد العالمي الجديد، المرتكز على تكنولوجيات السيليكون والمنطق الخوارزمي يظلّ مهيكلا انطلاقا من التّقسيمات العنصريّة القديمة التي تمثّل المصدر الضّروري للحرب الجديدة الموجّهة ضدّ الأعراق وطبقات السّكان المعتبرة زائدة. وترتكز هذه الحرب النفسيّة والتناسليّة، والسياسيّة والاقتصاديّة، الموجّهة على مستوى النّوع، على تجنيد جميع أشكال **الغرائز دون منفذ للبيع** والطاقات المشينة، وهي العنصريّة، والفحولة وكراهيّة الدّولة للأجانب.

ميتافيزيقيات "المستقرّ الذاتي"

"عودوا إلى دياركم !"، هكذا يأمرون هنا وهناك الأقليات العرقيّة أو الدّينيّة أو المهاجرين، والمستجيرين

---

(15) Maurizio Lazzarato, *Le capital déteste tout le monde. Fascisme ou révolution*, èditions Amsterdam, Paris, 2019.

(16) Michel-Rolph Trouillot, *Silencing the Past: Power and the Production of History*, Beacon Press, Boston, 1995.

(17) Eric Alliez et Maurizio Lazzarato, *Guerres et capital*, èditions Amsterdam, Paris, 2016.

وطالبي اللجوء. وتصل أكثر فأكثر مثل هذه الصّرخات للحشد إلى الاغتيالات العنصريّة، الرّخيصة، وهي مزيد من الإيماءات الدّنيئة بالنّسبة إلى جمهرة من أناس منحلّين، الذين، بانغلاقهم في مربّع القرف المتمثّل في العنصريّة، يحتلّون من الآن فصاعدا حاضرنا. ووقع أحيانا إعدام الكثير منهم، ممزقي الشرج، ومصعوقين بالكهرباء أو خاضعين إلى معالجة بطنيّة، وضحايا طلقات ناريّة دون إنذار، وأحيانا بين أيدي الشّرطة، فهي مسبحة الموتى المنافيّة للعصر. فالحقنة اليوم هي، في الواقع، العودة "إلى الدّيار"، التي فرضيّا قدموا منها.

يزعمون بأنّ "المستقرّ الذاتي" هو المكان الذي نُولد فيه. ونرى بأنّ الأمر يتعلّق بفضاء جغرافي أو أيضا ضاحية، ومدينة، وقرية، ومنطقة، وإقليم، وحتى دولة متكوّنة من خطوط محدّدة، وحدود. وترسم هذه الأخيرة داخلا يتعارض مع خارج، وداخل ينشأ بالأساس في تعارض مع مناطق أخرى، عن طريق تقسيمات متعدّدة. وتحيل، في نسختها الحميدة، إلى علاقة شبه جسديّة من المفترض أن يقيمها فرد مع قرية ومجموعة يكون بالتّمام عضوا فيها. وتكون هذه المجموعة متجذّرة في الإقليم. وفي المقابل، تكون المجموعة والإقليم أماكن إنتاج تاريخ من المفترض متميّزا وفريدا بلغة، ومعارف جماعيّة، وبإيجاز بتقاليد خاصّة. وبوضع جميع هذه العناصر مع بعضها البعض، يقع تأسيس "المستقرّ الذاتي"، أي ملجأ أو نظام تفاعلات ديناميكيّة بين

وسط مادي وبيولوجي ومجموعة من العوامل البشريّة والاجتماعيّة- التقنيّة في نفس الوقت.

إنّ "المستقرّ الذّاتي" أو الضاحية، هو، في منحدره الميتافيزيقي، نشأة ذاتيّة. فقد أمسى هذا المستقرّ بمثابة الفضاء المتميّز لخلق المستقبل والتدليل على الماضي. واعتقدنا بأنّ "المستقرّ الذّاتي" هو المكان المتميّز لتحقيق مثاليات التملّك والأمن. فهو كفضاء مادّي ونمط حياة، يحدّد دائرة الدّيون غير المستخلصة، تلك التي كانت موجودة مسبقا، وتظلّ موجودة انطلاقا من الدّيون التي تربطنا بالأجداد. وفي نهاية المطاف، نعتقد بأنّ المجموعة هي طائفة دم. ولم تكن الدّولة- الأمّة، في الأصل، سوى تغيير لهذه المجموعة من الدّم إلى حكم قضائي منفرد. فعن طريق الدّم، وقع الاعتقاد بأنّ هذه الدّولة- الامّة مستدامة، أي أنّها تؤسس زمانها الخاص وتتناسل بذاتها. فلا ننتمي حقيقة إلّا إذا ما سال في عروقنا هذا الدّم نفسه القادر على التداول.

ولكن، لا يكفي الدّم، في الإيديولوجيات الفطريّة والاستقلاليّة الكبرى، كعنصر تداول الحياة بين الأجيال. فعن الدّم، يجب إضافة ما أسماه فرانز روزينزفيغ الإرساء "في غياهب الأرض"[18]. فالوجود في بلد، والمطالبة به، هو جعل الأرض أرضه. وفي الواقع، فإنّ ما يميّز من له الحقّ أو

(18) Franz Rosenzweig, *L'ètoile de la rédemption*, Seuil, Paris, 2003 [1921], p. 418.

المواطن من الخارج، والمنفي، والمسافر أو المقيم المؤقت، هو ترسّخه في أرض، تجعل، إضافة إلى علاقات الدّم، التجذّر ممكنا. إنّ تزاوج العصارة والدّم والأرض هي التي لوحدها ترمز فعلا إلى الانتماء. ولنسمّ كلّ هذا **القوميّة الحيويّة**، القزم بامتياز للمجتمعات الليبراليّة الجديدة.

ومن بين جميع ميزات القوميّة الحيويّة، هنالك بالخصوص خاصيّتان تميّزان الحاضر بعمق. الأولى، هي هاجس المدّة الزّمنيّة، أو أيضا مدّة حياة الشعوب والأوطان والطّوائف، والثّانيّة هي هاجس العدوّ، أو أيضا الخطر الوشيك، في شكل محتلّ، للمهجر أو الشخص المنتمي لجنس، وديانة أو عرق آخر[19]. عاملان يضمنان البقاء على قيد الحياة والمدّة الزّمنيّة، ويحميان من الخطر، بل وحتى من الاندثار؛ فمن ناحية الدّم، ومن أخرى الأرض- الدّم، وهما العصارة الثمينة للحياة التي تسيل وتروي الأرض. وللبقاء على قيد الحياة، يجب على طائفة الدّم أن تكون بالتّالي راسخة في "القاعدة الصّلبة للأرض"[20].

ففي روح القوميّة الحيويّة، تكون قبل كلّ شيء أيّ طائفة خليّة بدائيّة. وحقن دم غريب فيها أو إقحام أوردة فيها أو شبكات جينات من أصل خارجي لا يؤدّي إلّا اضطرابا في قوّة التجدّد الطبيعي وفي إنتاج مجمّعات سكنيّة غريبة.

---

(19) A. Mbembe, *Politiques de l'inimitié, op. cit.*

(20) F. Rosenzweig, *L'ètoile de la rédemption, op. cit.*, p. 418.

ولا ينتمي حقيقة سوى الأقارب دمويّا، عند نقطة الالتقاء بين القرابة والتّراث والوراثة. إنّهم الرعايا الوحيدون الحاصلون على حقوق ثابتة. وعلاوة على ذلك، لا يوجد سوى "المستقرّ الذاتي"، حيث يمكن التّبجّح بحقوق دائمة، بما فيها حقّ الحماية ضدّ كلّ ما هو خارجي. ولا يستطيع بقيّة الآخرين القادمين من أماكن أخرى، سوى أن يطمعوا في حقوق يمكن إلغاؤها مبدئيّا، وغير مضمونة أبدا طوال الحياة. وفي النهاية، قد تكون السّاعة للفرز والاختيار. وتكمن الأشكال المعاصرة للقوميّة الحيويّة، تلك الأشكال التي تمجّد "المستقرّ الذاتي" والتحضّر، في صلب الميتافيزيقيات التي كنّا وصفناها بإيجاز. إذ لم يكن مشروعها إقامة تعايش لمسارات غير متجانسة. فقابليّة الفصل والتّقسيم الطبقي للحقوق هي، من وجهة النّظر هذه، الوسائل المجدية كثيرا للحسم دفعة واحدة لمسألة الانتماء، أي، في نهاية الأمر، مسألة الاختيار، والتّفرقة، وفي آخر المطاف، الانفصال.

يمرّ هذا العمل للكسر والتّشقّق، في فترة ما بعد الاستعمار، "بالقبليّة". وقد يمثّل، في الواقع، تجنيد الهويّات العرقيّة أو القبليّة لغايات الاستحواذ خاصة على السّلطة أو على الخيارات المشتركة، أكبر عائق أمام الديمقراطيّة، والأمن، ومشروع الحريّة في مجتمعات كانت قديما مستعمرة. وإن لا توجد فيها، في نهاية المطاف، أعراق إلّا ومخترعة وهويّات سوى مائعة فهذا لا يكفي أبدا

لتفسير الجاذبيّة التي لا تُقاوم والتي يمارسها الوعي القبلي في الخيال السّياسي للمهيمن عليهم قديما.

وأكثر خطورة من ذلك أيضا، هو أنّ ما من شيء يصلح للتفكير بأن سيختفي العامل العرقي ذات يوم، نتيجة تطوّر اقتصادي، واندماج وطني ناجح أو ثمرة ما يمكن لأيّ كان أن يطلق عليه اسم "تطوّر العقليّات". وتتغيّر، فعلا، سمة الوعي العرقي، بناء على ملابسات. وهو، في الواقع، بنفس مستوى الدّيانة أو الرّغبة، لا رجعة فيه. ويجب على كلّ تفكير في إمكانيّة تنظيم ديمقراطي لمجتمع ما أن ينطلق من هذه المسلّمة. ولكن إن لم تستطع المشاعر الأثنية والقبليّة أن تزول دفعة واحدة إلى الأبد، فربّما يمكن كبحها. إذ بالنّسبة إلى عديد من الشعوب، انتهى القرن ونصف القرن الماضيان بختم الاستبداد الاستعماري. ولا يزال من الضّروري، لإتمام حقيقة المشهد، أن تضاف إليها العديد من التجارب الهجينة للمصادر الدّاخليّة والخارجيّة في الآن نفسه. إنّ معظم هذه الأنظمة الاستبداديّة، المحلّاة بقناع القوميّة، والمعاداة للإمبرياليّة والسّيادة الثّقافيّة، قد ازدهرت تحت جبّة التحرّر من الاستعمار.

ولكن، في كلّ مكان تقريبا، يكون الاستبداد في حاجة إلى أن تنتشر القبليّة. ولم تكن القبليّة إحدى الشروط الممكنة للأنظمة الاستبداديّة فقط، بل قد تكون، في المقابل، أحسن حاضنة للعواطف القبليّة، وأحسن محرّك لها. وحتى أشكال الاحتجاج، ستطبع الأنظمة الاستبداديّة بطابع من القبليّة، إذ

ما من شيء قابل كثيرا للاستغلال الطائفي للقبليّة من قبل السّلطة. ومن جهة أخرى، ما من شيء ينحو إلى الخلاف، بل وحتى إلى الحرب الأهليّة.

ولكن ماذا يمكن أن نفهم من "القبيلة" أو "المجتمع القبلي"؟ وهل أنّ النظام القديم خاضع إلى قوانين العرف؟ أكيد، أنّه يجب أيضا الأخذ بعين الاعتبار ليونتها غير الطبيعيّة، وقدراتها على التطعيم، والقضاء على كلّ ما يمكن أن يمثّل، للوهلة الأولى، النقيض القويم لها. وعلى وجه التأكيد، فإنّ تجمّعًا ترتكز ضمنه متطلبات التّضامن على الاعتراف بسلف مشترك، وبالتأكيد، امتلاك إقليم، إذ، في ظلّ نظام قبلي، لا يكون المواطنون متساوين. بل هم أوّلا الإخوة، والأقارب وبقيّة أفراد القبيلة. وبما أنّ هؤلاء الأقارب المقرّبين أو البعيدين من بيننا، يرغمنا الدّم على إثبات، الولاء تجاههم، أمام كلّ تحدّ.

وخلافا لما ادّعاه البعض، لم يكن الوعي القبلي سوى اختراع استعماري. فقد تكثّفت عمليات "التّواصل الطائفي" (أي نشأة الجماعات المنغلقة نسبيّا، والمرتكزة على مبدأ الانتماء إلى هويّات خياليّة لا أكثر ولا أقلّ) في أعقاب نهاية الاستعمار، وانتهى بها الأمر بالبروز في كلّ مكان تقريبا بثقلها المفرط على مسارات الدّولة وعلاقاتها بالمجتمع.

أمست القبليّة، كآليّة ابتدائيّة للمماثلة، اللغة المميّزة لرغبة القوّة وكذلك نقاط الضّعف الحقيقيّة. ووقع في كلّ

مكان تحريرها، أجهضت العواطف القبليّة الوعد الذي يرى بأنّ المؤسّسات في المجتمعات المُستعمرة قديما تستطيع أن تتأسّس لا على العشوائية، بل **على العقل**. فهي لم تعرقل جهود تأسيس مجتمع مدني جديد بهذا الاسم، أو أحبطت العديد من عمليّات التّجنيد التي كانت في الأصل واعدة. وقبل كلّ شيء، دحرت أفكار المساواة، وحتى "الشيء العمومي"، المحميّ والمضمون بالقوّة الحاملة لنفس الاسم.

ومن بين أشكال القبليّة لما بعد الاستعمار، تمثّل أحيانا ما هو منها أكثر تآكلا، في تخصيص منفذ أساسي لكلّ أنواع "فرص الحياة" لمجموعة عرقيّة على حساب جميع المجموعات الأخرى. وفي مثل هذه الحالات، اقتصرت أحيانا دائرة الأشخاص القادرة على التمتّع بهذه الحظوظ - سواء كانت فرصا اقتصاديّة أو مهام عسكريّة، وإداريّة ومدنيّة - على فصيلة عرقيّة، وهي فصيلة الطاغية. إنّ أحد محرّكات القبليّة هو الصّراع لاستخراج [المواد الأوّليّة] وللابتزاز، ثمّ الاستيلاء على جميع الإيرادات وتوزيعها. وإن تمثلت القبليّة في الاستيلاء، من قبل مجموعة عرقيّة **وعن طريق** وسائل الدّولة، لأقسام هامّة منتزعة من الثّروات المشتركة **مسبقا**، بل حتى استلاب دون شرط للخيرات التي ليست لها ملكيّة خاصّة للطاغية. وبإلغاء شروط التّملك الجمهوري، وصلنا إلى احتكار من طرف مجموعة عرقيّة محدّدة، لما هو مفترض ملكا للجميع، بحكم جوهره العمومي.

فالقبليّة، مثلما انتشرت منذ نهاية حركات الاستعمار

المباشر، هي إذن جزء ممّا يمكن أن نصفه بالمنطق الحصري على الاستحواذ الاحتكاري. ففي ظلّ الأنظمة الاستبداديّة، يتمّ دوما استهداف تحويل ما كان، قانونا، من ملكيّة عموميّة إلى ملكيّة عرقيّة. وبهذا فقط يتمّ إفساد حتى فكرة الجمهوريّة. فتوضع لفائدة مجموعة معيّنة "سلطات تصرّف"، وتبحث المجموعة المعنيّة فيما بعد عن تحويلها إلى حقوق مكتسبة لا لفترة محدّدة، ولكن إلى أجل غير مسمّى. فتكون القبليّة، في هذا المعنى، طريقة للاستحواذ على "نصيب الآخرين". وبهذا، فهي حتما منتجة للصّراعات.

ومثل كلّ مجموعة لا توجد مسبقا جمهوريّة، ولا ديمقراطيّة. وهما جوهران مجرّدان وثابتان، قد نكون باسمهما مستعدّين للقتل، أو القيام **بعمل عكسي**، والمغامرة بالحياة. قد يكون مثل هذا التّصوّر للمجموعة، وللجمهوريّة وللديمقراطيّة تصوّرا إيديولوجيّا محضا، وخارج إطار الصّراعات الطبقيّة الحقيقيّة، فإنّ الجمهورية، والطائفة والديمقراطيّة لا تعني بدقّة شيئا. فربّما أنّ فكرة السلطة العموميّة التي قد ارتبط بها كلّ فرد، ليست كونيّة. فإن لم تكن غائبة، فهي لم تكن أيضا متقاسمة من قبل جميع المجتمعات الإفريقيّة قبل الاستعمار. فقد كان تصوّر "الثروات المشتركة"، على العكس، موجودا. ولا تمتلك مثل هذه الخيرات طابعا اقتصاديّا فحسب، بل وخصوصا اجتماعيّة وسياسيّة. إنّها خيرات كانت تُعتبر بمثابة الهيئات السّياديّة.

نعتبر أنّ الخيرات موهوبة للحياة، لأنّ المسألة تخصّ هوايات لها شأن خاص، وكانت مثل هذه الثّروات غير قابلة للتّصرّف باعتبارها كانت ملكا لذاتها. فهي على ذمّة المجموعة، ولكن ليست لهذه الأخيرة أيّ حقّ يتجاوز حقوقها الذّاتيّة. كان ذلك، مثلا، حال العلاقات التي أقامتها المجموعة مع الأرض. وبالتّالي، كان الموقع موجودا في عدم التّملّك. وهنالك ثروات تتجاوز كيان شخص وتساهم في إعادة إحياء حياة أكثر من شخص.

تفوّقت المجموعات البشريّة من أيّ نوع على فكرة السّلطة العموميّة والملكيّة الخاصّة بوضوح. فقد كانت الأشكال المتنوّعة "للمشترك" أو "ما هو مشترك" دامغة. وكانت العلاقات المشتركة نتيجة سواء من الإيمان أو النّشاط الذي يعود إليه الأفراد أو مجموعات الأفراد بعضها بعض. فالهويّة ذاتها جزء من الإيمان - اللغة، والدّيانة، والتقاليد الثّقافيّة، و التجانس المادّي، وتشابه العادات. ولم يكن للمجموعة أيّ طابع أصولي. فحتى وإن أحيلت على معتقدات متقاسمة، مثل الإيمان في أساطير المنشأ. فليس لها شيء آخر سوى اسم المسؤوليّة المتبادلة بين الأجيال. فعند قطبي قوس الأجيال يوجد من جهة الأجداد ومن أخرى الأجيال القادمة. وتتمثّل إقامة مجموعة في السيطرة على فنّ إقامة علاقة بين الاثنين. وكان نسج علاقة وتأليفها قضيّة عمليّة. ولم تكن الطوائف مجموعات متينة ومنغلقة على ذاتها، ولكن تجميع عالمي، وإعادة تركيب مستمرّ، قادرة على هضم الاختلافات عن طريق تجمّعات دائمة.

تكتسي الهيمنة، هي أيضا، أشكالا مختلفة. فأينما كانت مقنّنة، فإنّ فكرة الحقوق الفرديّة لم تكن غائبة تماما. غير أنّه ليس من المتأكّد بأنّ فحوى مثل هذه الحقوق كان فعلا نفس المحتوى الذي نمنحه له بالمعنى الحديث للعبارة. تلك كانت في جزء كبير الحالة المرتبطة بالحقّ في المساواة. وإن ارتقت الأصالة والتفرّد، فهذا لا يتساوى بالضّرورة مع الحقّ الأساسي للمساواة. لقد كانت اختلافات الوضع القانوني والتّسلسل الهرمي مقنّنة، بل وحتى من المفترض جامدة. وفي أحسن الحالات، كان عدم المساواة متسامحًا معها. وكان غياب الحماية الضروريّة للصّغار الاجتماعيين أقلّ من ذلك. لم تعد هي الحالة في هذه الدّول التي ليس لها أحيانا من دولة سوى الاسم.

حركات بلا حراك

يتعلّق الأمر، في الواقع، ببلدان تحت الحماية، والمستعمرات المشفّرة تحت طائلة رأس المال العالمي والرّهبان البوذيين الطيّبين الذين يتمثّل عملهم الأساسي في إدارة الاغتيالات وإجهاض الحياة. والشيء الوحيد الذي كان، هنا، يحرّك الحشود هي الحاجة البيولوجيّة العضويّة. ويرى الجميع، أسيادًا وعبيدًا، جلادين وضحايا، زعماء ورعايا، أنفسهم في معظم الوقت ما لم يكونوا عليه أو قد لا يكونون عليه. وكانوا، متلمّسين الطريق ومترنّحين باستمرار، مهدّدين بالحجز في زنزانة حسيّة أساسا. ألا يبحث الاستبداد أوّلا على إطفاء الحواسّ؟

بما أنّ الجمود لم يتوقّف عن التّكرار في حركة واضحة، قليل ممّن يبحث عن البقاء. فالعيش في بلد يترك، منذ مدّة، مكانا للرّغبة في الفرار. ويسافر بعضهم على متن طائرة. وآخرون في شاحنات أو، إن استلزم الأمر، على الأقدام. ويغادر آخرون أيضا موطنهم بجواز سفر أو دونه. ولا يقسم مئات الآلاف، متراصّين فردا فردا في قوارب بالية، إلّا بإرادة التخلّي، وكأنّ كلّ شيء قد ضاع من الآن فصاعدا، وكأنّه لا يوجد أيّ شيء للإنقاذ في هذه الصّحراء المشتعلة. وسيجبرون، وهم ملقى بهم في مسالك الهجرة، على الانتظار، والمراقبة، والاعتقال، والحبس والطّرد. وسيهاجمون فيما بعد الحرّاس اللّيبيين الأجلاف. وهؤلاء، كلاب صارخة وقتلة مأجورون مموّلون من قبل أوروبا، سينظمون ذلك دون مبالاة بالغرق في مياه البحر الأبيض المتوسّط، قابضين على البقايا (الناجين)، لجعلهم أسرى يبيعونهم في المزاد العلني في أسواق النخاسة الجديدة لإقليم طرابلس.

فأيّ اسم نطلقه على أولئك الذين، ببحثهم عن المغادرة، يجدون أنفسهم محاصرين، وهم قطيع متكدّس في معسكرات ومراكز اعتقال أين يجبرون على التبوّل في سطل، والنوم وسط النفايات البشريّة المتناثرة على الأرض، وتحت رحمة القصف الجوّي؟ فهل يرحلون فعلا من تلقاء أنفسهم، عازمين على تجديد حياتهم؟ وهل هم، بالمعنى الدّقيق للكلمة، "مهاجرون"؟ أليسوا، قبل كلّ شيء من المغامرين؟

أو بالأحرى من **الفارين** أو من **الهاربين** من عالم لم يعد فيه **ملجأ**، ولا ، إن صحّ القول، **مستقرّا ذاتيا**؟ فأيّ عمل هجين إذن اقترفوه، أجبرهم على مغادرة منازلهم وعلى تحمّل وضعيّة **المنبوذين** في هذه البلدان التي لا يترقّبهم فيها أحد أو، أسوأ من ذلك، لا أحد يرغب فيهم، وأين، آجلا أو عاجلا ، سينتهي بهم الأمر إلى تكبّد العديد من الجراح؟

ففي الظروف المعاصرة، تنقسم الفضاءات إلى عدّة أجزاء. فهنالك تقسيم جديد للعالم قيد الإنجاز. ومن الآن فصاعدا، تتّجه الحدود في نفس الوقت نحو الدّاخل والخارج. فقد أصبحت أماكن، لم تعد فيها الدّولة في حاجة أبدا لكبح عنفها البدائي. ولا تتميّز خطوط الحدود فقط في الدّاخل عن الخارج. فهي تنتقي مساحات، وخاصة لون بُشرة وتكشف فيها عن نقاط ضعف جوهريّة.

لا يضمن إذن القرار مطلقا أيّ شيء. فالهروب هو، أحيانا ، السير نحو الخسارة المحضة. فهو التلهّف في حركة براونيّة. وهو التأكّد من عدم القدرة على العودة إطلاقا ، بما فيه العيش في مكان الولادة. وأصبح الفرار هو الاسم الآخر لطموح العيش في مكان آخر غير المستقرّ الذّاتي. ولهذا ، يكون الفرار شكلا من الاستسلام والتّراجع. وبما أنّ الخسارة تسللت إلى كلّ لحظة من حياته، فإنّ الفّار أو الهارب لا يفهم بأنّ شعبا لا يستطيع التحرّر إلّا بذاته وبأنّ الكثير من السّلبيّة المتكبّدة حينا والمحتسبة أحيانا ، على خلفيّة النّضال لأجل البقاء على قيد الحياة، لا تؤديّ إلّا إلى انسداد

يستحيل تجاوزه، وأقفال يستحيل كسرها أو أنّ استعادة مصيره وتحطيم شظايا البهيميّة التي تحاول الوحشيّة أن تقيّد فيها الكائن الحيّ. فليس هنالك أيّ خيار سوى الوقوف والدّفاع عن النفس على قدم المساواة[21].

تتسبّب إذن الوحشيّة، في مخابرها التي هي بلدان الاستعمار الحالي، في خسائر لا حصر لها، بدءا بانتشار الامراض، والجلطات الدّماغيّة. وبتجاوزها مع القبليّة، يضاعف الاستبداد من الأجسام المنتفخة، والمليئة بالجروح، ومن معنويات واهنة، باحثة باستمرار عن ثغرات. ولنطلق على هذا اسم المخبر الآلي للعقول، الذي نرى من خلاله حدّة الفكر والحسّ المشترك، وتخدير الحواس، والالتباس بين الرّغبة، والحاجة والاحتياج، وإبادة كلّ رغبة أخرى سوى الرّغبة المازوشيّة- السّاديّة، والإكراه السّادي، الواجب توضيحه، وشحنتها للتكرار، والطاعة التلقائيّة والتقليد الأعمى[22].

كيف يمكن بغير ذلك تفسير وجود الكثير من المواضيع المدمّرة، وانتشار غرف التّعذيب، وجمهرة الزّنوج المقيّديّ الأيد والأرجل، والجسم المقطّع والمخرّب، واللحوم الممزّقة لمن تمّ صعقهم بالكهرباء، والتّشويه المتعمّد المتعرّض له أثناء المظاهرات السّلميّة، والغازات المسيلة

(21) E. Dorlin, *Se défendre, op. cit.*

(22) A. Mbembe, *De la postcolonie, op. cit.*

للدّموع المسكوبة بجرعات عالية في الرّئتين، شاحنات المياه، والطلق النّاري الحقيقي، والعين المفقوعة، والسّاق المبتورة، والاعتقالات الوقائيّة في السّجون النّتنة، وعلى رأس كلّ هذا، المثول أمام محاكم زائفة يرأسها قضاة مزيّفون مبرمجون على كراهيّة الحياة[23]؟

وفي أي لغة توصف هذه المجازر المتكرّرة، وحياة هؤلاء الأشخاص المطحونين يوميّا، وطقوس الطّاعة العمياء، والتّعوّد على الإذلال والحقارة، واضطهاد الخصوصيّات، والأقنعة المحمولة طيلة اليوم، وغياب التّعاطف، وهيمنة اللامبالاة، والافتتان العظيم بالتّضحيات الدّمويّة، والموت العنيف الذي يلحق المعارضين، ونوع من الانحدار الصّبياني المصاحب لكلّ عمليّة تعنيف، وترهّل شعوب بأكملها تحوّلت إلى أشياء يتقاذفون بها في كلّ الاتجاهات، هذه المشاهد الكبيرة والصغيرة للتراجع والتّنازل، وكأنّما الهروب، وهو المغامرة الوحيدة، يسمح بالفرار من هذه المهزلة البشعة والمأسويّة أيضا[24]؟ ونعيش، هنا، تحت الضّغط، بالمرصاد. وبشكل دائم. صيّاد في لحظة، وفريسة في اللحظة التّالية، وأحيانا في الحالتين في نفس الوقت. وكثير منهم، سواء في وضع القرفصاء أو راكعون، هم، في الحقيقة، في وضع الحيوان المُطارد، واللحم مثلما صوّره جيّدا الرّوائي

---

(23) Sony Labou Tansi, *L'ètat honteux, op. cit.*

(24) Yambo Ouologuem, *Le Devoir de violence, Seuil*, Paris, 1968.

سوني لابو تانسي[25]. فكلّ شيء، في الواقع، مسألة غنيمة، ومن الأفضل في الرّكام. فالمعاملة بوحشيّة، هو، فعلا، الاقتراب من الفريسة، والوثب، والتحسس، وتوجّس الحواس، واللمس، والعصر قبل التّذوّق، والاحتكاك النهائي[26].

ربّما ما يريد، تحديدا، الفارون والهاربون أن يولوا له الظهر - وهي تلك القاعات للطبّ النّفسي المتمثّلة في مستعمرات المضاربة الفرنسيّة بإفريقيا بالخصوص. فقد سئموا من تسميمهم بكميات من المواد السامّة هي بمثابة المشروب للجميع. ويريد الهاربون تناسي الحرب القبليّة، والأيادي المقطوعة، والابتزاز في كلّ ركن من الشوارع، والشّرطيّ الذي يتحرّك في وضح النّهار كرجل عصابة يَبْضَعُ السّكان، والاقتناص والفساد، والجزمة فوق العنق، وهذه الضّباع، المتهكمون في جلسة تعذيب كاملة، وهذه الأعضاء الذّكوريّة الضخمة والمنتصبة مثل الأعمدة، والتي لا شيء بالنّسبة إليها منيع، وتلك السجون القذرة والممتلئة باليرقات أين يجرّد الأبرياء وأين يُسمع أنين جميع أنواع الأنابيب، وكرنفال الغرائز.

وأن تكون، في كلّ مجموعة من الأسرى، في وقت أو آخر، أسيرا، فهو من نصيب الجميع. فتنكشف الوحشيّة في

---

(25) Sony Labou Tansi, *La Vie et demie, op. cit.*

(26) Elias Canetti, *Masse et puissance*, Gallimard, Paris, 1966, p. 215-226.

السّجن، عندما يكون الإنسان متزاوجا مع وحشه، جسم وكتلة، جسم ولحم، خاضعان للتّعذيب، والذي يهرب من أعضائه، والتّعب من الحياة والرّغبة في الانتحار. إنّ السّجن هو أوّل شهادة عمليّة للتضليل الذي يتسبّب فيه الاستبداد. إنّهم يكدّسون الزّنوج. ويجعلون منهم أكواما. يرصصونهم ويكدّسونهم فيها. ولم يعد الفارون يرغبون في الصّراخ امام هذا المشهد البغيض المتكوّن من جرائم دمويّة ودون عقاب، ومن شذوذ وقسوة، وصخب غبيّ مصمّم للآذان، ويحرّر هذا الأخير البكتيريا القوسيّة. فهم لا يريدون الموت هنا أو هناك، والبشرة محترقة، مقيّدين في خلايا النّخر لأنظمة سفيهة ومعتوهة.

وعلاوة على ذلك، من لم يسمع عن أولئك المستبدّين، الجنود المرصّعين بالذّهب والأحجار الكريمة، والمصطفين مع المزيّفين في صورة مومياء؟ ومن لم يسمع بالمصير المكرّس لمعارضيهم؟ ومن لم يسمع عن الفظائع، وآلاف المساجين المكدّسين مثل قمل العانة في الزّنزانات، مثل العبيد في معابر سفن الرّقيق؟ وفي الأصل، ما هو الفرق بين كودانغي، ومعسكر بوارو، ولينديلا وأبو غريب، وغوانتنامو، وقريبا منّا جزيرة روبين؟ أو أيضا بين "الاحتلال الأجنبي أو الاستعماري" ونوع من "الاحتلال أو الاستعمار الدّاخلي" الذي خلف الهيمنة الأجنبيّة؟

ومن شاهد تلك الصّور لطرائد ذاك أو ذلك المستبدّ الضعيف، الذي لا يتوقّف عن التهوين عن نفسه، والأصمّ

كما هو للصخب العنيف المتصاعد من تلك العلب للقمامة التي واصل القتلة المستأجرون والسّحرة الأفارقة المعترف بهم بنعتها "بالجمهوريات"، وكأنّهم يريدون حجب التّعفّن المحيط بها؟ إذ، في الحقيقة، وتحت سماء المستعمرات المضاربة الفرنسيّة بإفريقيا بالخصوص، يسير العفن والاستبداد، والرّوث بالتساوي. فالاستبداد، في الواقع، يتساوى مع فتحة المجاري العظيمة والمزبلة التي تأتيها جمهرة العبيد وجلّادوهم للارتواء منها، والهوّة التي يحميها بالسلاح جيش من صغار العمالقة في خدمة معبود جماهير مفترس. فيكون الطاغية، وهو الشيطان في الأسفل المدفوع بعقليّة الخنزير، صورة متقاطعة لوحش شرس، ولثعبان وجزّار، ولناقل، وسائق عربة، وموزّع لثروات مسروقة ومنهوبة، ويبيع بلده في المزاد العلني، ولكاهن مسلّح بسكين منغمس في الحمض وفي المحلول المائي، والذي، في أحلامه المصبوغة بجنون العظمة، يدّعي تفتيت قطع من الشمس.

لا يزال من الضّروري التحفظ من أن نرى في الاستبداد شكلا إفريقيّا للسّلطة القديمة. وفي الحقيقة، تكون الوحشيّة المعاصرة - وليس ما بعد الاستعمار سوى أحد تعابيرها - هي الاسم الآخر لما يمكن أن نطلق عليه اسم "المستقبل الزّنجي للعالم". إنّ بروز الحساب كبنية تحتيّة عالميّة يتزامن مع لحظة حاسمة من تاريخ حروب تمّ تنفيذها ضدّ سكان لا لزوم لهم. فهؤلاء منفصلون أكثر فأكثر عن المراسي التي

كانت تمثلها الدّول-الأمّة، في اللحظة التي تتحوّل فيها الدّولة ذاتها، نتيجة لليبيراليّة الجديدة، إلى تكتّل فضاءات غريبة ومقاطعات مجزأة أكثر فأكثر. ولم تقم الأزمة البيئيّة إلّا بأن جعلت هذه التجزئة تتفاقم. فتمّ إقامة اقتصاد تقسيمات جديدة على سطح الأرض. وسيتواصل جمود الجماهير المعتبرين زائدين بصفة ملحوظة، وستتكثّف تقنيات المطاردة، والاعتقال والاقصاء.

8

الإنسانيّة المحتملة وسياسة الكائن الحيّ

إن تظاهرنا، في الفصل الأخير، بإلقاء نظرة على مسارح الظلّ للفكر الغربي، فكان ذلك تحديدا حتى نبتعد، على أحسن حال، عنها. وكانت هذه الحركة للابتعاد أوّلا ضروريّة لطرح بكلفة جديدة مسألة علاقات الإنساني بالمواد المصنوعة. ويجب من البدء التّخلّص من حاجز ميتافيزيقي. ولم تكن دائما، لجميع المواد التي خلقها البشر، نتيجة توسّعهم الخلّاق والإبداعي، بغاية تنمية الآليّة. فقد كانت، أحيانا، هذه المواد مكوّنات أساسيّة لا يمكن تخطّيها في إنتاج ما يمكن تسميّته **طاقات الكفالة**. وكان الأمر بالنّسبة إلى أغلب المواد الفنّيّة الإفريقيّة. وعلاوة على ذلك، فقد كان ذلك هو المعنى الواجب إطلاقه على مفهوم مذهب حيويّة المادّة. ثمّ أنّ حركة الإقصاء هذه ضروريّة، إن أردنا إعادة احتلال المنطقة اللامتناهية التي تحملها هذه المواد، وصياغة، من هذا الموقع، نقد مترتب عن الماديّة المعاصرة. وتسمح، في الواقع، بتنسيب قطبيّة الطبيعة والحيلة التي ترصّص كثيرا نقد التقنيّة في العالم الغربي. وبإقصاء هذين الحاجزين، أمسى الطريق عندئذ ممكنا بالرّجوع إلى ما كانت عليه إفريقيا رمزا طيلة قرون، بمعنى رمز **الإنسانيّة المحتملة ومادّة للمستقبل.**

هنالك أمر يستدعي حمل حكم معياري وخارجي عن المواد الإفريقيّة دون الأخذ بعين الاعتبار تاريخها وتناقضاتها أو اللغز الذي يمثّل تعبيرها[1]. وهنالك أمر آخر، وهو السّعي في التّمكّن، من خلال خصائصها المميّزة، وموادها ومهامها، وطرق وجود ومعاينة الأفارقة؛ أو أيضا تفهم، عبرها، النّواة الميتافيزيقيّة التي من خلالها خلقت معنى كان الأفارقة أوّل مؤلفيها في نظرهم ولفائدتهم[2].

وفي الواقع، إن كانت هنالك علاقة أم لا في ممارسة العبادات أو الطقوس الخاصّة، وإن اعتبرت أم لا أعمالا فنيّة، فإنّ هذه الأشياء المعتبرة أحيانا محبطة - وهي في الحقيقة مسائل ميزات وآثار - أجّجت دوما من قبل الغرب كلّ أشكال الأحاسيس، والمشاعر الغامضة، وردود فعل شديدة الغضب، وحتى المتناقضة - وسواس، وافتتان،

---

(1) نرى من خلال "المواد" أو "الأدوات" الإفريقيّة، فكرة عامّة أو أيضا مجموعة من السكان من "الأشياء" أو المنتوجات الماديّة، تكتسي هذه الأخيرة أو لا مهمّة جماليّة أو تدعو إلى استثمار من نفس النوع. حول هذه المناقشات في السياق الأوروبي، انظر:
Jean-Marie Schaeffer, «Objets esthétiques?», *L'Homme*, nº 170, 2004, p. 25-45.

(2) Engelbert Mveng, *L'Art et l'artisanat africains*, CLE, Yaoundé, 1980; Léopold Sédar Senghor, «Standards critiques de l'art africain», *African Arts*, vol. 1, nº 1, 1967, p. 6-9 + 52; Aimé Césaire, «Discours prononcé à Dakar le 6 avril 1966», *Gradhiva*, nº 10, 2009, p. 1-7.

وإعجاب، ورعب، وإحباط، وتنافر، وحتى اشمئزاز. وفي كلّ مكان ظهرت فيه، كان لها منحى لإحداث آثار عدم تبصّر. وبعد أن وقع اعتبارها أصليّا كأشياء قذرة، بشعة ووحشيّة، بإمضاءات في الظلّ، مقاومة لكلّ ترجمة، فقد دفعت بقوّة الأجهزة العينيّة الموجودة ووقع تحيين السؤال القديم لمعرفة ما هي الصّورة وإلى أيّ حدّ تختلف عن مجرّد ظلّ: فما هو الفنّ والتجربة الجماليّة عموما وكيف تبرز في حقيقتها المحضة؟

ومن بين جميع الاهتمامات الموجّهة إلى هذه التظاهرات للإبداع الثّقافي لشعوبنا، هنالك بالخصوص أربعة تستحقّ الوقوف عندها.

انطلق كلّ شيء في القرنين الخامس عشر والسّادس عشر عندما نزل التّجّار البرتغاليون على سواحل ما سمّي عندئذ بغينيا. فوجدوا أنفسهم خلال معاملاتهم التّجاريّة مع السّكان المحليين في مواجهة مع أنظمة مطبوعة بغموض بنيوي لتحديد القيمة. فظهرت المواد المتبادلة تارة في شكل مادّي للبضاعة، وطورًا في شكل جسدي، وهو شكل أشخاص بشريّة، من خلال نسيج متكوّن من تغييرات متواصلة، وتكثيف، وتشابكات، وخطوط متحوّلة باستمرار.

ولنشرع بنظرة المبشّر، الذي قد تكون بالأساس لهذه الأدوات في عينيه تأثيرات لخيال شيطاني. وارتسمت مسبقا هذه النّظرة الدّينيّة- الرّعويّة لأوائل التبشير، التبشير في

ممالك الكونغو من 1496 إلى 1506، ثمّ من القرن السّابع عشر إلى القرن الثّامن عشر، وفي الداهومي في القرن السّابع عشر[3]. وانطلقت، بوضوح، شيطنة الأشياء الإفريقيّة منذ القرن الخامس عشر من إرث لا يمكن تصوّره، كان يحمله العديد من الشخصيات التّبشيريّة، باستثناء البعض منهم[4]. فقد مثّل الشيطان، في الواقع، ولمدّة طويلة، القسم المظلم من الثقافة المسيحيّة الغربيّة[5].

وخلال القرنين الثاني عشر والثّالث عشر، تمّ جمع مختلف الأبالسة، التي كانت تعشّش في التصوّرات الخيالية القديمة، في تصوّر واحد، وهو الشيطان، السيّد المطلق لجهنّم ومنافس الإله على الأرض. وشيئا فشيئا، احتلّت صورة الشيطان عدّة ميادين من الحياة الخياليّة

(3) Duarte Lopes et Filippo Pigafetta, *Description du royaume de Congo et des contrées environnantes,* éd. et trad. Willy Bal, Nauwelaerts, Louvain, 1965, p. 81-82; Jean Cuvelier, *L'Ancien Royaume du Congo. Fondation, découverte et première évangélisation de l'ancien royaume du Congo*, Desclée de Brouwer, Paris, 1946; Olfert Dapper, «Description de l'Afrique», in Albert van Dantzig (dir.*),* *Objets interdits,* Fondation Dapper, Paris, 1989, p. 89-367; Jean Bonfils, «La mission catholique en République populaire du Bénin aux xviie et xviiie siècles», *Nouvelle Revue de sciences missionnaires*, 1986, p. 161-174.

(4) في سجلّ الاستثناءات انظر مثلا:
Martine Balard, «Les combats du père Aupiais (1877-1945), missionnaire et ethnographe du Dahomey pour la reconnaissance africaine», *Histoire et missions chrétiennes*, vol. 2, nº 2, 2007, p. 74-93.

(5) انظر:
Robert Muchembled, *Une histoire du diable, XIIe -XXe siècle*, Points, Paris, 2002.

والاجتماعيّة[6]. وكان إبليس يرمز إلى حرب العوالم ومواجهة بين الخير والشرّ، بين الجنون والعقل. وفي نفس الوقت، يشهد على السمة المضاعفة للصّورة البشريّة التي تطوّقه والتي يحفر داخلها فراغا يستحيل تجاوزه تقريبا[7]. وبين 1480 و1520، ثمّ بين 1560 و1650، بلغت هذه الملاحقة الشيطانيّة ذروتها، مثلما برهنت على ذلك المحاكمات اللامتناهية، والمطاردات الكبرى وتعدّد محارق الساحرات، عندما تمّ التلاقي بين الصّورة الشيطانيّة، من ناحية، والجسد والحياة الجنسيّة للنساء، من ناحية أخرى[8].

تحمل أوّل مرحلة للتوسّع التّبشيري في إفريقيا في صلبها آثار هذا التّوتّر الأساسي. ومع بروز المهمّة التبشيريّة، تحوّلت "أماكن إبليس" في إفريقيا، وهي منطقة من العالم تديرها بعمق، حسب ما لوحظ في ذلك العصر، حياة فوضويّة وفي ترقّب لتنظيم وخلاص لا يمكن أن يأتي من الخارج[9] ودون مفاجأة عظيمة، قام المبشّرون الأوائل

---

(6) انظر الملفّ:
«Le diable en procès. Démonologie et sorcellerie à la fin du Moyen ôge», *Médiévales*, nº 44, 2003.

(7) Alain Boureau, *Satan hérétique. Naissance de la démonologie dans l'Occident médiéval (1280-1330)*, Odile Jacob, Paris, 2004.

(8) Guy Bechtel, *La Sorcière et l'Occident. La destruction de la sorcellerie en Europe des origines aux grands bûchers*, Plon, Paris, 1997.

(9) Michael McCabe, «L'évolution de la théologie de la mission dans la Société des missions africaines de Marion-Brésillac à nos jours», *Histoire et missions chrétiennes*, vol. 2, nº 2, 2007, p. 1-22.

بتأويل المواضيع الإفريقيّة انطلاقا من نموذج "السحر الشيطاني"، الذي برز، خلال قرون، في الغرب.

لقد وقع إخضاع هذه المواضيع إلى محاكمات شبيهة بالمحاكمات التي رُفعت، في ظلّ المسيحيّة، ضدّ الدّمى المنمّقة بالإبر، ووضع السّحر هنا وهناك، والمستقبل الذي نحاول التّكهّن به، والشراب المعدّ، والتواصل الذي نحاول إقامته مع الموتى، وصيام أيّام السبت، والمكانس والصلوات بالقفا، وخبز القربان المدنّس، والجماع مع الحيوانات، وجميع أنواع الذّبائح الدّمويّة التي، حسب ما نرى، تجعل الإيمان في إبليس وقدراته، ممكنا. فالمواضيع الثقافيّة المقترحة بالخصوص كرموز ماديّة لانحراف الأفارقة نحو عبادة الأصنام، وتأليه الموتى، وممارسة الذّبائح الدّمويّة، تعرّضت إلى استنكار المبشّرين[10]. وبشكل أساسي، لم يلاحظ هؤلاء سوى علاقة - وليست الأخيرة - للاختلاف الأساسي بين عقليّة المتوحّش وعقليّة الإنسانيّة المتحضّرة[11].

---

(10) انظر على سبيل المثال:
Kevin Carroll, Yoruba Religious Carving: *Pagan and Christian Sculpture in Nigeria and Dahomey*, Chapman, Londres, 1967.

(11) حول هذه البدايات، انظر:
Lucien Lévy-Bruhl, *Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures*, Alcan, Paris, 1910, La Mentalité primitive, Alcan, Paris, 1922, et L'ôme primitive, Alcan, Paris, 1927), Olivier Leroy, *La Raison primitive. Essai de réfutation de la théorie du prélogisme*, Geuthner, Paris, 1927, et Raoul Allier, *Les Non-Civilisés et nous: différence irréductible ou identité foncière*, Payot, Paris, 1927.

وتأكّدت نفس النّظرة في سياق حركة التّبشير الثّانية من سنوات 1822 (سنة تأسيس أعمال نشر العقيدة). فكان هدف العمل التّبشيري، المعقّد والملتبس بطرق عدّة، هو هداية الأفارقة إلى التوحيد الفريد الذي يستحقّ ذلك، التوحيد الحقيقي، الذي "لا يعترف إلّا بإله واحد والذي من أجله لا توجد آلهة أخرى"[12]. ونظريّا، لم يكن توريد عادات الأمم الأوروبيّة إلى إفريقيا فحسب، بل تبليغ الإنجيل إلى شعوب متخلّفة، من الواجب تقويمها والرّفع من شأن أفكارها وتقاليدها، والتي من الواجب تخليصها من كلّ الخرافات والدّفع بها نحو الخلاص. وفي الحقيقة، كان العمل التبشيري مرتكزا على عمودين، وهما رفض الأسس الميتافيزيقيّة للدّيانات المحليّة، والقمع الدّيني، حيثما كان ضروريّا، بغاية الهداية.

يكون من واجب المهتدي، في المنطق المسيحي، الاعتراف بأنّ الطريق المتّبع حتى السّاعة يؤدّي مباشرة إلى الخسارة. فمن واجبه، بالتّخلي عن حياته ووضعه السّابقين، التّوبة ومراجعة النّفس يحصل بمقتضاها على ذاتيّة جديدة، وطريقة جديدة للسّكن في العالم والجسد والأشياء. ففي اللاهوت التبشيري، يرتكز أحيانا الخضوع إلى الشيطان - وإذن إلى مبدأ الموت الروحاني وفساد الرّوح - عن وعي أم لا على الأشياء وعلى العلاقات التي يقيمها البدائيون معها.

---

(12) Jan Assmann, *Le Monothéisme et le langage de la violence. Les débuts bibliques de la religion radicale*, Bayard, Paris, 2018, p. 75.

وعلاوة على ذلك، فإنّ نمط الوجود الوثني، في غموضه، يتميّز بهيمنة البشر بمختلف أنواع الأوثان، يحسدها هؤلاء باستمرار، ويخافونها ويبحثون دوما على الحصول عليها أو هدمها، والتي يحوّلون إليها القوّة، والجبروت، والحقيقة التي تعود حصريّا للإله. وفي الممارسة، أدّت الهداية إلى اختراع ثقافات دينيّة رخيصة، مصنوعة من استعارات من كلّ نوع، ومن صفات خليط، وإعادة تملّك محفوف بالمخاطر، وممارسات جماليّة هجينة[13]. فقد كانت في الأصل من سوء الفهم الكبير، ومفارقات متعدّدة، وعمليّة معقّدة لإعادة تعريف كلّ واحد من أنصار اللقاء[14].

تمّ في هذا الإطار تطوير **الخطاب المُضاد للوثنيّة** التّبشيري. فأثّر، أكثر من الاعتراف به، في التّصوّرات التي أقامها الغرب للأشياء الإفريقيّة، ولمادتها، ووضعها الأساسي ومهامها. ويرتكز هذا الخطاب على المُسلّمة القائلة بأنّ الزّنوج كانوا يعيشون في غياهب الحيوان الحميمي. أمّا بالنسبة إلى العالم الإفريقي، فقد كان **مسبقا** محروما من كلّ

---

(13) Cécile Fromont, *The Art of Conversion: Christian Visual Culture in the Kingdom of Kongo*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 2017.

(14) انظر حول هذا الموضوع:
Jean et John Comaroff, *Of Revelation and Revolution*, vol. 1: *Christianity, Colonialism and Consciousness in South Africa*, et vol. 2: *The Dialectics of Modernity on a South African Frontier*, The University of Chicago Press, Chicago, 1991. Voir, par ailleurs, Achille Mbembe, *Afriques indociles. Christianisme, pouvoir et ètat en société postcoloniale*, Karthala, Paris, 1988.

فكرة عن إله واحد، قد يكون نموذجا لكلّ نموذج، وسببا لكلّ سبب. ولم يكن لديه، على الأقلّ، وعي واضح لمثل ذلك المبدأ. وفي المقابل، كان مثل ذلك العالم مأهولا بالعديد من الكائنات، والعديد من الآلهة، أجدادًا، وعرّافين، ووسطاء، وعفاريت من كلّ نوع تتنازع التفوّق باستمرار. وأقام المجتمع البدائي، مع القوى والكيانات، علاقات فوريّة وجوهريّة[15]. ولا نستطيع، من خلال هذا الزّخم من المعتقدات، الحديث مثلما نتحدّث عن ديانة كما هي، نظرا لصعوبة التّمييز بين ما يخصّ طقوس القتل، وعبادة الأرواح وما يساهم في العبادة البسيطة للمادّة.

وهنالك، إلى جانب هذه الصّور، مجموعة من القوى (في معظمها شرّيرة) تشيّد الكون وتقود حياة كلّ واحد منّا. ويمكن لبعضها أن تكتسي مظهرا بشريّا، ويمكن لأخرى أن تتجسّد في جميع أنواع العناصر، بما فيها الطبيعيّة، والعضويّة، والنّباتيّة والجويّة، تُمنح إليها العبادات والأضاحي[16]. يمكن لطقوس العبادة أن تتمّ في أماكن محدّدة، مثل المعابد. ولكن، في الأصل، فإنّ الكون العضوي، والنّباتي والمعدني (الدّوّامات النّهريّة، والأضرحة،

---

(15) J.-E. Bouche, «La religion des nègres africains, en particulier des Djedjis et des Nagos», *Le Contemporain*, 2e sem., 1874, p. 857-875, 1041-1058.

(16) Bernard Salvaing, *Les Missionnaires à la rencontre de l'Afrique au XIXe siècle. Côte des Esclaves et pays yoruba, 1840-1891*, L'Harmattan, Paris, 1995, p. 261-299.

والغابات المقدّسة، والماء، والأرض، والهواء، والصّاعقة)، الممكن دعوتها والتي تساعد على أن تكون وعاء لقوى، نعشقها أحيانا في الظلمة، من خلال أشياء وثنيّة من كلّ نوع شبّهها المبشّرون بالأصنام[17]. ومثلت هذه الأصنام، في فظاظتها وميزاتها المفرطة، تظاهرة موضوعيّة لحالة الفساد الذي انغمس فيها العرق الزّنجي[18]. ومن خلال مثل هذه الأشياء، ألم يبحث البدائيون على إكراه ومراقبة القوى؟ أو لم يظهروا أبدا، في نفس الوقت، الخوف والتّبعيّة التي يكنّونها إليها؟ غير أنّه لم يكن لمثل هذه التّبعيّة أيّ هدف إلهي. فهي لا تتضمّن شيئا على الأقلّ سوى العدم، لا شيء لإنسان أمام الهيمنة المطلقة، وهو حضور ما هو مخيف[19].

هكذا، وقع تحطيم العديد من الأشياء بمناسبة الاحتفالات الدينيّة الكبرى، بينما وجدت أخرى نفسها، نتيجة لعمليات الجمع، والسرقات، والنّهب، والمصادرة، والتّبرّعات، في متاحف الغرب[20]. فقد سارع الأب

---

(17) Paule Brasseur, «Les missionnaires catholiques à la côte d'Afrique pendant la deuxième moitié du XIXe siècle face aux religions traditionnelles», *Mélanges de l'ècole française de Rome,* vol. 109, nº 2, 1997, p. 723-747.

(18) Laurick Zerbini, «La construction du discours patrimonial: les musées missionnaires à Lyon (1860-1960)», *Outre-Mers*, t. 95, nº 356-357, 2007, p. 125-138.

(19) Pedro Descoqs, «Métaphysique et raison primitive», *Archives de philosophie,* vol. 5, nº 3, 1928, p. 127-165.

(20) انظر إلى أعمال:

Laurick Zerbini, «Les collections africaines des Œuvres pontifi-

أوغسطين بلاك سنة 1861 بمراسلة المبشّرين المرسلين إلى إفريقيا قائلا: "لا تنسوا بأن ترسلوا لنا، عند أوّل مناسبة، مجموعة من المواد من موطنكم الجديد". وأضاف: "نريد أن يكون في متاحفنا جميع آلهتكم أوّلا، وأسلحة، وأدوات، وأواني منزليّة، وفي كلمة، يجب أن لا يكون شيئا منها ناقصا"[21]. فوقع نهب المعابد أو تدنيسها كليّا.

تقدّم، في الواقع، المسيحيّة نفسها كديانة الحقيقة والخلاص. فهي تبحث كديانة القطيعة الجذريّة، عن إلغاء العبادات القديمة. ومن هنا، تنظيم حملات شاسعة لاجتثاث الوثنيّة[22]. فتمّ إذن إغلاق المعابد، وتهشيم العديد من الأصنام - تماثيل مصنوعة من مواد مختلفة (أجزاء من الشّعر، وأظافر، ومسامير)، وأصداف من أشكال وألوان مختلفة، ودواب صغيرة وحشرات مجفّفة، ومجموعات من

---

cales. L'objet africain sous le prisme du missionnaire catholique», in Yannick Essertel (dir.), *Objets des terres lointaines. Les collections du musée des Confluences*, Silvana Editoriale Spa, Milan, 2011, p. 31-51, ou encore «L'Exposition vaticane de 1925. Affirmation de la politique missionnaire de Pie XI», in Laura Pettinaroli (dir.), *Le Gouvernement pontifical sous Pie XI. Pratiques romaines et gestion de l'universel (1922-1939)*, ècole française de Rome, Rome, 2013, p. 649-673.

(21) ذكره Michel Bonemaison, «Le Musée africain de Lyon d'hier à aujourd'hui», *Histoire et missions chrétiennes*, vol. 2, nº 2, 2007, p. 2.

(22) حول هذا الموضوع انظر:

Pierre Duviols, *La Lutte contre les religions autochtones dans le Pérou colonial. L'extirpation de l'idolâtrie entre 1532 et 1660*, Presses universitaires du Mirail, Toulouse, 2008, et Fabien Eboussi Boulaga, *Christianisme sans fétiches. Révélation et domination*, Présence africaine, Paris, 1981.

الجذور، وأوان وأباريق مُلئت بمستحضرات نباتيّة ومراهم، وغُرست مكانها صلبان. وتمّت مصادرة التمائم، وتوزيع المسابح وتماثيل أخرى للقدّيسين. ووقع ملاحقة الشياطين والسّحرة بعقوبات عموميّة وعروض تأديبيّة[23]. وتمّت محاولة وضع حدّ للأعياد والطقوس، والتخلّص من آلات موسيقيّة وتحجير البعض من الرّقص، وكذلك العبادة المفترضة للأموات وممارسات التواصل مع الخفيّ.

اختلاف ونهاية العالم

ظهر النّوع الثّاني من الرّؤية خلال فترة الانتقال من عصر "الأنوار" إلى القرن التّاسع عشر، في إطار النّظريّات، المنتشرة عندئذ، "للتاريخ العالمي" والاختلاف بين الأجناس البشريّة. فازدهرت لغة العرق والدّم. فمن ناحية، ظلّت الفكرة القائلة بأنّ الإله ظهر في الدّيانة المسيحيّة، الدّيانة الوحيدة الحقيقيّة، حيّة. ومن ناحية أخرى، توطّدت الأطروحة القائلة بأنّ تاريخ العالم كان أساسا تاريخ "التّطوّر نحو الوعي بالحريّة"[24]. واقترحوا، بأن يُقدّم لنا هذا التّاريخ العالمي

---

(23) انظر على سبيل المثال:
José Sarzi Amade, «Trois missionnaires capucins dans le royaume de Congo de la fin du XVIIe siècle: Cavazzi, Merolla et Zucchelli. Force et prose dans les récits de spectacles punitifs et de châtiments exemplaires», *Veritas*, nº 139, 2018, p. 137-160.

(24) Emmanuel Kant, *Idée d'une histoire universelle du point de vue cosmopolitique*, Gallimard, Paris, 1985.

في شكل عمليّة منطقيّة من الواجب أن تقودنا إلى انتصار العقل أو، على أيّ حال، إلى مصلحة بين ما هو عقلي والواقع[25]. ولكن لم يكن من المفترض أن تتحيّن إلّا عندما يكون العقل قادرا على الالتزام بالاهتمامات البشريّة الكبرى (الحاجة، والقوّة، بما فيها الغرائز)، بل وحتى أين تترك العاطفة تعمل عوضا عنها. وبعبارات أخرى، لم يقع تصوّر التّاريخ العالمي إلا بشرط أن يكتسي العقل والحقيقة بوعي شكل وهيكل الأسطورة[26].

وكما حدث، كانت أكبر أسطورة للقرن التّاسع عشر هي أسطورة العرق[27]. كانوا يرون أنّه بالعرق تتحقّق "الفكرة المطلقة". وكان هيغل، على سبيل المثال، يعتبر بأنّه لا توجد في الواقع لكلّ مرحلة تاريخيّة سوى أمّة ولوحدها وشعبا ولوحده ممثلان حقيقة لروح العالم ولهما "الحقّ بهذا العنوان في إدارة كلّ البقيّة". وأمام هذه الأمّة، وهذا الشّعب أو هذا الجنس، "تكون بقيّة الشّعوب دون حقوق". و"لا يُحتسبون إطلاقا من التّاريخ العالمي"[28]. ففي هذا النّظام الذي يمنح فيه عرق معيّن لنفسه عنوان "الوكيل الأوحد لروح

---

(25) G. W. F. Hegel, *Leçons sur la philosophie de l'histoire*, Gallimard, «Folio Essais», Paris, 1990, et *Principes de la philosophie* du *droit*, Gallimard, «Tel», Paris, 1989.

(26) Ernst Cassirer, *Le Mythe de l'ètat*, Gallimard, Paris, 1993.

(27) A. Mbembe, *Critique de la raison nègre, op. cit.*

(28) G. W. F. Hegel, *Principes de la philosophie du droit, op. cit.*, p. 368.

العالم"، وأين تحوّل العقل إلى أسطورة، لم يكن العرق اسْما لمادّة طائفيّة مزعومة فقط، بل كان قوّة مهيكلة، وتصوّرا خياليّا يمتلك حقيقته وقادر على إنتاج الواقع[29]. فقد كان العنصري تصميما بيولوجيّا (ما هو ترتيب الدّم، والتواصل الوراثي)، وكذلك ما هو ترتيب الجسم، جسم الشّعب الموهوب بإرادة القوّة. ولكنه كان أيضا جهازا عاطفيّا، جاهزا ومُجنّدًا، إن لزم الأمر، وهو صورة خياليّة لاختلاف من طبيعة أنطولوجيّة.

لم تستطع الآثار الإفريقيّة تجنّب هذا المنفذ. وكان العرق الأسود بالخصوص صنفا متدنّيا من الجنس البشري، حسب ما يعتقدون. فمن كان صانعه، كان مبدئيّا مجرّدا من الحياة. ولم تكن مواده تظاهرة لأيّ إرادة سياديّة كانت، ولا طاقة خاصة قد يكون هدفها الأسمى الحريّة. وكانت حتى فكرة الرّمز تجد لديهم، غير تاركة من مكان سوى القبح المقرف، مجال لتنقّل قوّة اعتباطيّة جوهريّا. وبما أنّها لم تصنعها شخصيّات معنويّة، فإنّ هذه المواد الزنجيّة لا تستطيع إلّا أن تثير الازدراء، والرهبة والاشمئزاز. إنّهم يشعرون، أمامها، تارة بنوع من العجز المرعب، وأخرى بشعور الخطر المخيف. ذلك لأنّه، في هذا العالم الدّنس للأشياء والأجسام، لم يكن أبدا الإنسان، الحيوان الحيّ، من الآن

---

(29) Eric Voegelin, *Race et ètat*, Vrin, Paris, 2007.

فلاحقا، سوى شيئا منبوذا، على استعداد أن يتقطّع، ويُطبخ ويُستهلك أثناء القرابين الدّمويّة.

لم يعد الجسم ذاته، خلال هذه الاحتفالات للمادّة أين يُمارس العنف وسط دمارها، مثل أيّ مادّة من المفترض أن تمثّله، مادّة متفاعلة مع أيّ فكر[30] فقد كانت المادّة منصاعة لمن من الرّجال والنساء يصنعها ويستعملها بنفس المستوى الذي يذعن فيه صانع المادّة لهذه الأخيرة. فلا هذا ولا ذاك وُجد لغايته الخاصّة، ولكن لغاية كانت غريبة عنها. وكان هنالك انبهار، ولكن لا يمكن لهذا الأخير أن يكون إلّا ضريرا. ولم تكن عمليّة الخلق في خدمة أي ترتيب مستدام. فنخلق تحديدا بغاية أن تكون عمليّة التضحيّة والتّدمير ممكنة. وهذا ما كانت تعنيه هذه المواد - استحالة الفرار من حدود الشيء، والعودة إلى الهجوع الحيواني، والسّموّ في الإنسانيّة[31].

يلتقي، في هذه الأعمال، النفيس بالتّافه. وتشهد على أيّ حال على الطابع الدّرامي لوجود عشوائي، محكوم عليه بالفشل. وإن أدّت، في الواقع، مهاما، لم تكن لها مع ذلك مادّة. فهي، كوعاء لمشاعر مظلمة عن الوجود البشري، تلبّي

---

(30) Catherine Coquery-Vidrovitch, «La fête des coutumes au Dahomey: historique et essai d'interprétation», *Annales*, vol. 19, nº 4, 1964, p. 696-716.

(31) Georges Bataille, *Théorie de la religion*, Gallimard, Paris, 1973, p. 71-73.

قبل كلّ شيء رغبات، سواء منصرفة عن الواقع، أو غير متسامية عنه. ومن ناحية أخرى، كانت مرتبطة بأجسام مقرفة. فقد انطلق شعور العار والغرابة من الازدراء الذي شمل هذه الأجسام، إلى هذه الآثار، الاستعارات الموضوعيّة لمهمّة دون مادّة.

وأخيرا، كانت الأشياء الزنجيّة، قبل كلّ شيء، في قسوتها المفرطة، وفظاظتها الحسيّة، وطلائها الشهوانيّ، مادّة جنسيّة. فهي تشهد عن قوّة دافعة نحو الخارج غير مكبوتة، وحياة عضو غير رفيع، خاص بالحياة الجنسيّة البدائيّة. وفي سياق النّظرة التّبشيريّة، اعتبروا بأنّ فنّ الوثنيين، كان مدفوعا بعنف متكامل. ولذلك كان، منذ أصوله، تحت سيطرة العذاب الجنسي. وهنا، كانت المهام الجسديّة والمهام التّناسليّة غير مجازة. وإن كان الفنّ، في أيّ مكان كان، هو تنفيذ عمل لفاقد الوعي، فقد كان هذا الأخير، لدى البدائيين، مهيمنا عليه بصور الولوج القديم، والجماع الوحشي والصّرعي، وازدواجيّة جنسيّة بدائيّة. وقد قال فرويد، بأنّ الفرد لم يكن في الحقيقة رجلا ولا امرأة، ولكنه في كلّ مرّة حيوان ومادّة، والثلاثة، وفقط الواحد أكثر من الآخر[32].

وفجأة، تتحدّث هذه المواد قبل كلّ شيء عن

---

(32) Sigmund Freud, *Trois Essais sur la théorie de la sexualité*, Gallimard, Paris, 1923.

استعداداتها الغريزيّة. فعندما تلمس جسما أو عضوا جنسيّا أو عندما تقدّمها للمشاهدة، لم يكن أبدا لفتح الطريق للتّمثيل، وأقلّ من ذلك للتّسامي، بل للإحساس والإثارة. ولم تكن إذن في المشهد، فكانت في الإثارة. فالغرائز التي تثيرها لدى من يشاهدها لا ترمي إلى إلقاء أيّ شعاع من الضوء في العتمة. فهي تهدف إلى إيقاظ وإثارة نوع من العلاقة الهدّامة في الأصل التي تصدم أكثر ممّا تجذب، وتبهر، ولكنها تزعج أيضا، خالقة في النهاية جزعا عميقا بسبب الإخصاء. ولم تكن الكثافة العاطفيّة التي تحرّرها من نوع من الافتتان. فكانت قادرة على إثارة صدمة للرّجل أو المرأة الذي يعترضها، والتزوّج بمظاهر الواقع مع التّحرّر منها. ولكن يترك أيضا المجال حرّا لعواطف الوجود الأساسيّة التي أراد الغرب وصفها تحت العبوديّة مثل شرط المرور من عالم الغرائز إلى عالم الثقافة.

برز في بداية القرن العشرين نوع ثالث من المقاربة - تارة أنثروبولوجيّة، وأخرى مفاهيميّة[33]. فالنّظرة المفاهيميّة تثمّن الصّفات التّشكيليّة والشّكليّة البحتة "للأشياء الزنجيّة"، والشعور العميق الذي يثيره النّحت الإفريقي أو أيضا طريقته في توليد الفضاء، وقدرته على التكثيف الحسّي للصّورة.

---

(33) في *Negerplastik* (Verlag der Weissen Bucher, Leipzig, 1915) تمسك كارل بدراسة الخصائص الشكليّة "للمواد الزنجيّة"، بينما في *Afrikanische Plastik* (E. Wasmuth, Berlin, 1921) اهتمّ كثيرا بوظائفها ودلالاتها في مجتمعاتها الأصليّة.

واعتبروا أنّ هذه الأشياء لا تحرّر النّحت من كلّ أفق فحسب، بل وأيضا من كلّ مظهر تصويري. ومن ناحيتها، تبحث النظرة الإثنوغرافيّة على إرسائها في سياق ولادتها بغاية الكشف منها على دلالاتها الاجتماعيّة. وفي الأثناء، يمنحها تمثال العمل الفنّي دلالات، حتى وإن، مرّة أخرى، لم يقع حقيقة فكّها في معانيها الخاصّة[34].

أمّا بالنّسبة إلى كارل أينشتاين، مثلا، فإنّ الفنّ الزنجي محدّد قبل كلّ شيء بالدّيانة. فالأعمال المنحوتة معبودة كما هي من كلّ شعب من العصور القديمة. ويصمّم منفّذ العمل وكأنّه إله. وأكثر من ذلك، يخلق الفنّان إلها ويكون عمله "مستقلّا، ومتعاليا ومتحرّرا من كلّ رابط". فهو ليس مفوّضا بتقليد الطبيعة كما هي في التّقاليد الأوروبيّة. "أمّا العمل الفنّي الإفريقي، فهو لا يعني شيئا. فهو ليس رمزا، إنّه إله". وهو يقوم بهدم كلّ تمييز بين الدّال والمدلول. وبالنّسبة إلى الآخرين تُفسّر قوّة الأعمال الفنيّة الإفريقيّة بشحنتها السّحريّة، وبقدرتها على التّلاعب بالعالم عن طريق السّحر[35]. فنهتمّ بها لأنّه من الممكن الاعتماد عليها، على أمل تجاوز الحضارة الغربيّة.

---

(34) انظر:

Coline Bidault, «La présentation des objets africains dans Documents (1929/1930), magazine illustré», *Les Cahiers de l'école du Louvre*, vol. 3, nº 3, 2013, p. 5-13.

(35) André Breton, *L'Art magique*, Club français du livre, Paris, 1957.

إنّ الفكرة بأنّ أوروبا نسيت شيئا أساسيّا، وهو أنّ العودة إلى الرّمز الإفريقي تسمح لها بالعثور عليه؛ وهو أمر يعود إلى ذاكرة الأشكال الخاصة، المحرّرة من كلّ أصل، وبهذا العنوان قابلة لفتح طريق لوضعيّة انتشائيّة، وهي آخر درجة لشدّة التعبير وذروة المشاعر[36]. وهذا التخلّص من كلّ أصل هو في نفس الوقت تحرّر من كلّ مستقبل. ويتمّ التأكيد، في الفنّ الزنجي، على المسافة النّفسيّة التي تتقلص بين المتفرّج والصّورة. وتبرز المظاهر الخفيّة المتأصّلة في الصّورة، وتُرسم عندئذ إمكانيّة الإدراك المطلق. فلم تعد المادّة محلّ تأمّل بالوعي فحسب، بل وأيضا **بالرّوح**.

إن كان الأمر كذلك، فلأنّ الفنّ الزّنجي يقترح طرقا أخرى لرسم المجال، وهي في نفس الوقت ميزة رمزيّة وبصريّة. وما يوفّره هذا الفنّ للمشهد هو المعادلة الذّهنيّة للصّورة أكثر منها الصّورة ذاتها. فيثير إذن شكلا آخر للرؤية وللمشاهدة، ما من شيء في حاجة لتجميد العين. وعلى العكس، يقتضي الأمر تحريره، وجعله نشطا ومتحرّكا، ووضعه في علاقة مع عدّة سياقات نفسيّة ووظائفيّة أخرى. وبهذا الشرط فقط يمكن له إعادة بناء الواقع بهمّة. فلم تعد العين، في هذه الظروف، عضوا ميّتا. وانطلاقا ممّا يشاهده ويقرّ به، يكون عمله في الكشف عمّا ينقص، على أن تتمّ

---

(36) نستعمل هنا عناصر للمقال التالي:
«propos de la restitution des artefacts africains conservés dans les musées d'Occident», *AOC*, 5 octobre 2018.

إعادة بناء الموضوع الموجود في الصّورة، على أسس العديد من الآثار وعديد المؤشرات، وبإيجاز إثارة ظهوره، وجعله يكتسب حياة[37].

إنّ أوروبا التي اكتشفت ثانية المواد الإفريقيّة في بداية القرن العشرين مهووسة بروايتين عن (إعادة) البداية والنّهاية. وبما أنّ البداية هي نقطة انطلاق للتحوّل نحو شيء آخر، فالسّؤال المطروح هو معرفة إن استطاع الفنّ فعلا أن يكون نقطة انطلاق نحو مستقبل قد لا يكون مجرّد تكرار للماضي. أمّا بالنّسبة إلى النّهاية، فيمكن أن تنصرف سواء نحو نمط الإنجاز (التجربة الحيّة للدّلالات التي قد تكون صالحة بطريقة غير مشروطة) أو نحو إنجاز الكارثة. فهنالك نهايات تجعل إعادة كلّ بداية مستحيلة. وهنالك حرائق هائلة تمنع من بروز النّهاية ولا تتصوّر هذه الأخيرة إلّا على نمط الكارثة.

ساهمت المواد الإفريقيّة، في بداية القرن العشرين، في إعادة إحياء هذا الجدل في ثلب أوروبا الباحثة عن فكرة أخرى للزّمن، والصّورة والحقيقة. إنّها أوروبا المتوسّعة، والتي كانت هيمنتها العالميّة متماسكة نسبيّا، ولكنّها في الوقت ذاته محلّ شكّ، إذ، في نهاية المطاف، ارتكزت هذه السّلطة التّعليميّة على بقيّة العالم - الاستعمار بالخصوص -

---

(37) نعتمد هنا جزئيا على تحليل Carlo Severi, *L'Objet-personne. Une anthropologie de la croyance visuelle*, Rue d'Ulm, Paris, 2017, p.49-53.

على بنية الرعب، مثلما أشار إليه إيمي سيزير[38]. فقد تساءلت [أوروبا] عن معرفة، إن لم تكن سيادتها، في نهاية الأمر، شبحيّة بحتة؛ وإن أمكن صياغة فكرة عن الزّمن، والصّورة والحقيقة لا تكون سوى مجرّد فكرة للعدم، وإنّما **فكرة الكائن والعلاقة** حقيقة.

حقّقت إذن المواد الإفريقيّة مهاما لا يمكن الاستغناء عنها في المسار التّاريخي الأوروبي. فلم تعمل فقط رهانات بحثها الوهمي (وأحيانا الكارثيّة) لإزاحة السّتار وإظهار الحقيقة في العالم، أو في بحثها اليائس عن تسويّة بين الرّوح والحسي، والمادّة. وبطريقة شبحيّة، ستذكر إلى أيّ مدى يتطلب دوما ظهور الفكر في المادّة (وهي المسألة الخاصّة بالفنّ) لغة، ولغة أخرى، ولغة الآخر، ووصول الآخر في اللغة.

واليوم، وفي كلّ مكان من الغرب تقريبا، نطرح على أنفسنا سؤالا حول معرفة إن كان من الواجب إعادة هذه المواد إلى مستحقيها أم لا. ولكن قليل جدّا من يريدون فهم ما يبرّر، في الأصل، وجودها في أوروبا وهل أنّها ذات معنى في الوعي الأوروبي. ففي هذه الظروف، لا يهمّ الرّجوع إلى الأساسي. فممّن يريدون تحديدا التّخلص؟ وعمّاذا نبحث لاسترجاعه للوطن ولماذا؟ وهل انتهت المهمّة الموكول إنجازها من قبل هذه المواد في تاريخ الوعي

(38) A. Césaire, *Discours sur le colonialisme, op. cit.* .

الأوروبي؟ وفي النّهاية ماذا أنتجت ومن يتحمّل نتائج ذلك؟ وفي الآخر، هل عرفت أوروبا، بعد عدّة سنوات من حضور هذه المواد في مؤسّساتها، التّعامل مع القادمين من الخارج، وحتى من الأقاصي البعيدة؟ وهل في الآخر هي على استعداد لسلوك الطريق نحو هذه الوجهات المترقّب قدومها، أم أنّها مجرّد حدث بحت لصدع، هذا الشيء الذي يذوب في خسارة خالصة، دون عمق ولا آفاق؟

قنبلة الدّيون

حرفيّة قانونيّة وأبويّة - هما النّوعان من الإجابات المجنّدة عموما من أولئك الرّجال والنّساء الذين يعارضون مشروع الاسترجاع هذا. فمن ناحية يدّعون بأنّ القانون (كما يحدث لمختلف التغييرات القانونيّة الأوروبيّة للملكيّة) في نهاية المطاف لا يسمح بإعادة أو تحويل هذه الآثار إلى مستحقّيها. فنحترس فعلا من المساءلة عن أصولها وعن أصل خالقيها. غير أنّنا نتظاهر بأن تكون الإجابة عن سؤال لمعرفة لمن تنتمي وأن لا ترتبط إطلاقا بالإجابة - الضارّة - عن معرفة من أين أتت ومن هم صانعوها.

وبعبارات أخرى، نقحم وصلة بين حقّ الملكيّة وحقّ التّمتّع، من ناحية، وعمليّة الصنع والقائم بالصّناعة من ناحية أخرى. ونثمّن على وجه الخصوص عدم كفاية القيام بصناعة شيء ما حتى نكون آليّا من أصحابه. فصناعة مادّة شيء. وحقّ

استعمالها، والتّمتّع بها، وحيازة هذه المادّة، بصفة حصريّة ومطلقة، وتحت قيود القانون، شيء آخر. وعلى كلّ، بما أنّ عمليّة الصّناعة لا تعادل عمليّة التّملّك، فإنّ أصل العمل [الفنّي] ليس بالشرط الضروري للمطالبة بالتّملك أو بحقّ التّملّك.

ونتظاهر أيضا وكأنّما، في الحقيقة، الظروف التي تمّ فيها الحصول على هذه المواد لم تخلق أبدا إشكالا ؛ فكأنّما الأمر، منذ البداية إلى النّهاية، تعلّق بمبادلات الندّ للندّ، في سوق حرّة، أين يتمّ تحديد قيمة المواد بآليّة موضوعيّة للسعر. ونستنتج من ذلك بأنّ هذه المواد، وقد تعرّضت لاختبار السّوق، قد لا تكون أبدا "شاغرة ودون مالك". فقد تكون من الآن فصاعدا "غير قابلة للتّصرّف"، وتكون ملكيّة حصريّة سواء للسلطة العموميّة كما هي (التي تتصرّف فيها عن طريق المؤسسات المتحفيّة) أو لخواص قد يكونون، بعد اقتنائها، مؤهلين، في نظر القانون، بالتّمتّع بها كليّا، دون قيد. ومن وجهة نظر قانونيّة، ربّما يكون الجدل حول استعادة المواد الإفريقيّة دون جدوى، ولا يكتسي حضورها في متاحف الغرب ومؤسسات خاصّة أخرى مصادرة، ولا يتطلّب، بهذا العنوان، أيّ حكم أخلاقي أو سياسي.

ويدّعي آخرون - وهم أحيانا نفس الأشخاص - بأنّ إفريقيا قد لا تضمّ أبدا مؤسّسات، وبنى تحتيّة، وموارد تقنيّة أو ماديّة، وموظفين مؤهلين أو حسن تصرّف ضروريين لضمان الحفاظ والصّيانة للمواد المعنيّة. وربّما تكون عودة

هذه المجموعات في مثل هذه المجالات عرضة لمخاطر متزايدة من التّدمير أو التّدهور، ومن التخريب أو النّهب. وقد يكون إبقاؤها في متاحف الغرب أحسن وسيلة لصيانتها، على أن يتمّ إعارتها، من حين إلى آخر، للأفارقة لتظاهرات منتظمة. وأخيرا، هنالك من يريد فعلا إعادة هذه المواد، حتى في غياب أيّ مطالبة من قبل المجموعات الإفريقيّة التي زعمت نهبها. ولكن قد لا يتعلّق الأمر بالاعتراف بأيّ ديْن كان لأيّ كان.

لم تكن هذه طريقة طرح مسألة الاسترجاع - باعتبار أنّها لا تؤدّي إلى الاعتراف بديْن ولا أيّ التزام مترتّب عنه - محايدة ولا بريئة. فهي جزء من استراتيجيات التّعتيم المستعملة من طرف المقتنعين بأنّ المنتصر، في حرب معلنة أم لا، دوما على حقّ والنّهب جزاءه. ويكون المنهزم دوما على خطأ، وليس له أيّ اختيار إلّا الثناء على جلّاده بأن ينقذ حياته، وليس هنالك أيّ حقّ عادل آلي لمن انهزم. وبعبارات أخرى، فإنّ القوّة هي التي تخلق القانون ولا قوّة للقانون لا تتأتى من قوّة المنتصرين. فكيف يمنع بأن تكون الطبيعة الحقيقيّة للاختلاف بذلك مستترا، وبأن تقتصر القضيّة سياسيّا وأخلاقيّا بشكل بارز على مجرّد معركة عدول إشهاد ومحاسبين وإلا بإدارة الظهر لتصوّر ساخر جدّا للقانون؟

وبتعلّة أنّ القانون والحقوق قد يكونان مستقلين وليس أبدا في حاجة إلى تكملة إضافيّة، تصل في الحقيقة إلى

فصل القانون عن كلّ التزام بالعدالة. ولم تعد مهمّته أبدا خدمة العدالة، بل تقديس علاقات القوّة الموجودة. فيجب منذ ذلك الحين الخروج فقط من المقاربة الحسابيّة للاسترجاع، التي لا يمكن تصوّرها إلا من وجهة النظر الوحيدة لمؤسّسة الملكيّة والقانون الذي صادق عليها. وحتى لا يكون استرجاع المواد الإفريقيّة مناسبة لأوروبا للحصول على راحة الضمير بأبخس الأثمان، يجب إذن تركيز الجدل على الرّهانات التّاريخيّة والفلسفيّة، والأنثربولوجيّة والسّياسيّة لعمليّة الاسترجاع. فنلاحظ عندئذ بأنّ كلّ سياسة أصيلة للاسترجاع غير منفصلة عن **القدرة عن الحقيقة**، على أن يصبح تكريم الحقيقة وإصلاح العالم. وحتى بهذا العمل، هو الأساس الذي لا مناص منه لارتباط جديد وعلاقة جديدة.

ليس هذا فعلا الكلّ من تاريخه، ولكن لكلّ مناطق الأرض، يتميّز تاريخنا بالتأكيد عن البقيّة بالطبيعة، والحجم والكثافة بما سُحب منها، وما انتزع وسُلب منها. فهل لأنّ القارة لا تُمارس أبدا، على البحار، إمبراطوريّة لا جدال فيها؟ أو مثلما ذكّر به في ظروف أخرى إيمي سيزير، لأنّها لم تخترع البارود ولا البوصلة[39]؟ أو أيضا لأنّ اسمها لم يكن أبدا معروفا ومُهابا حتى في المناطق البعيدة، إلّا ربّما

(39) Aimé Césaire, «Cahier d'un retour au pays natal», publié dans le nº 20 de la revue *Volontés*, 1939.

بالنّسبة إلى صعوبة مناخها - وحسب هيغل لشراسة حكامها وأعيادها لأكل اللحوم البشريّة، وهي أبجديّات جميع الأوهام العنصريّة.

ودوما أيضا، إن وُجدت اليوم العديد من كنوزها في الخارج، فذلك لأنّ هنالك جزء من التاريخ العنيف لإفريقيا صنيع السّلب، والنهب، والتّمزّقات وعمليّات الاقتطاع المتواصل والغنائم المتتالية - والصّعوبة الكبرى للمحافظة على أناسها والحفاظ لديها على أحسن ما عندها من جهد. وفي الواقع، منذ القرن السادس عشر، ظهر فجأة الأوروبيون على السّواحل الإفريقيّة. وخلال أربعة قرون تقريبا، وبتواطؤ نشط من رؤساء [القبائل]، والمحاربين والتجّار المحلّيين، أقاموا تجارة مسلّحة ومربحة للّحوم البشريّة، مستحوذين، في الطريق، على الملايين من أجسام النّساء والرّجال الأحياء وفي سنّ العمل. ثمّ قدم القرن التّاسع عشر. وفي ثنايا العديد من الحملات والغارات الأخرى، صادروا قطعة تلو القطعة، وبالرّغم من المقاومات العديدة، كلّ ما أمكن أن يضعوا عليه أياديهم، بما في ذلك الأقاليم.

وما لم يستطيعوا حمله على الإطلاق، دمّروه وأحيانا أخرى حرقوه. ولم يكف قنص الأجسام. بل ابتزّوا، خلال الاحتلال الاستعماري الفعلي، العديد من السكّان، وصادروا أو دمّروا ما اعتبره هؤلاء ثمينا. فقد تمّ اخلاء العديد من المناطق، بعد تفريغ مخازن الحبوب، والقضاء على الماشية وحرق المحاصيل، وإخضاعها كما كانت للمرض وسوء

التغذيّة، والأعمال الشّاقة، واستخراج المطاط وأعمال سخرة أخرى، وتعريضها إلى اضطرابات بيئيّة، مترتّبة عن الاستعمار[40].

لم يتمّ استثناء أيّ ميدان - حتى الأسلاف والآلهة، وحتى القبور تمّ تدنيسها. وفي دوّامة الصّخب، أخذوا تقريبا كلّ شيء - مواد زينة، وأخرى أيضا مرتبطة بحاجيات الحياة اليوميّة، وأقمشة ثمينة، وقلادات فاخرة، وخواتم، ومجوهرات مرصّعة فنيّا ومطعّمة بالذّهب، والنّحاس أو البرنز، وأحزمة، ومختلف مواد مدبّجة بالذّهب، بما فيها سيوف، ودروع للمحاربين، وأبواب، ومقاعد وعروش مصنوعة بوضوح من صور رجال، ونساء، وحيوانات، وعناصر من النّباتات والحيوانات، ومن شظايا رائعة، وأسورة وأنواع أخرى من قصب الزّينة، والآلاف والآلاف من "الأدوية" التي اعتبروها "مقدّسة". وكيف يكون القول عن الخشب المنحوت، والمنقوش بخطوط منحنيّة ومتشابكة؟ أو ضفائر وأنسجة من كلّ نوع، والعديد من النّقوش والنّقوش البارزة، ووجوه بشريّة من خشب او برنز، مشتركة مع رؤوس لرباعيات الأرجل، وصور طيور، وثعابين، ونباتات شبيهة بالمشاهد الطبيعيّة الرّائعة للحكايات الشّعبيّة، وأصوات وأقمشة متعدّدة الألوان؟ وكيف يمكن أن ننسى، من جهة

---

(40) انظر على سبيل المثال

Le Rapport Brazza. Mission d'enquête du Congo: rapport et documents (1905-1907), Le Passager clandestin, Neuvy-enChampagne, 2014.

أخرى، آلاف الجماجم وسبحات من العظام البشريّة التي وقع تكديس معظمها في أقبيّة الجامعات، ومخابر المستشفيات، ودهاليز متاحف الغرب؟ وعلى أيّ حال، هل توجد مؤسّسة لمتاحف غربيّة وحيدة، لم تعتمد في تصوّرها أبدا على العظام الإفريقيّة[41]؟

ومثلما أبرزه العديد من الملاحظين، اكتست الكثير من المهمّات الأنثروبولوجيّة سمة أنشطة القنص الشبيهة بعمليّات الخطف والنّهب، والمطاردة والغارات[42]. وعلاوة على ذلك، يشهد تواصل المواد الطبيعيّة والآثار المتعدّدة، والحيوانات الوحشيّة المحشوّة في الكثير من المتاحف الغربيّة (الأثنوغرافيّة والعسكريّة) للقرن التّاسع عشر، على هذا الخليط. ويسير حصاد الأشياء الماديّة الرّاجعة إلى هذه "الشعوب الطبيعيّة" على قدم المساواة مع غنائم الصّيد، وإذن سفك وتقطيع الحيوانات[43]. وكان المجموع يوضع

(41) Lotte Arndt, «Vestiges of oblivion: Sammy Baloji's works on skulls in European museum collections», *Darkmatter*, 18 novembre 2013, http://www.darkmatter101.org/site/2013/11/18/vestiges-of-oblivion-sammy-baloji%E2%89%99-works-on-skulls-ln-european-museum-collections/.

(42) Julien Bondaz, «L'ethnographie comme chasse. Michel Leiris et les animaux de la mission Dakar-Djibouti», *Gradhiva*, n.s., nº 13, 2011, p. 162-181, et «L'ethnographie parasitée? Anthropologie et entomologie en Afrique de l'Ouest (1928-1960)», *L'Homme*, nº 206, 2013, p. 121-150. Voir également Nancy J. Jacobs, «The intimate politics of ornithology in colonial Africa», *Comparative Studies in Society and History*, vol. 48, nº 3, 2006, p. 564-603.

(43) John M. MacKenzie, *The Empire of Nature: Hunting, Conserva-*

فيما بعد في ترتيب معالجة متحفيّة تحوّل كلّ الغنيمة (بما فيها الحيوانات) إلى مواد ثقافيّة[44]. ولم تقتصر إذن مهمّات الجمع على المواد أو على تقطيع الأجسام البشريّة[45]. فالقبض على الحيوانات يمثّل جزءًا منها، "من أصغر الوحوش إلى أكبر الثّدييات"[46]. كان ذلك حال العديد من عيّنات حدائق الحيوانات وعالم الحشرات. وليس من الغريب أبدا أن تكون رؤوس الأقنعة، في حركة دراميّة من الخلع، عند جمعها، منفصلة عن ثيابها. وحسب ما اقترحه جوليان بونداز فإنّ "اللغة المستعملة للإشارة إلى ممارسات الجمع توحي فعلا بمثل هذه التفاعلات". وإن وجب الاعتراف بأنّ ضمّ كلّ المواد في مجموعة لا يتمّ فقط بالعنف، فستظلّ لا محالة طرق الحصول على هذه الأخيرة خاضعة لممارسة القنص.

---

tion and British Imperialism, Manchester University Press, Manchester, 1988.

(44) انظر:

Nelia Dias, «L'Afrique naturalisée», *Cahiers d'études africaines*, vol. 39, nº 155-156, 1999, p. 590.

(45) Allen F. Roberts, *A Dance of Assassins: Performing Early Colonial Hegemony in the Congo*, Indiana University Press, Bloomington, 1998; Ricardo Roque, *Headhunting and Colonialism: Anthropology and the Circulation of Human Skulls in the Portuguese Empire, 1870-1930*, Cambridge University Press, Cambridge, 2011; Andrew Zimmerman, *Anthropology and Antihumanism in Imperial Germany*, University of Chicago Press, Chicago, 2001.

(46) انظر:

Julien Bondaz, «Entrer en collection. Pour une ethnographie des gestes et des techniques de collecte», *Les Cahiers de l'école du Louvre*, vol. 4, nº 4, 2014.

تمثّل جميع هذه المواد جزءا من **اقتصاد توليدي**. فقد كانت، وهي النتاج لنظام منفتح على تبادليّة المعرفة، تعبيرا لزواج العبقريّة الفريدة والشخصيّة مع العبقريّة المشتركة، في صلب نظم بيئيّة تشاركيّة، أين لم يكن العالم مادّة للغزو، ولكن مخزون إمكانيّات، وأين لا توجد سلطة خالصة ومطلقة إلا النفوذ الذي كان مصدرا للحياة وللخصوبة.

وبما أنّ الأمر يتعلّق بالاسترجاع، يجب إذن العودة إلى الأساسي. وإن لم يكن تفسير استمراريّة الابتزازات التي وقع تكبّدها بسبب غياب المآثر العلميّة والتّقنيّة وقوّة النّار سوى الطّلاء الذي يخفي الجوهر. أوّلا، لا زال تاريخ الأنظمة التقنيّة الإفريقيّة ووظائفها العلميّة لم يكتب بعد. ومن ناحية أخرى، تمّ التغافل بالتأكيد عن أنّ العلاقة التي يقيمها النّوع البشري مع العالم، والمادّة والكائن الحيّ لا تُستنفذ في العلم والتكنولوجيا. فالعلم والتكنولوجيا ليسا سوى وسطاء من بين وسطاء آخرين عن الحضور البشري في الطبيعة والوجود. فلا يتعارض العلم والدّين بالضرورة مع السّحر، وليس الدّنس نقيض المقدّس، وليس عالم الوجود قطعا هو ما قبل التّقني. فهو لا يوجد على المستوى التطوّري فقط، على طول مسار مستقيم، قد يكون هيئة قياس وحكم لجميع أنماط الوجود.

إن لم تحصل إفريقيا في الأصل على قنابل الضّغط

الحراري، فهذا لا يعني أنّها لم تخلق مواد تقنيّة ولا أعمالا فنيّة، أو أنّها كانت منغلقة أمام الاستعارة أو الابتكار. فقد ميّزت أنماط وجود أخرى لم تكن تمثّل فيها التكنولوجيا **بالمعنى الدّقيق** قوّة قطيعة وتقسيم، ولا قوّة تعارض وانفصال، ولكن قوّة ازدواجيّة وتخفيفيّة. وكانت دوما كلّ حقيقة، في صلب هذه الديناميكيّة، متماسكة ومتميّزة ومبدئيّا رمزا لشيء آخر ولصورة وبنية أخرى.

وفي هذا النّظام من الإحالات المستمرّة، وعلاقات المراسلات المتبادلة، وخطط الوساطة المتعدّدة، واتلاف كلّ مادّة، باستمرار، وتحجّب، وتكشّف وتعرّض لأخرى وتواصل لعالمها واندماج فيه. فالكائن لا يتعارض مع غير الكائن. وفي توتّر كثيف وسرمدي، يحاول أحدهما، في كلّ مرّة، الاندماج في الآخر. ويقوم المستقبل مقام الهويّة، فإنّ هذه الحقيقة لا تحدث إلّا عقب ذلك مباشرة - فهو ليس ما ينهي ويكرّس، ولكن دوما ما يعلن، يعلن وينذر؛ وهو ما يسمح بالتّحوّل والانتقال (إلى مناطق أخرى، وصور أخرى، ولحظات أخرى). وبالنّسبة إلى هذه الإنسانيّة التشكيليّة، فإنّ ولوج هذا العالم بهدف المساهمة فيه ومواصلته كان أكثر أهميّة من احتسابه، والهيمنة عليه وإخضاعه.

ومثلما هو الشأن لثقافات الهنود الحمر التي وصفها كارلو سيفيري، لم تكن الكائنات البشريّة هي الوحيدة الموهوبة بالكلمة، والحركة والحياة الجنسيّة. فقد وُجدت الكثير من الأدوات أو القادرة على أن تكون عليه أيضا. وكان

الأمر كذلك بالنّسبة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة الأخرى. وإن كان كلّ شيء مولودا، فإنّ كلّ شيء مُستحقّ للموت أيضا[47]. فالكلّ كان له شعاره. وأكثر من ذلك، فإنّهم يرون بأنّ كلّ ما كان موجودا، كان مستعملا في حركة تغيير مستمرّة، تستطيع، في لحظات معيّنة، تحمّل مسؤوليّة شعارات ونفوذ آخر، أو أيضا مسؤوليّة العديد من الكائنات الأخرى في نفس الوقت. ولاحظ سيفري بأنّه يمكن لأنماط وجود مختلفة أن تميّز أيّ فرد، "مهما كانت طبيعته، الحيوانيّة، والنّباتيّة والبشريّة أو طبيعة أداته"[48]. وما من شيء يترجم أحسن ترجمة تلك الفكرة لتغيير المحتمل والمستمرّ لجميع الكائنات سوى ما أسماه كارل أينشتاين "دراما المسخ"، وما يمكن اعتباره التجديد المستمرّ للأشكال "بنقلها وإعادة تركيبها المتعدّد"[49].

إنّ هذا المبدأ في العلاقة التي لا يتمّ التعبير عنها من قبل هويّة ميّتة، وإنّما من قبل "التنقّل المتواصل" لطاقة حيويّة وتحوّلات مستمرّة، من شكل إلى آخر، لا تنطبق إلّا على الكائنات البشريّة. فيمكن للحيوانات، والطّيور والنّباتات أن تأخذ شكلا بشريّا، والعكس بالعكس[50]. ولا يعني هذا

(47) Dominique Zahan, *La Graine et la Viande. Mythologie dogon*, Présence africaine, Paris, 1969.

(48) C. Severi, *L'Objet-personne, op. cit.*, p. 267.

(49) Joyce Cheng, «Georges Braque et l'anthropologie de l'image onirique de Carl Einstein», *Gradhiva*, nº 14, 2011, p. 107.

(50) A. Tutuola, *Ma vie dans la brousse des fantômes, op. cit.*

بالضّرورة بأنّ عدم التمييز، بين الفرد أو الموجود ومرادفه الخارجي، كان كاملا وأنّ تفرّده يؤديّ إلى العدم. وكان الأمر كذلك في حمل القناع. إذ حامل القناع لا يكون إلها. ويحتفل المبتدئ المُقنّع عند عيد الظهور الإلهي بـالكائن المتعدّد والتشكيلي، المتكوّن من عدّة كائنات أخرى من العالم، بخصائصها الذّاتيّة، مجتمعة جميعها في جسم واحد. فالقدرة على إدراك الذّات كمادّة أو كواسطة لا تؤدّي بالضّرورة إلى التحام تامّ بين الموضوع والمادّة.

وبالتّالي، لم يكن أبدا لمفهوم الحدّ الأنطولوجي السّلطة التي حصل عليها في مسارات مناطق أخرى من العالم. وليس الأهمّ أن تكون ذاتك، وإن كنت ذاتك أو أن تكرّر نفسك بإخلاص عند وحدة بدائيّة. فالتّنكّر للذات وتكرار النّفس عندما يستوجب الأمر أن لا يكون أبدا مادّة للرّفض. وأن تصبح آخر، وأن تتخطى الحدود، وأن تتمكّن من أن تولد ثانيّة، مرّة أخرى، في أماكن أخرى، وفي عدّة صور أخرى، وآخرون لا يحصون مدعوون مبدئيّا لخلق موجات أخرى من الحياة - كان ذلك الشّرط الأساسي، صلب بنية لعالم لم يكن، إن صحّ القول، عموديّا، ولا أفقيّا، ولا مائلا، بل متشابكا.

وإن لم تكن جميع الأعمال الفنيّة موادا طقوسيّة. فقد أمست لا محالة حيّة عبر أعمال طقوسيّة. وعلاوة على ذلك، لا توجد مادّة إلّا في علاقة بموضوع، طيلة تعريف متبادل. فعن طريق الطقوس، والاحتفالات، وهذه العلاقات التّبادليّة

يحدث منح الذّاتيّة لكلّ مادّة جامدة. هذا هو العالم الذي خسرناه، والذي كانت تحمله المواد الإفريقيّة، والتي تحتفي، من خلال تعدّد أشكالها، بعيد الظهور الإلهي. فما من أحد يستطيع إعادة إحياء هذا العالم.

أمّا المواد، فقد كانت، بدورها، حاملة للطاقة والحركة. وهي كمواد حيّة تتعاون مع الحياة. وحتى عندما لم تكن في ذاتها سوى أوان وآلات، لها قسم من الحياة، الحياة الماديّة، والحياة النّفسيّة، والحياة النشطة، ونوع من الحياة كانت ميزتها الاولى التنقّل. وربّما هذا هو السّبب الذي من أجله كانت قوى الإنجاب، والتّدمير والسخريّة نوعا من العلامات المميّزة للوثنيّة ومذهب حيويّة المادّة، مادّة لكثير من الشيطنة. فكيف يمكن اليوم ادّعاء استردادها، دون أن يقع، مسبقا، تجريدها من الشيطنة - دون اللجوء شخصيّا إلى "التّخلي عن الشيطان"؟

سنكون إذن، على مدى زمن طويل نسبيّا، مخزن العالم، وفي نفس الوقت مصدره الحيوي للتّزوّد والموضوع الحقير لابتزازه. وتكون إفريقيا قد دفعت جزية ثقيلة للعالم، وهو أمر لم ينته بعد. وفي الأثناء، هناك شيء جبّار، وغير محسوب، ودون ثمن تقريبا، وقع فعلا فقدانه، وهو الذي سيشهد على حياة جميع المواد في الأسر، مثل حياة جميع موادنا في مشهد السجن بالأمس واليوم.

وفي بعض الظروف، لعب البعض من هذه المواد دورا

فلسفيًا فعّالا في صلب الثّقافة. فقد استعملت أيضا كوسطاء بين البشر والقوى الحيّة، واستعملها البشر وسيلة للتفكير في وجودهم المشترك. وخلف الملحمة التّقنيّة المتمثّلة في صناعتها يختفي أفق خاص - وهو تجميع المصادر الخلّاقة بطريقة لا تجعل كلّ النّظام البيئي في خطر؛ والرّفض المشروط بتحويل الكلّ إلى بضائع؛ وواجب فتح الباب وتحرير الكلمة لديناميكيّات النّدّ للندّ والخلق المتواصل للشائع. وإذن فإنّ التفقير الحقيقي للعالم الرّمزي هو الذي يؤدّي إلى خسارته.

وتوجد أيضا وراء كلّ واحد منهم حرفة، وخلف كلّ حرفة رصيد من المعلومات والمعارف تمّ تعلّمها وإحالتها باستمرار؛ وهي فكرة تقنيّة وجماليّة، وأخبار مجازيّة، والبعض من الشّحنة السحريّة، وباختصار هو الجهد الإنساني لترويض حتى مادّة الحياة، وتشكيلتها من المواد. وكانت إحدى مهامه وضع علاقة للأشكال والقوى مع التّعبير عنها برموز، وتنشيط القوى التي تسمح بتحريك العالم[51].

انتهى كلّ هذا، وقد دفعت إفريقيا ضريبة ثقيلة لأوروبا، هذه المنطقة التي ارتبطت بها علاقة حقيقيّة من الابتزاز

---

(51) انظر حول هذا الموضوع أعمال
Pierre Bonnafé, «Une force, un objet, un champ: le buti des Kukuya au Congo», *Systèmes de pensée en Afrique noire*, nº 8, 1987, «Une grande fête de la vie et de la mort: le miyali des Kukuya», *L'Homme*, vol. 13, nº 1-2, 1973, et Nzo Lipfu. *Le Lignage de la mort*, Université de Paris-X, Paris, 1978.

واستخراج [المواد الأوّليّة]. وربّما كانت هذه إحدى الأسباب في ربط العديد من الأفارقة ذكرى أوروبا بالانبهار والعار. انبهار منحرف تسلّطه قوّة ونفوذ غاشم، وهما أكذوبة ونكران شبه دائمين للمسؤوليّة. وخزي لأنّهم مقتنعون بأنّ أوروبا لا تريدهم، وأنّها تريد بالخصوص إفريقيا مطيعة وسهلة الانقياد، إفريقيا شبيهة بجثّة مدبّجة بكفنها، الذي، بالرّغم من أنها أساسا دون حياة، تنتعش باستمرار وتنتصب في تابوتها، وأنّ النوع الإفريقي الذي تسمح به وتقبله، هو الإفريقي الذي لا تتوانى عن التقاط وتحويل طاقاته، هذا الذي يطيع بالوفاء العادي للحيوان يعرف التّعرف نهائيّا على سيّده.

القدرة على الحقيقة

رفض الغرب، لفترة طويلة، الاعتراف بأنّه يدين لنا ببعض الديون مهما كانت، وهي حزمة الدّيون التي راكمها في ثنايا احتلال العالم، والتي يجرّها منذ ذلك الحين. واليوم، يدّعي معظم المدافعين عنه بأنّنا، على العكس، نحن الدّائنون له، وعند سماعهم، نحن المدينون له "بالحضارة"، وأنّ البعض منّا، حسب زعمهم، قد حصلوا على مصلحة من الأضرار المقترفة ضدّنا، وأحيانا بتواطؤنا الخاص. وهو اليوم يريد التّخلّص منّا نحن الغرباء. بل ويريد أيضا أن نسترجع تحفنا. وذلك دون توضيح. وكأنّه في النّهاية يريد أن يقول: "بما أنّي لم أتسبّب لكم في أيّ ضرر، فإنني لا أدين لكم بأيّ شيء مطلقا".

وبدعوتنا إلى استرجاع تحفنا وإخلاء الفضاءات التي تحتلّها هذه الأخيرة في متاحفه، فإنّه يبحث إذن عن ماذا؟ هل لنسج علاقات جديدة؟ أم أن يكرّر، في هذه الفترة من الانغلاق، ما اشتبه به دائما، بمعنى أنّنا كنّا أشخاصًا- بضاعة للاستعمال مبدئيًا؟ فهل نيسّر عليه المهمّة بالتخلّي عن كلّ حقّ للتّذكير؟ وهل نجرؤ على الذّهاب أكثر من هذا ونرفض عرض العودة إلى الأوطان؟ وهكذا بتحويل هذه التحف إلى حجّة سرمديّة للجناية التي اقترفها، ولكنه لا يريد أبدا الاعتراف بمسؤوليّاته، فهل نطلب منه بالعيش إلى الأبد مع ما أخذه وتحمّل حتى النّهاية شخصيّته المتمثّلة في قابيل؟

ولكن، إن افترضنا أنّنا استجبنا للعرض، وعوضا عن استرجاع حقيقي، لاقتصرنا على مجرّد **استعادة لآثار من الآن فصاعدا دون روح**. فكيف التمييز بين الأشياء وقيمة استعمالها، من ناحية، وأعمال فنّيّة فعليًا، من ناحية أخرى؟ أو بين المواد الطّقوسيّة الثّقافيّة والتّحف العاديّة، بينما حتى القلّة متيقنة من أنّ كلّ واحدة من هذه التّحف هي لذاتها، فكيف تمّت صناعتها وكيف "كانت تعمل"، وأيّ طاقة كانت مودوعة فيها، ومن هو القادر حتى على تحريرها سواء في الطريقة ذاتها أو في البشر والكائن الحيّ عموما؟ وعلاوة على ذلك، فإنّ كلّ هذه المعرفة قد اضمحلت.

ومثلما فسّره بول- بيير غوسيو، اكتسى الفنّ الإفريقي الكثير من الجماليّة الممكن نعتها بالتّراكميّة. فقد نتجت التّحف "عن دمج وتراكم لعناصر متباينة"، لا تأخذ "معناها

ومهامها إلّا في العلاقات الشّكليّة والدّلاليّة الناتجة بذلك عن تراكمها". وبذلك لا توصف التحفة المركبة "بالجميلة" إلّا بقدر ما تحتمل كليّا مهامها الطّقوسيّة. وأكّد بأنّ مثل هذه التّراكمات لا تُنتج صدفة. فهي تستوجب تدريبا مهنيّا طويلا وتمرينا طويلا في التّعاطي مع معارف أزليّة ضاعت[52]. وأبعد من التّحف على ما هي عليه، من سيعيد أعمال الفكر المرتبطة بها، وأنواع الإدراك التي تضعها في المحكّ، وأشكال الذّاكرة والخيال التي تجنّدها، والتي كانت، في المقابل، نتاجها؟

ومن ناحية أخرى، فإنّ الهوّة كبيرة بين ما افتُقد وما هو عائد، بما أنّ أغلبيّة هذه التحف تمّ تشويهها، وأمست غير معروفة. فالتّحف الموجودة في المجموعات والمتاحف، لم يقع فقط عزلها عن سياقاتها الثّقافيّة المدعوّة للتدخّل في صلبها[53]. فبعضها تعرّض إلى العديد من عمليات التشويه

---

(52) تشترط صناعة وحفظ وترميم التحف مجموعة من المعارف التقنيّة - معارف تخصّ العالم النّباتي، والمعدني والعضوي. ويتطلب استعمال الخشب، مثلا، أدنى معرفة بمكوّناتها، خاصة تلك التي تجعلها تقاوم التّعفّن وويلات الزّمن. وكان الأمر كذلك بالنّسبة إلى الزّيوت ودهون الحيوانات، والأصباغ وعناصر مثل النّار، التي كانت مهمّتها جعل المواد نقيّة. حول هذا الموضوع، انظر:
Pol-Pierre Gossiaux, «Conserver, restaurer: écrire le temps en Afrique», *CeROArt*, nº 1, 2007.

(53) انظر:
Johannes Fabian, «On recognizing things: The "ethnic artefact" and the "ethnographic object"», *L'Homme*, nº 170, 2004.

والبتر، بما فيها المادّيّة، وظهرت عليها من الآن فصاعدا ندوب هامّة[54]. لنأخذ، على سبيل المثال، أقنعة وأدوات أخرى تُستعمل في حفلات الرّقص. لقد وصل معظمها إلى أوروبا مغطّاة بقلنسوّة وكسوّة بمختلف طواقم المجوهرات (ريش البومة، والصقر، والنّسر، والسمّان أو الدّيك، وإبر النّيص، وحتى فساتين من لحاء الشجر بقضبان من ورق البردي المصبوغ). وهذه الطواقم من المجوهرات والأساليب المميّزة، وكذلك السّياق المدعوّة أن تظهر فيها، جعلت منها أوعيّة للحواس. وكانت هامّة جدّا مثل الميزات الشكليّة للتحف، أو مثلما أشار إليه غوسيو "التعبير لهندستها في الفضاء". غير أنّها كانت مجرّدة كليّا "من كلّ ما يحجب هياكلها الواضحة"[55].

وإن كان هنالك تعارض بين الأسطورة والتّقنيّة، لدى الشعوب التي تنتجهما، ثمّ كان تعارض التقنيّة والطقوس مبدئيّا هشّا، فكيف يمكن الحصول على نصيب من مختلف الممارسات، من بين الأقنعة، والأصنام والتماثيل المقدّسة، والمنشّة، وفضلات النّباتات، والعظام البشريّة والتّمائم، وجلود الحيوانات، والكاولين، والأصداف، ومسحوق

---

(54) انظر:

Gaetano Speranza, «Sculpture africaine. Blessures et altérité», *CeROArt*, nº 2, 2008.

(55) انظر:

P.-P. Gossiaux, «Conserver, restaurer: écrire le temps en Afrique», art. cité.

البادوك، والرّماح، والطبول، ومواد أخرى مكرّسة للطقوس العابرة أو للتدريب، تلك التي كانت مخصّصة لتكريم الموتى أو لطرد الأرواح الشرّيرة، وأخرى جُعلت أيضا للممارسات الطبيّة أو السحريّة؟

فمن يستطيع أن ينكر بصدق بأنّ ما أُخذ، لم تكن تحفا فحسب، بل معها مناجم رمزيّة و**مدّخرات محتملة** عظيمة؟ ومن لم ير بأنّ الاستيلاء على أوسع نطاق على الكنوز الإفريقيّة مثّل خسارة عظمى، لا تُحصى عمليّا، وبالتّالي، غير مرجّحة لتعويض مالي محض، بما أنّ ما أدّى إليه هو **إفساد** لقدراتنا على خلق عوالم، وصور أخرى لإنسانيّتنا المشتركة؟

وإذن لا يتعلّق الأمر باسترجاع مواد، وأساليب، وزخارف، ووظائف فقط. ولكن كيف يتمّ استرجاع المعنى؟ فهل تمّ خسرانه فعلا؟ فمن سيعوّض فعلا ضرورة العيش، إلى الأبد، مع هذه الخسارة؟ فهل هي قابلة فقط للتعويض؟ ألا تجد أوروبا حرجا من هذه المسائل؟ لم تكن بالنّسبة إليها عمليّة الاسترجاع التزاما. فهي ترى، بوفائها إلى شكل من التمسّك القانوني، الموروث من تاريخ طويل، بأنّه لا يوجد التزام إلّا أين يوجد إكراه قانوني. ففي نظرها، أنّ أيّ عمليّة استرجاع هي، مهما قيل، شكل من بين أشكال أخرى للدّفع. ولا يوجد شيء يجب دفعه دون وجود ديون. وبالتّالي، تفترض كلّ عمليّة استرجاع وجود ديون معلنة أم لا.

ولكن تعتبر أوروبا أنّها ليست دائنة لنا وأنّنا لسنا مدينين لها. فلا توجد أيّ ديون لتسديدها. وهل يوجد واحد منها قد نكون عاجزين عن التّقيّد به. فهو ليس إلزاميّا. وترى أنّه في الوضع الحالي للأمور فإنّ الوسائل المتوفّرة بالقانون لا تسمح بإجبارها على إعادة تُحفنا. وإن وُجد التزام للاسترجاع، فليس هذا الأخير إلزاميّا. وما يميّز الالتزام الفعلي، هو إمكانيّة العقوبة في حالة عدم التّنفيذ. وإن انتهى الأمر، رغم كلّ ذلك، بإعادة تلك الأشياء، فسيكون ذلك طوعا، في عمليّة كرم وسخاء، وليس كعمليّة التزام إزاء أيّ كان. وفي هذا الشأن، كما في غيره، لم يكن الأمر بإقامة العدل، بل بطرح مجاني وتطوّعي. فلا يعود الاسترجاع إلى المجانيّة وحسن المعاملة، بل إلى الالتزام. وهنالك التزامات لا يمكن الإيفاء بها حسب قيود القانون الموجود. ولكنّها تظلّ التزامات. وهنالك التزامات لا نستطيع تسديدها طوعا، بواجب الضّمير. ولكن، منذ مدّة بعيدة، لم نعد نعتقد في آثار نداءات الضّمير.

يجب على كلّ عمليّة استعادة، حتى تكون أصيلة، أن تقوم على أساس اعتراف متواز مع خطورة الضّرر المتكبّد والأخطاء المفروضة. وليس هنالك أيّ شيء للاستعادة بصرامة (أو الإعادة) أين اعتبرنا أنّنا لم نتسبّب في أيّ عيب؛ وبأنّنا لم نأخذ شيئا يستوجب أيّ ترخيص مهما كان. وبهذا تكون عمليّة الاستعادة غير منفصلة عن عمليّة الإصلاح. "فالاستعادة" أو "الترميم" (وهو الاسم الآخر للاسترجاع)

ليس نفس الشيء مثل "التوبة". وعلاوة على ذلك، ليس أحدهما شرطا للآخر. وكذلك، كلّ عمليّة استعادة دون مقابل (أو ترميم) هو مبدئيّا جزئيّا. ولكن هنالك خسائر يتعذّر إصلاحها ولا يقدر أيّ تعويض على تسديدها - وهذا لا يعني أنّه من الواجب عدم التّعويض على الاطلاق. والقيام بالتّعويض لا يعني فسخ الخطأ. فلا ينتج عن ذلك أيّ إعفاء. فالتعويض، مثلما أكّده كوام أنطوني أبياه، يوازي عرضا لإصلاح العلاقة(56). وأكثر من ذلك، يكون الاسترجاع إلزاميّا أين وقع تدمير واع، وخبيث ومتعمّد لحياة الآخر. ففي أنظمة الفكر لما قبل الاستعمار، تكون العيوب الأكثر ضررا هي تلك التي تمسّ ما أسماه بلاسيد تامبلس "القوّة الحيويّة"(57).

ففي السّياقات التي كانت فيها الحياة هشّة والتي كانت فيها عرضة لأن تكون منقوصة، فأيّ هجوم على سلامة الوجود وكثافة الحياة مهما كان حدّها الأدنى، فهي تستحقّ إصلاحا. وفي معناها الكامل، يؤدّي الإصلاح (أو الاستعادة) إلى وضع تقدير للخسائر التي وقع تكبّدها. ويمكن التعبير عن حساب الأضرار بمعطيات اقتصاديّة. ولكنّها، في نهاية المطاف، هي بقياس قيمة الحياة التي كانت وضعتها. إنّ

---

(56) Kwame Anthony Appiah, «Comprendre les réparations. Réflexion préliminaire», *Cahiers d'études africaines*, vol. 1, nº 173-174, 2004.

(57) Placide Tempels, *La Philosophie bantoue*, Lovania (Elisabethville), 1945.

قياس انتهاك الحياة المتعرّض إليها هو الذي، في نهاية الأمر، يصلح أن يكون أساس تقدير للتّعويض أو الاسترجاع[58]. وفي سياق مباشر لهذه الفلسفة، تكون الاستعادة الحقيقيّة إذن استعادة من يساهم في ترميم الحياة. فالقانون الذي يبطنها موجّه كثيرا نحو الفرد أكثر منه نحو الثروات، ونحو الملكيّة. فلا يوجد استرجاع دون إصلاح. ولكن أين تتداخل التعويضات والمصالح الماديّة، فإنّ هذه الأخيرة ليس لها معنى إلّا بالقيام بترميم الحياة.

لا يوجد أبدا استعادة حقيقيّة في غياب ما يمكن أن نطلق عليه اسم **القدرة على الحقيقة**. فالإعادة، في هذا الإطار، تعود إلى واجب قطعي - اللانهاية التي لا جدال فيها المتمثلة في الحياة، كلّ حياة، وهو شكل من الدّيْن غير المنجز مبدئيّا. وبالنّسبة لأوروبا، فإنّ إعادة تحفنا يعني التّوقّف عن القدوم إلينا ممن في نظره تحتسب وتفرض حقيقته الشخصيّة الوحيدة. ولا يمكن لأوروبا بأن تدّعي إعادة أشيائنا مع البقاء مقتنعة بأنّنا لسنا موضوعا سوى في التأكيد على ميزتها الخاصّة وليس في نوع من التعاون يفرضه العالم المستقيم الذي أمسى عالمنا. فكلّ حياة فرديّة تُحتسب. وليس التّاريخ سوى مسألة قوّة، وهو أيضا مسألة حقيقة. فالنّفوذ والكرامة ليسا سوى هبة للقوّة والنّفوذ. وإذن فإنّنا مدعوون إلى تكريم الحقيقة، وليس فقط القوّة والنّفوذ.

---

(58) نفس المصدر، ص. 37.

والحقيقة أنّ أوروبا أخذت منّا أشياء لا يمكن أبدا أن تعيدها إلينا. وسنتعلّم العيش مع هذه الخسارة. وهي، من ناحيّتها، أن تتحمّل مسؤوليّة أفعالها، لهذا القسم المظلم من تاريخنا المشترك الذي تبحث عن التّملّص منه. فالخطر هو أنّه باسترداد موادنا دون تفاهم، ستستنتج أوروبا من ذلك بأنّها ستسلب من حقّ تذكيرها بالحقيقة. وما من أحد يطالبها بالتوبة. ولكن لكي يتمّ نسج علاقات جديدة، عليها أن تكرّم الحقيقة، إذ أنّ الحقيقة هي معلّمة المسؤوليّة. وستلاحقنا حتى نهاية الأزمان. ويمرّ تكريمها بالالتزام بإصلاح نسيج ووجه العالم.

الخاتمة

لدينا العديد من السّبل المتوفّرة. وكان في الإمكان اتباع الكثير من السّبل الأخرى. وفي الواقع، ما من شيء يحكم علينا بالفشل في هذه الأطراف.

وغدا، ربّما لا يتعارض أيّ اختلاف بيننا نحن، آلات الحساب المخلوقة مسبقا، وآلات الحساب، تلك التي صنعناها. فربّما سيكون العصر، العصر الذي تبتلع، في النّهاية، خلاله هذه الأدوات. فلا تكون البشريّة إلّا واحدة مع هذه الأخيرة ومع العالم الخارجي، الذي، بالمثل، سيختفي، مدفونا في أحشائه.

سنقيم في النّهاية حلفا مع جميع معدّات النقل العالميّة، وجميع عمليّات التطعيم، وستتصالح أخيرا أسرار الجسد مع ألغاز الآلة. وبما أنّه وقع الإطاحة بالسّرّ وما من شيء أخذ مكانه، سينفجر مصنع الأحلام ويختفي في غمامة عظيمة من الدّخان. وهكذا ستدقّ أجراس البشريّة. عندها، سينفتح أخيرا عصر ما بعد التّاريخ على محيط من المواد الاصطناعيّة والسوائل الميكانيكيّة.

فلن توجد أبدا حوادث، ولا أديان، ولا دول، ولا

شرطة، ولا حدود، ولا أجناس، ولا لغات، ولا انتصاب، ولا قضيب. وفي كلّ مكان، [ستظهر] أنابيب ميكانيكيّة، وأسنان بلاستيكيّة، ولوالب، ورقائق موضوعة في الأجسام. وفي كلّ مكان، تغيير الشكل، وإنفاق ومتعة التّبذير، في جبّ النّشوة الذي سيكون عليه الكون.

وكان دوما تجاوز حدودنا الجسديّة، آخر الحدود، هو حلمنا. وسيكون ثمنه بالنّسبة إلينا الأرض.

والآن، فإنّ طريق الصدمة منفتح على مصراعيه، ويتساءل الكثير عمّا أسموه "إمكانيّة الفاشيّة"، بينما الديمقراطيّة الليبيراليّة، أفق انتظار فارغ من محتواه، لم تتوان عن التّفكّك. لا يهمّ إن أكّد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، في فصله الثالث عشر، بأنّ كلّ ساكن للأرض "له الحقّ في التّنقّل بحريّة وفي اختيار مقرّ إقامته داخل دولة". ولم تعد الأرض ملكا للجميع، وفي نفس الوقت، لم يعد هنالك إطلاقا "مستقرّا ذاتيّا"، أين يتمّ الرّكون إليه. فكلّ شيء يعود إلى الحساب. ولم تعد هنالك **حقوق مستدامة**. فالجميع قابل للنّقض. وفي الوقت ذاته، لم تتوقّف التّقنيات الرّقميّة والشركات الكبرى المتراميّة الأطراف عن محاصرتنا وممارسة هيمنة يتعذّر فهمها على رغباتنا وتصرّفاتنا.

لم يعد العصر غريبا فحسب. فهو مناسب لكلّ التّجاوزات دون هدف واضح.

كان الأمر كذلك منذ مدّة ليست بالبعيدة. فقد كان

السؤال، في ذلك الوقت، هو معرفة كيف يقع إصلاح النّظرة والخروج من الأزمة بطريقة لا تؤدّي أبدا إلى العدم.

وتعود "إمكانيّة العدم" لكي تطفو إلى السّطح، ومعها إمكانيّة [ظهور] "الوحش الغاشم"، وقد كان الزنجي التظاهرة البارزة لهما، وفي نفس الوقت، اليرقي والسّاعي للأفول. وفي الواقع، أسدلت أوروبا، في عمليّة إسقاط خيالي عظيمة، جزءا من ستار ظلماتها على هذا الفاعل المفقود (الزنجي). وهو الجدل الذي جعل الخروج من "أزمة الإنسانيّة الأوروبيّة" غير منفصل عن المسألة الزّنجيّة، وبالتّالي عن مسألة "الأرض بأكملها".

إنّ المسألة الزّنجيّة، أي مسألة "الأرض بأكملها"، كانت دوما تطرحها أوروبا على نفسها، في كلّ مرّة، من موقع الاستثناء، وكأنّها ليست جزءا منها. ولكن التّاريخ الخفيّ للميتافيزيقا الغربيّة التي تمثّل التكنولوجيا عظامها، وهيكلها العظمي ولحمها، هو في حالة توتّر من صورة الزّنجي أو مهووس بها. ولا يظهر هذا الأخير من الخارج عند حافة أو حدود أوروبا التي اغترّت بلقب الإنسانيّة المكتملة. فالزّنجي الذي لم تفكّر فيه الميتافيزيقا الغربيّة هو أساسها وأحد أهمّ مقوّماتها - الزنجي كما هو اسم "الأرض بأكملها"، أو على الأقلّ أحشاؤها.

كان الشأن دوما كذلك، وأوّلا بالنّسبة إلى ما يكتسيه غيابه من المنظار المفترض من الوجه والاسم، ومن وجهة

نظر ما تترجمه أشكاله البشعة، والشيء الأكثر إهانة أيضا، وفقا لعدّة أعراف الممكن أن يخضع إليها. فبالأمس، تأسّف رينيه دبستر، فعلا، بأنّه "عندما جلبوا آخر قطرة من الدّم الهندي إلى السّوق، تحوّلوا إلى النّهر النّامي العضلات لإفريقيا لضمان بديل لليأس. عندها بدأ الاندفاع نحو خزينة اللحم الأسود الذي لا ينضب"(1). ونطق صارخا جسم ولحم، جسم ومعدن خام، جسم ومعدن، جسم وخشب أبنوس، وشعب مستصلح ومسلوب، وكأنّه أراد أن يؤكّد على مأساة إنسانيّة سجينة في ليل جسماني، وبالتّالي مأساة "أرض بأكملها"، منفتحة في أحشائها العميقة جدّا، بدأ بإفريقيا مهدها، **ومولدها الأوّلي** (إيمي سيزير).

إن كانت إفريقيا، عند بداية العالم، في الزّنجي، فإنّ أوروبا، في المقابل، لا تمثّل سوى تهديدا خطيرا لإنسانيّة الإنسان. فبالنسبة إلى الإنسان المعتبر حاليّا بمثابة جواد الإنسانيّة، فإنّ الزنجي لا يتذكّر ما كان عليه وما تخلّص منه فحسب، بل وأيضا ما يجازف به بأن يصبح عليه ثانيّة - خطر **الارتداد** إلى وضعيّة اعتقدنا أنّنا تخلصنا منها نهائيّا. ألا يمثّل الزّنجي، مبدئيّا، انقراض الفاعل، ممّا يجعل العقل مضطربا؟ ألم يكن في الأصل مكرّسا للخسارة؟ كانت "خسارة الزّنجي" - وبالتّالي خسارة "الأرض بأكملها"، من المفترض أن لا تترك أيّ أثر، وأيّ علامة في أخدود الزّمان

(1) René Depestre, *Minerai noir*, Présence africaine, Paris, 1956, p. 9.

وفي ذاكرة الإنسانيّة. فقد كان حضوره وخسرانه غير قابلين للتّدوين.

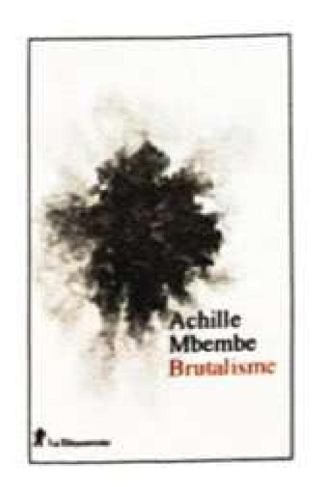
عند تفطّن أهلنا إلى فظاعة المشهد لفترة ما بين الحربين العالميتين كان الشأن من جعل تلك المواجهة الجذريّة للأسطورة القائلة بأنّ أوروبا قد تكون المكان المناسب للإنجاز النهائي للإنسانيّة. ولكن ربّما يكون اليوم من الضروري السّير إلى أبعد من ذلك. إذ ربّما ستكون المكان الذي ستجد فيه الإنسانيّة نهايتها، ومكان دفنها. فبالنّسبة لسابقينا، لم تصلح صورة الزّنجي فقط لطرح بعبارات جديدة المشكل المعقّد للعلاقات بين الثّقافة والعرق، أو أيضا بين التّاريخ والإستيتيقا. وهي أيضا طريقة للتساؤل عن إمكانيات تحرير مجموع الجنس البشري، شرط مسبق، ولكن على الأقلّ حسب ما يرون، لتجاوز التّناقض بين القوّة والعدالة، ولإعادة اختراع الأرض، أو حسبما يمكن أن نقول اليوم، لإصلاحها.

ذلك هو آخر اختيار. إمّا الإصلاح أو الجنازات. فلا مفرّ في أيّ كوكب خارج المجموعة الشمسيّة أيّ كان. وستكون الأرض واحة تتولّى انطلاقا منها "الإنسانيّة بأكملها" العمل العظيم لإحياء الكائن الحيّ. أو ستكون القبر العالمي، وضريحه، في استمراريّة المرحلة الجيولوجيّة لتاريخ الكون.

سوف لا يستقبل هذا الضّريح جثمان الإنسانيّة فحسب،

بل وأيضا موميائها. ولا تتمّ جنازات الإنسانيّة في كامل السّرّيّة، بل في الصّخب المطلق. وسوف تضرم مجموعة من المشاعر وتدعو التّاريخ الحميمي لكلّ واحد. وسيأتي إليها بعضهم مسلّحين بذكريات كارثيّة، وسموم، وهدايا أخرى، وكلّ أنواع المواد التّافهة، وحليّ، وشراب مسكر، وكوكايين، وتبغ، وجلود حيوانات، وبنادق صيد، والبعض من الماعز، ومرايا ضخمة، وأوثان بالية، وربّما البعض من البخور. وسيكون كلّ شيء محلّ تساؤل. ولكن منذ مدّة طويلة، تمّ غلق زمن الإجابات نهائيّا.

لا تفترض سياسة إصلاح جديدة وإعادة توزيع الأماكن التي يحتلّها هؤلاء أو آخرون، بشر من ناحية وكلّ البقيّة من ناحية أخرى فحسب، بل هي أيضا تدعو إلى طرق أخرى للتّفاوض وحلّ الصّراعات التي تثيرها مختلف الطرق المتناقضة لتوطين العالم، وإلى إعادة جدولة شاسعة للعلاقات، فيتطلّب الإصلاح التخلّي عن أشكال التملّك الحصريّة، والاعتراف بوجود ما لا يُحصى وما لا يُمتلك، وبالتّالي لا يمكن ان توجد حيازة واحتلال حصريين للأرض. فهي، كسلطة سياديّة، ليست ملكا إلا لنفسها، ومخزونها من مادّة جرثوميّة، ما من أحد قادر على ضمّه لا مسبقا ولا للأبد.



الوحشيَّة

[فقدان الهُوِيَّة الإنسانيَّة]

ساد الاعتقاد وما زال يسود بأنّ البشريّة تتطوّر باطراد نحو ما هو أفضل. وخيّمت هذه القناعة على الفكر البشري، عند ما سارع فلاسفة عصر "الأنوار" في القرن الثامن عشر إلى إحداث قطيعة بين الفكر الميتافيزيقي، الغيبي والماورائي من ناحية، والفكر العلمي المجرّد والمادّي من ناحية أخرى. فأصبحت الإنسانية، خاصة منذ انطلاق الثورة الصناعيّة خلال القرن التاسع عشر، واثقة من نفسها بعد السيطرة على المجال والمادّة في نفس الوقت، بل والانطلاق لسبر أغوار الفضاء. وبالرغم من هذا التطوّر، تفاقمت وحشيّة الإنسان لا إزاء أمثاله مهما كانت أصولهم ومشاربهم فحسب، بل وإزاء جميع بقيّة الكائنات الحيّة الأخرى، ملحقا أيضا الأضرار الفادحة بالوسط الطبيعي والبيئة التي يعيش فيها. وحشية تجاوزت الحدود، لا بسبب الحروب المتواترة والتصفيات العرقية التي اتخذت طابع الإبادة، والعنصرية التي، وإن خفّت ظاهريا أساليبها، ولكنها تنذر بالعودة بأكثر حدّة ووحشية فحسب، بل وحشية تجاوزت حدود الوحشية التي عرفتها فصيلة الديناصورات والتي أدّت إلى انقراضها.

يطرح هذا الكتاب الكثير من التساؤلات الحيويّة والراهنة، رغم ما اكتساه من صبغة تشاؤميّة، قد تجعل منّا ديناصورات العصر الحديث، التي تسير نحو فنائها دون وعي، وهي تعتقد أنّها بالرقمنة تسير نحو مزيد من التطور. وهو أيضا كتاب جدير بأن يدفعنا إلى مزيد من التفكير في واقعنا الرّاهن، والعالم يواجه جائحة خطيرة، لا زلنا لا نعرف خاتمتها في حال لم يعثر على ترياق لها.

ابن النديم للنشر والتوزيع
الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3
محل رقم 1، المحمدية
تلفاكس: 88 97 25 41 213 +
خلوي: 03 76 20 661 213 +
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية - ناشرون
الحمراء - شارع ليون - برج ليون، ط6
بيروت-لبنان - ص. ب. 113/6058
خلوي: 28 28 69 3 961 +
هاتف: 37 04 74 1 961 +
email: rw.culture@yahoo.com

ISBN 978-9931-599-41-8

